صفحات من تاريخ المرأة المصرية
في العصر الحديث

دكتور
عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجميعي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

- المرأة المصرية بين الثابت والمتغير
(قضية تعليم المرأة وإلحاقها بالعمل)
- المرأة المصرية في عصر الجبرتي
- المرأة في حياة محمد علي
- صالون الأميرة نازلي فاضل
- المرأة المصرية والتعليم الجامعي
- فاطمة اليوسف كنموذج لإبداع المرأة العربية في الفن والصحافة
- منيرة المهدية وأم كلثوم بين الأصالة والمعاصرة
- أم كلثوم وتطور فن الغناء العربي
- صالونات نسائية (مي زيادة - هدى شعراوي)
- الأفراح في مصر الحديثة بين الاستمرارية والتغير
(صفحة في تاريخ مصر الاجتماعي في القرنين ١٩ ، ٢٠)
- أفراح أنجال الباشا
- حكاية ريا وسكينة من أبرز القضايا النسائية في تاريخ مصر الحديث.
- المرأة في حياة زعماء مصر السياسيين.

مقدمة

تتناول هذه المجموعة من الدراسات صور من حياة المرأة المصرية في التاريخ الحديث والمعاصر كان لابد لها أن تخرج إلي النور وتتحول إلي سطور تضيف إلي ما كتبناه في تاريخ مصر الاجتماعي صفحات تجمع بين الفائدة والطرافة ، وتضيف المزيد من جوانب الحياة المصرية في ذلك العصر الزاخر بالمؤثرات والمتناقضات والذي تداخلت فيه الفروق بين الأصالة والمعاصرة ، وبين النهوض والتغيير ، والمواطنة والحداثة .

وقد رغبت في تجميع هذه الدراسات التي تجتمع في فلك واحد يمثل صفحات من حياة المرأة ودورها في المجتمع خشية ضياعها في زحمة التأليف والتواليف التي يزخر بها سوق النشر ، ولكي تكون أيسر منالا للراغب في الاطلاع عليها والإفادة منها . وقد تناولت الدراسة الأولي موضوع المرأة المصرية بين الثابت والمتغير وقضايا تعليمها وإلحاقها بالعمل ، وتناولت الدراسة الثانية موضوع المرأة المصرية في عصر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي وهذه الدراسة شاركت بها في احتفالية المجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بتكريم المؤرخ الفرنسي الشهير أندريه ريمون ضمن فعاليات ندوة علمية أقيمت لهذا الغرض عن تطور المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني في ابريل ٢٠٠٥ ، وتناولت الدراسة الثالثة المرأة في حياة محمد علي مؤسس مصر الحديثة ، وهذه الدراسة نشرتها مجلة الهلال في عددها الصادر يونيو ٢٠٠٥ وشملت الدراسة الرابعة صالون الأميرة نازلي فاضل الذي جذب قادة الرأي والفكر في مصر ، والذي يعد من أبرز الصالونات في مصر خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والذي نشر في العدد ٣٨ من المجلة التاريخية المصرية (اليوبيل الذهبي) وتناولت الدراسة الخامسة المرأة المصرية والتعليم الجامعي والتي شاركت بها في مؤتمر مائة عام علي تحرير المرأة الذي أقامه المجلس الأعلى للثقافة وشملت الدراسة السادسة فاطمة اليوسف كنموذج لإبداع المرأة العربية في الفن والصحافة والتي شاركت بها في مؤتمر المرأة العربية والإبداع الذي عقده المجلس الأعلى للثقافة في أكتوبر ٢٠٠٢ وتناولت الدراسة السابعة موضوع منيرة المهدية وأم كلثوم بين الأصالة والمعاصرة والتى نشرت بمجلة الشرطة فى نوفمبر ٢٠٠٦ .

وتناولت الدراسة الثامنة موضوع أم كلثوم وتطور فن الغناء العربي وقد شاركت بها في الكتاب التذكاري الذي صدر بمناسبة احتفال كلية الآداب جامعة الاسكندرية ببلوغ الأستاذ الدكتور "

عمر عبد العزيز : سن السبعين وتناولت الدراسة التاسعةموضوع الصالونات الأدبية النســائية والتي كان أبرزها صالون مي زيادة وصالون هدى شعراوي.

وشملت الدراسة العاشرة موضوع طريف بعنوان " الأفراح في مصر الحديثة بين الاســتمرارية والتغير- صفحة من تاريخ مصر الاجتماعي في القرنين التاسع عشر والعشرين" وقد تناولنا فيه العادات الموروثة والمستحدثة بداية في إعلان خطبة العروس حتى زفافهــا ، وأثــر التطــور الحضاري في قلب الأمور رأساً علي عقب في كافة مناحي الحياة الاجتماعية ، وتغيير بعــض عادات وتقاليد المصريين المتوارثة ، وظهور عادات جديدة حلّت مكان العادات القديمة الموروثة .

واستكملت الدراسة الحادية عشر هذا الموضوع بدراسة عن أفراح أنجال الخــديوى إســماعيل باشا وشملت الدراسة الثانية عشر موضوع ريا وسكينة تلك القضية التى شغلت الــرأى العــام المصرى بشكل تجاوز كل الحدود وتأتى موضوعات الكتاب إلى نهايتها بموضوع مثير وهو دور المرأة فى حياة الزعامات المصرية وفى مساندتها والتأثير فيها أحيانا والإساءة إليها فى أحيان أخرى.

ولنا عظيم الرجاء في أن نكون قد وفينا تاريخ المرأة المصرية بعض حقه .

والله ولي التوفيق

أ.د. عبد المنعم الجميعي

القاهرة – المهندسين أبريل ٢٠٠٧

١- المرأة المصرية بين الثابت والمتغيـــــــر

قضية تعليم المرأة وإلحاقها بالعمل

على الرغم من ان المرأة المصرية تعد امتدادا لتاريخ عريــق حققــت فيــه مكانــة اجتماعية مرموقة خاصة وأنها كانت من أوائل النساء فى التاريخ التى مسكت بالقلم والأوراق والدواة والقرطاس لتكتب وتقرأ وتتعلم ، فإن قيود العادات والتقاليد التى كبلتها فــى بــدايات العصر الحديث جعلتها حبيسة "الحرملك" لا تخرج منه سوى مرتين مرة من منزل والدها إلى بيت زوجها، ومرة أخرى إلى قبرها، كما كان ينظر إليها على أنها أداة من أدوات متعة الزوج ولإنجاب الأطفال له وكان أغلبهن يشتكين من التخمة وعسر الهضم نظرا لإكثراهن من تناول الأطعمة الدسمة مع قلة الحركة. وبالرغم من إنتشار الجهل والخرافات بين النساء لدرجة أصبحت معها المرأة لا تؤمن إلا بالجن ولا ترتاح إلا بالأحجبة والتمائم التى تكتب منعا للعفاريت، وإقامة حلقات الزار وكشف الغيب بقراءة الكف وفناجين القهوة وزيارة أولياء الله الصالحين.(١) فإن هذه الأوضاع الاجتماعية بدأت فى التغير تدريجيا مع المتغيرات السياسية التى طرأت على مصر منذ عصر محمد على، فموضوع الحجاب وقضاء الساعات الطوال خلف المشربيات، لمشاهدة المارة دون أن يتمكن الرجال من رؤيتهن(٢)، وفكرة تعليم الفتاة والدعوة إلى دخولها معترك الحياة كانت من القضايا التى أثيرت على استحياء بعد إيفاد محمد على للبعثــات إلــى أوربا حيث حظيت هذه القضايا باهتمام كبير خاصة بعد أن رأى المبعوثون المركز الذى بلغته المرأة الأوربية بعد أن نالت قسطا من التعليم فحملوا ذلك إلى وطنهم، وتمنوا للمرأة المصرية مركزا شبيها لها فقام رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك بالدعوة إلى تعليم المرأة، فدعا رفاعــة عضو البعثة التعليمية إلى فرنسا عام ١٨٢٦ والذى بهره ما شاهده فى بــاريس مــن تحــرر للمرأة الأوربية إلى ضرورة النهوض بالمرأة المصرية بشــكل يــربط بــين مفــاهيم الفكــر





(١)أحمد خاكى: المرأة فى مختلف العصور، ص ١١٤.
(٢)ستانلى لين بول: سيرة القاهرة- ترجمة حسن ابراهيم وآخرون، ص ٣٥- ٣٦.

الاسلامى، وروح العصر فأوضح أن الاسلام لا يمنع المرأة من حقها فى التعليم، بـل جعـل طلب العلم فريضة، وأمرا واجبا، كما خصص فصلا فى كتابه "المرشد الأمين للبنات والبنين" أوضح فيه أن تعليم البنات يساعد على تنوير عقولهن بمصباح المعارف ويكون المرشد لهـن فى أمور الحياة حيث يؤدى إلى فتح آفاق المعرفة أمام الفتاة حتى تزداد أدبا وعقلا وقد اشترط رفاعة أن يقتصر تعليم الفتاة على القراءة والحساب، وبعض الأمور المنزلية مثـل الحياكـة والتطريز لما فى ذلك من فائدة لها ولأسرتها ولمجتمعها[1]، كما أوضح أنه لا يمانع فى عمـل المرأة عند الاقتضاء لأن هذا العمل يصونها "عما لا يليق بها ويقربها من الفضيلة" فإذا كانـت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء". وهكذا كان رفاعه أول من دعا إلى تعليم وعمل المرأة حيث سبقت دعوته هذه قاسم أمين بحوالى نصف قرن من الزمان وقد تبع رفاعه فى هذه الدعوة على باشا مبارك عضو بعثة الانجال إلى باريس عـام ١٨٤٤م ومن الرواد الأوائل الذين شغلوا بقضية تعليم المرأة والذى حاول أن يوفق بين الآراء الحديثة والتقاليد الاسلامية فذكر أن من حق المرأة التزود فى العلم إلى غايته، وإلا تقف عند حد تعلـم القراءة والكتابة بل يجب أن تتبحر فى العلوم عموما حتى تزداد محاسنها المعنويـة، وتكـون خير سند ومعين للرجل كما رأى ضرورة أن تتمرن المرأة على أصول حسن تربية الأطفـال وتدبير المنزل وأشغال الخياطة والتطريز[2]، وإلى جانب ذلك فقد شارك على مبارك رفاعـة الطهطاوى القول فى أن الأدب والثقافة والتعليم يزيد من التقارب الثقافى والذهنى بين الرجـل وزوجته وإن الإسلام شرع للمرأة حق التعليم فى اطار الحشمة والالتزام الأخلاقى فى المجتمع كالرجل تماما ويبدو أن خروج المرأة المصرية إلى مجال العمل قد سـبق ذهابهـا إلـى دور العلم، والدليل على ذلك أنها شاركت رغم قيود التقاليد فى إنجاح خطة محمد على لبناء دولتـه الحديثة حيث نزلت إلى العمل وتم الاعتماد عليها لسد النقص فى العمالة فى مصـانع الغـزل والنسيج، وفى المزارع والعمل بالفلاحة ورعاية الزرع، وحصد المحاصيل

---

(١) للتفاصيل أنظر: المرشد الأمين للبنات والبنين، ص ٦٦-٦٩.

(٢) تحدث على مبارك فى احدى مسامراته فى كتابه علم الدين عن تعليم المرأة كما تطرق إلى ذلك فى كتابه طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية، انظر، جـ٢، ص ١١٧.



نساء وأطفال من الطبقة الفقيرة -





خاصة عند ذهاب الرجال إلى التجنيد، أو خروجهم لأعمال الـرى، وبـذلك عرفـت المـرأة المصرية لأول مرة الوظيفة الرسمية.

أما بالنسبة لتعليم المرأة المصرية فعلى الرغم من أن تعليم البنات كـان لـدى عامـة المصريين فى ذلك الوقت من الأمور غير المرغوبة لزعمهم أن البنت إذا تعلمت وتثقفت يمكن أن يتسبب عنه إفساد أخلاقها[١]، فإن محمد على حاول اختراق التقاليد الجامـدة بتعلـيم المرأة فافتتح لها مدرسة للولادة[٢]، ثم جاءت دعوة رفاعة وعلى مبارك لتعليم المـرأة، ومـع أنها لم تأت أكلها فى عهد عباس الأول وسعيد فإنها آتت ثمارها فى عصر الخديو إسماعيل[٣]، فلم يمض على حكمه أربع سنوات حتى كان التفكير فى تعليم البنات إذ تكونت



فى ٢١ مارس ١٨٦٧م لجنة للنظر فى شأن إنشاء مدارس للبنات، ونتيجة لتعثر تنفيذ المشروع ترك الخديو أمور تعليم المرأة لزوجاته فتقدمت زوجته الثالثة الأميرة "جشمه آفت هانم افندى" إلى هذا الميدان ووظفت أموالها فى سبيل تعليم الفتيات المصريات فدفعت مبلغا كبيرا لشراء قصر قديم فى منطقة "السيوفية" وأمرت بتحويله إلى مدرسة للبنات تضم مائتى تلميذة للقسم الداخلى، ومائـة أخرى للقسم الخارجى[٤]، وقد أفتتحت هذه المدرسة فى ١٨٧٣/٨/٣ باسم مدرسة السيوفية[٥]، التى تغيرت اسمها بعد ذلك إلى المدرسة السنية، كما شجعت هذه الأميرة الأسر المصرية على إرسال بناتها إليها مما ساعد على نجاح هذه المدرسة فى تأدية رسالتها، وأدى إلى أن يخطـو تعليم الفتاة خطوات لم يعد بعدها مجالا للرجوع إلى الوراء، وخلال هذه الفترة ظهر فى حياة مصر الاجتماعية الأميرة "نازلى فاضل" التى افتتحت فى منزلها صالونا أدبيا ضم كبار رجال الفكر والسياسة أمثال جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وقاسم

---

(١)عبد المنعم الجميعى: عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، ص ٣٨٢- ٣٨٣.

(٢)للتفاصيل أنظر: عبد المنعم الجميعى: المرأة المصرية فى عصر الجبرتى، ص ٢.

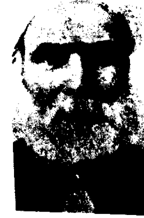
(٣)جاءت البعثات الدينية من الرهبان والراهبات كجماعة الجزويت والفرير إلى مصر وأسسوا المدارس للبنات والبنين، والتحق بهذه المدارس فى أول الأمر الفتيات القبطيات والأسرائيليات وتبعهن الفتيات المسلمات من الطبقة العليا.

(٤)درية شفيق وابراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر من عهد محمد على إلى الفاروق، ص ٤٦- ٤٨.

(٥)أحمد شفيق: أعمالى بعد مذكراتى، ص ٣٥٢، وقد بلغ عدد تلميذات هذه المدرسة خمسون تلميذه، وكانت مدة الدراسة بها خمس سنوات تتعلم فيها الفتيات بجانب اللغتين العربية والتركية بعض المعلومات عن جغرافية وتاريخ مصر وعلم الحساب والرسم وأشغال الإبرة.

أمين وغيرهم من أعلام النهضة الفكرية وقتذاك ونوقشت فيه مسائل الإصلاح الاجتماعي وأحوال المرأة المصرية[١]، مما ساعد على بروز الدعوة لأهمية تعليم المرأة المصرية.





وهكذا كانت دعوة رفاعة وعلى مبارك بداية لانطلاقه تدعو إلى تعليم المرأة، والتي حملها بعد ذلك جمال الدين الافغاني وتلاميذه أمثال محمد عبده وعبد الله النديم، فنادى الافغاني بتعليم المرأة من منطلق أن الإسلام أمر بتعليمها العلم النافع الذى يتفق مع طبيعتها حيث أن الشرع أباح لها أن تتعلم ما ينفعها فى أمور دينها ودنياها، كما أوضح أن تكوين المرأة العقلى يساوى الرجل، فليس للرجل رأس وللمرأة نصف رأس وإن التفاوت بينهما لم يأت إلا من التربية، وبالرغم من ذلك فقد رفض الأفغانى مساواة الرجل بالمرأة فى كل شئ حيث أن لكل منهما وظيفته أما بالنسبة لعمل المرأة فقد رأى الأفغانى أنه لا مانع أن تعمل المرأة إذا فقدت عائلها واضطرتها ظروفها إلى ذلك.[٢]

وبالنسبة للشيخ محمد عبده فقد أوضح حق المرأة فى التعليم لمواجهة متطلبات الحياة بما يتمشى مع منطلق الإسلام مركزا على أن الهدف من تعليمها هو خدمة أسرتها، وحتى تستطيع تربية أولادها، وتكوين جيل صالح يخدم الأمة، وأنه من الجرم الصارخ أن تترك النساء المسلمات حبيسات سجن الجهل والتخلف.

أما عبد الله النديم فقد طالب بتعليم المرأة فى إطار اسلامى ونادى بأن يقتصر تعليمها على أمور الدين، والتدبير المنزلى وشئون الأسرة وأمور المنزل والحياة الزوجية وعارض تعليمها الموسيقى والرقص واللغات الأجنبية.[٣]

ولم تلبث الأمور أن تعقدت فى الفترة الأخيرة من حكم إسماعيل وتحرجت الأحوال، وأوشكت الدعوة إلى تعليم المرأة أن تخمد او تنتهى إلى غير عودة نتيجة للأزمة المالية التى حاقت بمصر ثم جاءت الثورة العرابية وأعقبها الاحتلال الانجليزى فتباطأت حركة النهضة فى سيرها، وشغل المصريون بمشاكلهم وتعثر تعليم الفتاة فى خطاه، فلم تفكر الحكومة فى

---

(١)عبد المنعم الجميعى: صالون الأميرة نازلى فاضل ، دراسة ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى العصر الحديث، ص ٢٥- ٣٨، وانظر أيضا كتاب Ronald Storrs: Orientations . London, 1937

(٢)أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، ص ١١٤.

(٣)سلافة النديم مقال لعبد الله النديم تحت عنوان: "مدرسة البنات" وانظر أيضا عبد المنعم الجميعى: عبد الله النديم مرجع سبق ذكره، ص ٣٨٢- ٣٨٣.

رفع تعليم الفتاة إلى أبعد من مقرر الشهادة الابتدائية وبعض القشور بمـــدارس المعلمـــات[١]، وظلت الجهود الحكومية مقصورة على مدرستين ابتدائيين هما السنية وعباس إلى أن وضـــع نظام لمجالس المديريات تأسست على أساسه مدارس ابتدائية للبنات فى عواصـــم المـــديريات ومدارس معلمات أولية وأستمرت الأمور على هذا المنوال حتى برز بعض المفكـــرين الـــذين نادوا بضرورة الاصلاح، ويشاء القدر ان يهيئ للمرأة أنصارا كان على رأسهم "قاسم أمـــين" الذى كانت دعوته إلى تحرير المرأة بمثابة الصحوة الكبرى واحدى ثمرات العصر الذى عاش فيه فقد ارتبطت دعوته بتحرير المرأة من قيود الجهل، ونادى بضرورة تعليم المرأة وإزالـــة النظم العتيقة التى قيدت، حريتها وهبطت بمكانتها حتى يمكنها النهوض بمسئولياتها تجاه نفسها ومجتمعها، وتكون قادرة على مواجهة مشكلات وضرورات الحياة لأنه لا سبيل إلى نهـــوض البلاد إلا بإصلاح أحوال الأسرة بما فيها من رجال ونساء، وعندما نشر قاســـم أمـــين كتابـــه الأول "تحرير المرأة" فى عام ١٨٩٩م الذى برأ فيه الدين من استعباد المرأة وجمع فيه كل ما استطاع أن يجمعه من الأسانيد التى تقوم ضد الحجاب وتعدد الزوجـــات والطـــلاق وان مـــن حقوق المرأة ان تتعلم وتزاول عملا إذا اضطرت إلى ذلك- واجه موجه من الاستنكار والنقـــد العنيف، كما انتصرت لآرائه بعض الصحف وقليل من المؤيدين وبالنسبة للموقف الأول فقـــد اعتبر العلماء دعوته خروجا عن الدين، ووصف احدهم دعوته بانها "تدليس ابليس" كما اتخـــذ مصطفى كامل وطلعت حرب موقف المعارض لآراء قاسم أمين بالنسبة لترك المرأة لحجابها أما بالنسبة للتعليم فكان لهما مواقف أخرى فقد حمل عليه مصطفى كامل كثيـــرا علـــى خلـــع المرأة للحجاب موضحا ان الحرية المطلقة تفسد المرأة وتزيل عنها الأخلاق الفاضلة، وانه لا ينبغى للمرأة المصرية ان تذهب فى محاكاة المرأة الأوربية إلى حد تقليدها فى ترك الحجاب، أما بالنسبة لتعليم المرأة فان مصطفى كامل لم يلتزم بخط المعارضة البحتة لتطور المرأة حيث سمح بتعليمها ولكن إلى حد معين.[٢]





---

(١)الهـلال: مجلـد ١٩٣٧، مقـال للأستاذ يوسـف مظهر بعنـوان : " تعليـم الفتـاة بيـن الأمس واليوم"، ص ٧٠١-٧٠٤.

(٢)انظر اللواء: فى ٢٤ يناير ١٩٠١ تحت عنوان: "المرأة الجديدة".



أما بالنسبة لطلعت حرب فقد كان موقفه شبيها بموقف مصطفى كامل، فقام بالرد على قاسم أمين فى الصحف[١]، كما قام بتأليف كتابين هما " تربية المرأة والحجاب"[٢]، و"فصل الخطاب فى المرأة والحجاب"، هاجم فيهما الدعوة إلى تحرير المرأة وصاحبها كما أوضح موقف الرأى العام من ذلك، مبينا أن قاسم أمين لم تقم دعوته فقط على بدعه فى عادات الناس بل دعا إلى بدعة فى الدين.

ومع ذلك فإنه لم ينكر حق المرأة فى التعليم حيث أوضح "أن الدين لا يمنع مطلقا من تعليم المرأة وتربيتها وتهذيبها بل هو يحض على ذلك ويأمر به، ولكن المشكلة كلها سواء فى رأى الذين هاجموا قاسم وهم الأغلبية أو الذين وقفوا معه وهم الأقلية أنهما يختلفان فيما ينبغى أن تتعلمه المرأة وفى طريقة التعليم والتهذيب. وقد عزز كل منهما قوله بالشرع مدعيا أن الحق والدين فى جانبه".

والواضح أن طلعت حرب فى ردوده على قاسم أمين لم يكن معارضا تماما لأفكاره، وإنما كان من دعاه التدرج فى تربية المرأة وتهذيبها وتعليمها، كما أنه كان معتدلا فى نقده لقاسم أمين وكتاباته. هذا عن الآراء المعارضة لقاسم أمين، أما بالنسبة للآراء التى ساندته فى موقفه فقد كان أبرزها وقوف أحمد لطفى السيد وصحيفته الجريدة لسان حال حزب الأمة بجوار آراء محرر المرأة.

وفى محاولة من قاسم أمين الرد على هؤلاء أصدر فى عام ١٩٠٠م كتابه الثانى "المرأة الجديدة" والذى كان أكثر وضوحا من سابقه فمع أنه ردد فيه ما ذكره فى كتابه الأول، فإنه حاول الرد على منتقديه، فعالج موضوع المرأة كفرد لها حقوق وعليها واجبات، وأنه يجب أن يمتد إليها آفاق العلم حتى تبلغ منه مبلغ الرجل، كما ضرب الأمثال بالمرأة الأمريكية التى سبقت نساء العالم فى العلم والمعرفة والاشتراك فى العمل الحكومى نظرا لأنها تخلصت من سلطة الأوهام والظنون والخرافات، وتمسكت بالحصول على حقوقها، كما ربط قاسم أمين بين الحجاب ومشكلة تربية المرأة فرأى أنه ضار بالمرأة حيث يحول بينها وبين استكمال تربيتها[٣] مما أثار البعض ودفعهم إلى اتهامه بالكفر علما بأن الحجاب كما يذكر البعض ونتفق فيه معه ليس دليلا على

(١)بنت النيل: سبتمبر ١٩٤٦ ، ص ٤- ٤٢ تحت عنوان: "لماذا نجحنا بأسرع ما كنا نأمل".
(٢)عبارة عن دراسة فى نحو أربعين صفحة طبعتها مكتبة التركى بالقاهرة.
(٣)قاسم امين: المرأة الجديدة، ص ٤٠- ٤٢.

الفضيلة بل ان الفضيلة توجد معه أو بغيره، وأنه ليس عنوانا للتخلف أو التفتح العقلى، فعفة المــرأة ملكة فى النفس لا ثوب يختفى دونه الجسم[١]، وعلى أى حال فقد وجدت آراء قاسم أمين موافقة بعض المستنيرين أمثال محمد عبده لدرجة قيل معها أن بعض فقرات من كتابه "تحرير المرأة" تمت بموافقة من الشيخ محمد عبده ان لم تكن بن نبت أسلوبه[٢]، حيث عرض قاسم أمين فصول كتابه على الشيخ أثناء تواجدهما فى جنيف بصحبة سعد زغلول ولطفى السيد، وان الشيخ وافق عليها وأضاف إليها بعض الأمور الفقهية.





والمتصفح لكتابى قاسم أمين يجد أنه فى كتاب "تحرير المرأة" قام بتوضيح أن الدين ليس مسئولا عن جهل المرأة اما فى كتابه المرأة الجديدة فقد عالج الموضوع بشكل أوسع موضحا أن المرأة الجديدة ما هى إلا ثمرة من ثمرات التمدن، وان أسباب تقدمها فى أوربا أنها تحولت عن الجهالة إلى العلم مما ساعدها على استرداد حقوقها، كما يجد المتصفح لهذين الكتابين ان قضية تعليم المرأة كانت ركنا أساسيا فى دعوته، مما كان له ردود أفعال بعيدة الأثر على البلاد، فقد جمع فى هذين الكتابين كل ما استطاع أن يجمع من الحجج التى تؤكد أن من حقوق المرأة ان تتعلم، وان تزاول صناعة إذا اضطرت إلى ذلك، وان النظم العتيقة التى قيدت من حرية المرأة وأضعفت مكانتها يجــب ان تنتهى خاصة وانها اضرت بالمجتمع وأساءت إليه.

ولتحليل ما سبق ذكره حول الدعوة إلى تعليم المرأة يتضح أن رفاعة الطهطــاوى، وعلــى مبارك ومحمد عبده وعبد الله النديم كانت دعوتهم محدودة حيث نادوا بتعليم المرأة العلــم التــى يساهم فى بناء الأسرة، وتربية الأولاد أما دعوة قاسم أمين فكانت شاملة تدعو إلى نهضة المــرأة ورفع مستواها الاجتماعى ونقلها من حياة راكدة إلى حياة عاملة ترتقــى مــن خلالهــا بنفســها ومجتمعها[٣].

وعلى الرغم من أن دعوة قاسم أمين سارت سيرا بطيئا شأنها فى ذلك شأن كــل حركــات الاصلاح الاجتماعى حيث ظلت المرأة المصرية ترتدى البرقع والحبرة وتعانى من أغلال الحجــاب التى كبلها بها المجتمع فان هذه الدعوة قد مهدت الطريق للنهضة النسائية التى حدثت فى مصر بعــد

---

(١)جلال امين: ماذا حدث للمصريين- تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن ٤٥- ١٩٩٥، ص ١٥٣.
(٢)درية شفيق وابراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر، ص ٧٤- ٧٥.
(٣)احمد بدوى: رفاعة الطهطاوى بك، ص ١١٣.

ذلك. فعندما افتتحت الجامعة المصرية القديمة فى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ وطرحت فكرة تعليم المرأة وتثقيفها رأى بعض القائمين على أمرها الأخذ بيد المرأة المصرية والارتقاء بها علميا وأدبيا، ومن أجل ذلك أنشأت الجامعة فى عام ١٩١٠ "فرع نسائى" لتدريس محاضرات خاصة بالسيدات تركزت فى أول أمرها على الحياة الزوجية والأسرية والمنزلية وبعض موضوعات فى التربية وعلم النفس.



ولكن هذه التجربة لم يقدر لها الدوام فمع أن معظم هذه المحاضرات كانت تلقيها نساء فقد ثارت ثائرة المحافظين وتجمع الرجال أمام الجامعة للتعرض للنساء، ومنعهن من الحضور لأن ذلك سيؤدى من وجهه نظرهم إلى خروجهن على الآداب مما يرفع عنهن صفة العفاف التى تتحلى بها كل قابعة فى المنزل، كما أرسلوا خطابات تهديد بالقتل إلى "عبد العزيز فهمى" سكرتير الجامعة عندما أرسل خطابات بالبريد إلى نساء الطبقة الراقية يدعوهن للحضور للالتحاق بالجامعة، حيث اعتبر بعض الرجال المحافظين وجود أسماء نسائية على أظرف الخطابات بمثابة العار نظرا لأن رجلا اجنبيا مثل ساعى البريد سيعرف اسماءهن، كما اعتبرها البعض الآخر من الفضائح الكبرى التى لا يمحوها إلا الدم، مما أدى إلى ايقاف التدريس بالفرع النسائى بالجامعة عام ١٢-١٩١٣[١]، وظل الحال على هذا المنوال فترة طالت إلى ما بعد أن أصبحت الجامعة تابعة للحكومة فعلى الرغم من حصول بعض الفتيات على البكالوريا التى تؤهلن للالتحاق بالجامعة فإن أبواب الجامعة كانت مغلقة فى وجوههن. ولولا مساندة بعض قادة الفكر من الرجال فى ذلك الوقت أمثال أحمد لطفى السيد وطه حسين لما تحققت للمرأة فرصة التعليم الجامعى[٢]، وقصة ذلك أنه عندما تقدمت خمس فتيات حصلن على البكالوريا للالتحاق بالجامعة الحكومية لم يكن الأمر سهلا فعندما عرض الدكتور طه حسين على لطفى السيد مدير الجامعة وقتذاك قبول الطالبات فى الجامعة، سأله لطفى السيد هل قانون الجامعة يمنع دخول البنات أجابه بأن القانون يقول ان الجامعة للمصريين ولم يحدد النوع[٣]، وخشية من لفت نظر المحافظين لهذا الأمر، واعتراضهم عليه لم يعرض مدير الجامعة على الحكومة السماح بقبول الفتيات فى الجامعة بل عمد إلى طريقة التريث والتكتم وعدم

---

(١)الجامعة المصرية:تقرير مجلس الإدارة المقدم للجمعية العمومية بجلستها المنعقدة بدار الجامعة فى الثلاثاء٢٩ ابريل١٩١٣،ص ١٣

(٢)للتفاصيل انظر: بحثنا المرأة المصرية والتعليم الجامعى بحث ضمن مؤتمر مائة عام على تحرير المرأة ، جـ١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩، ص ٥٦٨.

(٣)عبد المنعم الجميعى: المرأة المصرية والتعليم الجامعى، بحث سبق ذكره، ص ١٠٦.

ابراز الموضوع أمام الرأى العام حتى لا يعارضه فأصدر تعليمات إلى سكرتارية الجامعة تقضى بتقيد اسم كل طالب يحمل شهادات دراسية تؤهله للتعليم العالى دون اشارة إلى جنسه كذكر أو انثى وبهذه الطريقة قبلت الفتيات فى الجامعة فى غفلة من المتشددين[١]، وقد أوضح لطفى السيد ذلك فى مذكراته فقال لا أخفى أننا قبلنا الطالبات أعضاء فى الأسرة الجامعية فى غفلة من الذين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشباب باخواتهن فى الدرس.[٢]

وعلى أى حال فقد كان هذا الإجراء بمثابة ثورة فكرية وتعليمية أحدثت ضجة شديدة فى أوساط المحافظين الذين شعروا بأن هذا الحدث الجديد الذى يتزعمه لطفى السيد مدير الجامعة ويناصره فيه بعض الأساتذة أمثال طه حسين قد أجبرهم على ما لا يريدونه فأخذوا يتربصون بالجامعة فى محاولة منهم كى تتراجع عن موقفها، فانتهزوا فرصة نشر جريدة الأهرام لصورة للدكتور طه حسين فى نادى الجامعة بمناسبة النجاح الذى أحرزه مشروع القرش، وعلى يمينه ويساره بعض الطلبة والطالبات يتناولون المشروبات[٣]، واتخذوا من ذلك فرصة للنيل من الجامعة، فصعدوا الأمر إلى مجلس النواب، ورأوا فى ذلك وسيلة للهجوم على الجامعة واعتبروا ما حدث بمثابة فضيحة يجب أن تحول دونها الحكومة، ولكن سنة التطور كانت فوق هذه الضجة التى لم تؤثر فى عضد الجامعة فقد ازدادت مشاركة الطالبات فى الأنشطة الاجتماعية، وتطلعن إلى المزيد من الحرية فمارسن الألعاب الرياضية خصوصا لعبة التنس، ورغم ثورة الرأى العام على هذه الحرية التى اتيحت لفتاة الجامعة، ورغم الاحتجاجات الشديدة التى وصل مداها إلى القصر الملكى فقد استمرت المسيرة النسائية نحو المزيد من الانطلاق، وأخذ عدد الطالبات اللاتى يلتحقن بالجامعة فى التزايد.

وعلى أى حال فقد أدى دخول الفتاة المصرية الجامعة إلى إثبات وجودها وإيضاح أنها لا تقل قدرة وكفاءة عن الرجل، فقد أثبتت خريجات الجامعة من الفتيات القدرة على منافسة

---

(١)درية شفيق وابراهيم عبده: مرجع سابق، ص ٨٥- ٨٦.
(٢)أحمد لطفى السيد: قصة حياتى، ص ١٨٣.
(٣)الاهرام: العدد ١٦٩٥٩ فى ٢٣ فبراير ١٩٣٢.

الرجال في الحصول على الدرجات العالية وتولى المناصب الأكاديمية فى الجامعة نفسها[١]، كما أوفدت الفتيات فى بعثات إلى الخارج.[٢]

وبعد أن اثبتت الفتاة الجامعية قدرتها على المساواة بالرجل كان عليها الدخول فى معركة أخرى وهى الحصول على وظيفة والخروج إلى معترك الحياة العملية والخوض فى كافة مناحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى مصر، والتجاوب مع حركة تجديد المجتمع والتفاعل معها، والمساهمة فيما يصبوا إليه الوطن من آمال.[٣]

ومن الملفت للنظر أن قضية عمل المرأة واجه معارضة شديدة وأخذ الصراع حولها طابعا عنيفا بين التيار السلفى والتيار الليبرالى منذ بواكير القرن العشرين، فقد رأت بعض العائلات أنه من الخير للفتاة الجامعية ألا تزج بنفسها فى ميدان العمل، وانه من الأفضل بعد تخرجها الإستفادة منها بتزويجها لتكون نواه صالحة للبيت المصرى الحديث خصوصا وان مشاكل المتعلمين المتعطلين تزداد سواء إذا ما شاركت الفتاة فى الحياة العامة.[٤]

كما رأى البعض أنه لا مانع من اشتغال الفتاة بعد تخرجها لتجاهد بجانب الرجل فيستفيد منها المجتمع أكثر من ركونها إلى الحياة المنزلية.

وانتهى الأمر بنجاح التيار الليبرالى حيث حققت المرأة المصرية من تحرر وتقدم تستطيع معه القول أنها حققت تقدما فى شتى المجالات، فاقتحمت مجال العمل وزاملت الرجل فى الجامعات والمصالح الحكومية والشركات، ووصلت إلى منصب الوزارة واستطاعت كسر التبعية الاقتصادية للرجل، كما نالت حقوقها السياسية[٥] وصارت فى أحوال كثيرة ندا للرجل بل فاقته فى بعض الأحيان، كما أظهرت من التفتح العلمى ومن الثقة بالنفس ومن القدرة على التعبير عن نفسها ما يدعو إلى الإعجاب.

---

(١)الجميعى: المرأة والتعليم الجامعى، ص ١١١.
(٢)الهلال ١٩٣٧ مقال سابق ، ص ٧٠٤.
(٣)انظر بحثنا المرأة والتعليم الجامعى، سبق ذكره، ص ٥٧٢- ٥٧٤.
(٤)الدستور: العدد ٣٩٣ فى ١٦ ابريل ١٩٣٩.
(٥)نصت المادة (٣١)من دستور ١٩٥٦ على الحقوق السياسية للمرأة، كما نصت المادة ١١ من دستور ١٩٧١ على أن الدولة تكفل التوفيق بين واجبات المرأة نحو الأسرة وعملها فى المجتمع، كما نص القانون ٤١ لسنة [illegible]

ومما سبق يتضح دور قادة الفكر المصرى من الرجال فى الدفاع عن حقوق المرأة فى التعليم والخروج إلى معترك الحياة، وكسر تبعيتها الاقتصادية للرجل وبقى أن نتعرض لـدور القيادات النسائية فى استكمال هذه المهمة.

الملاحظ أن أغلب الباحثين الذين تصدوا لدراسة البدايات الأولى لحركة تحرير المرأة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد أغفلوا الدور الريادى الذى قامت بـه المرأة تجاه قضيتها علما بأن دورها لا يقل أثرا عن دور الرجل فقد دافعت "نبوية موسى" فى الصحف النسائية وغيرها عن حق النساء فى التعلم مثل الرجال ومن هـذه المقـالات مقـال بعنوان: "تعليم البنات وعلاقته بتعليم البنين" بينت فيه أن تعليم المرأة يسـاعد علـى توسـيع مداركها ومقال آخر بعنوان "الفتاة هى صانعة النشئ" أوضحت فيه ضرورة مساواة الفتيـات بالفتيان فى الدور الأول من التعليم، كما ربطت بين تقدم الأمم وأوضاع المرأة موضحة بـأن تقدم المرأة هو سر تقدم الأمم، واستشهدت على ذلك بأنه سر تقدم الغرب يرجع إلى أن المرأة أخذت نصيبها من التعليم .

وإلى جانب ذلك فقد قضت نبوية موسى العديد من سنوات عمرها فى خدمـة تعلـيم البنات، وشاركت فى إلقاء محاضرات بالجامعة المصرية القديمة عقب افتتاحها.

وقامت "ملك حفنى ناصف" الملقبة بباحثة البادية بالمجاهرة بالدعوة لمذهب قاسم أمين، والقت فى هذا الموضوع سلسلة من المحاضرات قامت فيها بالدفاع عن قضية تعلـيم البنـات خاصة بعد أن وجدت الفرصة سانحة أمامها للكتابة فى صفحات "الجريدة" بتشجيع من لطفـى السيد، فحثت من خلال مقالاتها المؤثرة فى الصحف، ومحاضراتها فى الجامعة القديمة علـى الاستفادة من مزايا الغرب مع المحافظة على تقاليد المرأة المصرية عامة والمسـلمة خاصـة واستطاعت ان ترسم بشاعريتها صورة المرأة المسلوبة الحق المظلومة فى كل أدوار حياتها، ونادت بمنحها حرية اختيار نوع التعليم الذى ترغبه، كما قدمت مقترحاتها الخاصة بإصـلاح أحوال المرأة من جهة التعليم والأسرة والمجتمع، وذلك من خلال لائحة عرضتها على الرأى العام تضمنت أن يتم تعليم البنات خلال دراستهن فى المرحلتين الابتدائيـة والثانويـة الـدين الصحيح المؤسس على القرآن والسنة، وجعل التعليم الأولى اجباريا، كما نادت بتعليم البنـات التدبير المنزلى علما وعملا، وقانون الصحة والاسعافات الأولية، وتربية الأطفـال، وعلـوم

الطب وفن التدريس، واطلاق الحرية فى تعليم غير ذلك من العلوم الراقية، وفتح باب التعليم العالى لمن تستطيع منهن.[١]

وقامت "لبيبة هاشم" بالدفاع عن قضية تعليم المرأة فكتب مقالات توضح فيها أهمية القراءة والإطلاع للمرأة حتى يتم صقل أفكارها وتكوينها للأجيال الصالحة وحتى تستطيع التمييز بين ما يناسبها من الأفكار الصحيحة والعادات السليمة.

أما عن "هدى شعراوى" ابنة "سلطان باشا" رئيس مجلس النواب خلال الثورة العرابية والتى تعد من أهم رائدات الحركة النسائية فقد استطاعت أن توقد شعلة النهضة النسوية، فخرجت إلى الحياة العامة متحدية جميع العوائق التى تصدت لها لكى تحقق دعوة قاسم أمين فطالبت بتغيير أوضاع المرأة وإعلان الحرب على التقاليد الموروثة، فكانت أول من رفع الحجاب[٢]، كما أنها خرجت بجهودها إلى الحياة العامة فقادت مظاهرة النساء خلال ثورة ١٩١٩ وشكلت لجان النساء لتكون إلى جانب لجان الرجال وشجعت الفتيات على الانصراف إلى تحصيل العلم، وطالبت بضرورة تمكن المرأة من احتلال مكانتها اللائقة وإليها أيضا يرجع الفضل فى إنشاء جمعية الاتحاد النسائى المصرى عام ١٩٢٣ الذى دافع عن فكرة تعليم البنات قسط مناسب من الثقافة والتعليم وطالب فى برنامجه باصلاحات حيوية للمرأة[٣]، وإلى جانب ذلك فقد افتتحت دارا بشارع محمد على بها مشغل ومدرسة لتعليم البنات.

وهكذا يتضح أن الحركة النسائية فى مصر قادها الشريحة العليا من طبقات المجتمع المصرى خاصة من الذين تثقفوا بثقافة الغرب سواء من الرجال أو النساء وإذا كانت هذه الحركة قد وصلت بأهدافها إلى الطبقات العليا والمتوسطة فانها لم تصل الى الطبقة الدنيا من المجتمع حيث ظلت المراة بها كما كانت متمسكة بتلابيب الماضى وتقاليده.

وعلى أى حال فبالرغم من كل العواصف والاحتجاجات الصاخبة والحملات العنيفة للمعارضين لتعليم البنات فقد دار الزمن دورته، وتهيأت الأذهان لقبول فكرة تعليم المرأة، وأصبح مبدأ تعليمها مستقرا فى المجتمع المصرى قبله الجميع حتى غلاه المحافظين، وتساوى

---

(١)درية شفيق وابراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر، ص ١٣.
(٢)أنظر مذكرات رائدة المرأة العربية هدى شعراوى، ص ٧.
(٣)المقتطف: فبراير ١٩٣٠ ، ص ٢٠٣ تحت عنوان الاتحاد النسائى المصرى.
وللمزيد من التفاصيل حول برنامج الاتحاد النسائى أنظر: أحمد خاكى: المرأة فى مختلف العصور، ص ١٣٦-١٣٨.

الرجل والمرأة فى كل فروع التعليم، واشترك البنات مع البنين فى التعليم، وأصبح التعليم المشترك فى الجامعات وغيره سمة بارزة فى حياة المجتمع المصرى، فضمت الجامعات بين جدرانها مئات الألوف من الطالبات خاصة وأن ثورة يوليو ١٩٥٢ جرفت فى محاولتها تغيير وجه المجتمع المصرى اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا تلك التقاليد والأعراف التى اوقفت حركة تطور المجتمع المصرى لفترة غير قصيرة، وانتهى زمن "سى السيد"(١)، الذى كان سائدا بين المصريين خاصة بعد أن نجحت المرأة المصرية إلى حد كبير فى كسر التبعية الاقتصادية للرجل والتى القت بظلالها على حساب الأسرة المصرية، فخرجت للعمل وكسب الرزق، ومع ازدياد أعباء المعيشة أصبح الرجل يفضل المرأة العاملة، ولكن السؤال المطروح هو هل كانت العلاقة الزوجية بين الرجل والمراة أكثر هناء قبل خروج الزوجة للعمل أو بعده، وهل كانت حياة الرجل مع أسرته أكثر استقرارا واطمئنانا منه الآن(٢)، وعلى أى حال فإن المشكلة الحالية التى يتعرض لها المجتمع المصرى هى ارتفاع نسبة الأمية خاصة بين النساء فى الريف مما يؤثر سلبا على أوضاع المرأة ويعوق مسيرتها، وهذا يستلزم اعطاء دفعة كبيرة لمحو أميتها ورفع مستوى تعليمها حتى تتمكن من القيام بدورها الفعال فى خدمة وطنها، وحتى تستطيع الحصول على حقوقها الاجتماعية كاملة ولا تعود العجلة إلى الوراء مرة أخرى.

يضاف إلى ذلك أنه لكى تستمر المرأة فى المحافظة على مكتسباتها فإن عليها أن تثبت جدارتها فى الموازنة بين ما عليها من واجبات وما لها من حقوق سواء فى البيت أو فى العمل.



(١)بطل ثلاثية نجيب محفوظ، وكان مسيطرا على زوجته أمينة المستكينة المستسلمة لاقدارها.
(٢)جلال أمين: ماذا حدث للمصريين، ص ١٥٢- ١٥٤.

ثبت المصادر والمراجع

وثائق منشورة:

الجامعة المصرية. تقرير مجلس الإدارة المقدم للجمعية العمومية بجلستها المنعقدة بدار الجامعة فى الثلاثاء ٢٩ إبريل ١٩١٣.

المذكرات:

- أحمد لطفى السيد: قصة حياتى، القاهرة، كتاب الهلال مايو ١٩٨٢.
- مذكرات رائدة المرأة العربية هدى شعراوى، القاهرة، كتاب الهلال سبتمبر، ١٩٨١.

المؤلفات العربية:

- أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، القاهرة النهضة المصرية، ١٩٤٨.
- أحمد بدوى: رفاعة الطهطاوى بك، القاهرة، لجنة البيان العربى، ١٩٥٠.
- أحمد خاكى: المرأة فى مختلف العصور، القاهرة، دار المعارف، د.ت.
- أحمد شفيق: أعمالى بعد مذكراتى، القاهرة، مطبعة مصر ١٩٤١.
- جامعة القاهرة: تقويم جامعة القاهرة ٦٩- ١٩٧٠.
- جلال أمين: ماذا حدث للمصريين، تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن ١٩٤٥-١٩٩٥، القاهرة، مكتبة الاسرة، ١٩٩٧م.
- درية شفيق وإبراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر من عهد محمد على إلى الفاروق، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٤٥.
- رفاعة الطهطاوى: المرشد الأمين فى تهذيب البنات والبنين، القاهرة، مطبعة المدارس الملكية ١٢٩٢هـ.
- ستانلى لين بول: سيرة القاهرة- ترجمة حسن إبراهيم وآخرون، القاهرة، النهضة المصرية ١٩٥١.
- طلعت حرب: تربية المرأة والحجاب- القاهرة، مطبعة التركى، د.ت.

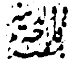
- عبد الله النديم: سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم، جـ١، القاهرة، مطبعة هندية ١٩١٤.
- عبد المنعم الجميعى: المرأة المصرية والتعليم الجامعى، دراسة ضمن مؤتمر مائة عام على تحرير المرأة ، جـ١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩.
  - المرأة المصرية فى عصر الجبرتى، دراسة ضمن ندوة المجتمع المصرى فى العصرين المملوكى والعثمانى التى أقامتها الجمعية التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى للثقافة فى ابريل ٢٠٠٥.
  - صالون الأميرة نازلى فاضل: دراسة ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، القاهرة، مكتبة الصفا والمروة، ١٩٩٦.
  - عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، القاهرة، دار الكتاب الجامعى، ١٩٨٠.
- على مبارك: طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية ، جـ٢، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٣٠٣هـ.
- قاسم أمين: تحرير المرأة، القاهرة، مطبعة الترقى ١٨٨٩م.
  المرأة الجديدة، القاهرة، مطبعة المعارف ١٩٠٠م.

المؤلفات الأجنبية:

- Ronald Storrs: Orientations, London, 1937.

الدوريات:

- الأهرام فبراير ١٩٣٢.
- بنت النيل سبتمبر ١٩٤٦.
- الدستور ابريل ١٩٣٩
- اللواء يناير ١٩٠١
- المقتطف فبراير ١٩٣٠
- الهلال: مجلد ١٩٣٧.





٢ المرأة المصرية فى عصر الجبرتى

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة القاهرة فرع الفيوم

يعد عصر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى عصر احتدام تاريخى انقلبت فيه أوضاع مصر الاجتماعية، وانعكست فيه أحوال الزمان، وانتقلت فيه البلاد من حال إلى حال فقد عاش الجبرتى على مفرق طرق شملت أجيال ثلاثة الأول كان الفترة الأخيرة من عصر المماليك وقد حدث خلالها ثورة على بك الكبير ومحاولته الاستقلال بمصر (١٧٦٩م) وكان الجبرتى وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمره، والثانى وكان فترة قدوم الحملة الفرنسية وما صحبها من فجوة ثقافية تخللها احتكاك بين العقل المصرى والتيار الثقافى الوافد من أوربا.

أما الثالث فكان عصر محمد على الذى تمت فيه محاولات بناء مصر الحديثة وقد قدم لنا الجبرتى صورة هذا الانتقال الذى تمثل فى الصراع بين بقايا العصور الوسطى والحضارة الأوربية الحديثة الوافدة مع الحملة الفرنسية والتى حاول محمد على مسايرتها.

وموضوع "المرأة المصرية فى عصر الجبرتى" يتناول أثر هذا الانتقال فى أوضاع المرأة المصرية والتغيرات التى حدثت فى سلوك بعض النساء القاهريات خلال الحملة الفرنسية ورفض الجبرتى لكل ما دار حوله من مظاهر التمرد على التقاليد وخروج بعض النساء عن الحشمة والحياء، كما تطرق الجبرتى إلى التغيرات العميقة التى عاشتها المرأة المصرية فى ضوء الإصلاحات التى أدخلها محمد على وكيف ساهمت النساء بقوة فى إحداث هذا التغير عن طريق العمل فى إنجاح خطة محمد على فى بناء الدولة الحديثة حيث اعتمد عليهن فى سد نقص العمالة فى المزارع والعمل بالفلاحة ورعاية الزرع وحصد المحاصيل خاصة عند ذهاب الفلاحين للتجنيد أو عند قيامهم بأعمال الرى، هذا بالإضافة إلى استخدام محمد على للنساء للعمل فى مصانعه إلى جانب الرجال وإسناد بعض الوظائف إليهن فخرجت المرأة للعمل لحساب الحكومة فى صناعات الغزل والنسيج وغيرها لتشارك فى بناء مصر الحديثة على الرغم من التقاليد التى كانت تقف حجر عثرة أمامها يضاف إلى ذلك أن محمد على حاول اختراق التقاليد الجامدة

القيت هذه الدراسة في احتفالية المجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع الجمعية التاريخية بتكريم المؤرخ الفرنسي اندريه ريمون في ابريل ٢٠٠٥

بتعليم المرأة، فافتتح لها مدرسة الولادة كبداية لمشروعه الخاص ببلورة الوضع الاجتماعى فى مصر، وفيما يلى نعرض لذلك:

أولا: المرأة المصرية فى بدايات عصر الجبرتى:

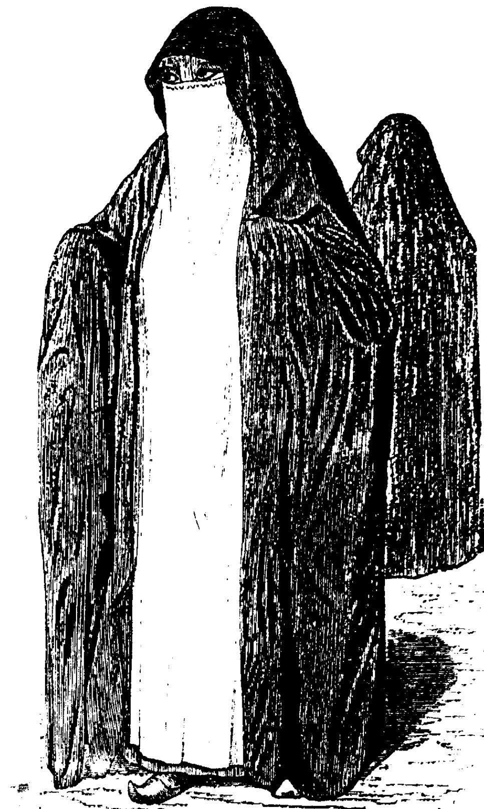
على الرغم من قيود العادات والتقاليد التى كبلت المرأة المصرية فى عصر الجبرتى، فقد اختلفت أوضاعها الاجتماعية مع المتغيرات السياسية التى طرأت على مصر وتباينت التغيرات التى حدثت فى أسلوب حياتها ابتداء بالطبقة العليا من النساء، وانتهاء بالطبقة الدنيا كما اختلفت هذه التغيرات بحسب تواجد المرأة سواء كانت من أهالى المدينة أو الريف أو من أهالى الوجه البحرى أو القبلى فنساء الطبقة العليا عموما لم تكن سوى أداة ترف عند الرجال وكان أغلبهن عاطلات عن العمل المجدى منزويات فى أماكن الحريم يشتكين من التخمة وعسر الهضم نظرا لاكثارهن من تناول الأطعمة الدسمة والسكرية مع قلة الحركة وقضاء الساعات الطوال خلف المشربيات لمشاهدة المارة دون أن يتمكن هؤلاء من رؤيتهن(١)، فقد كان لا يراهن أحد سوى الأغوات والطواشية الذين يقومون على خدمتهن وقد كن لا يستطعن مغادرة المنزل إلا نادرا، ولا يبرجن دورهن إلا للذهاب إلى الحمامات أو لزيارة الأقارب حيث يركبن حميرا أسرجت بسجاجيد نفيسة يرعاها السايس من كل جانب ويتقدمها الخصيان، ويسير الجوارى فى طليعتها، حيث كان من بواعث الشرف للزوجة أن يكون عدد جواريها كبيرا، وكانت تفتخر بأنهن من توابعها، وكان اهتمام نساء الطبقة العليا ينحصر فى القيل والقال، والحديث عن المصنوعات واللآلى والأحجار الكريمة من الماس والملابس المزخرفة، والتبرج بالذهب والحرير والكشمير ذى الألوان الساطعة وغيره دون أى نوع من النشاط الذهنى المفيد، إذ فرض عليهن أن يعشن عيشة مجردة من كل مزية بعيدة عن كل هدف لذلك كان أفقهن مظلما(٢)، وإن حاولن إدخال السرور على أنفسهن باستحضار بعض المغنيات والعوالم للتسلى بهن.(٣)

وكانت نساء هذه الطبقة تتعرض فى كثير من الحالات لتغيير أوضاعهن، حيث كان مألوفا فى الحروب بين المماليك أن يستولى الغالب منهم أو من رؤساء جندهم على

(١)ستانلى لين بول: سيرة القاهرة – ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخران، ص ص ٣٥- ٣٦.
(٢)درية شفيق وابراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر من عهد محمد على إلى عهد الفاروق، ص ٧.
(٣)كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر ، جـ١، ص ٦٢٢.



A woman clad in the milayeh, etc. - إمرأة مدثرة بملايتها



Lady attired for riding or walking - ـاس النساء ـند خروجهن



امرأة من [illegible]



زوجات المغلوبين وسراريهم سواء رضين أم كرهن، وكانوا يقومون ببيعهن أو أهـدائهن إلى أصحاب النفوذ.[١]

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد ظهر فى ذلك العصر من النساء من كان لهن بـاع كبير فى الحياة العامة أمثال نفيسة المرادية[٢]، زوجة مراد بك التى نالـت مـن المكانـة الاجتماعية حظا كبيرا وكانت تمتلك من الشجاعة وقوة الشخصية ما جعلها موضع احترام الجميع سواء فى حياة زوجها أو بعد مماته.

وإذا كان ذلك هو حال نساء الطبقة العليا فان نساء الطبقة الوسطى لم يزد حالهـا عن حال هذه الطبقة كثيرا .

أما نساء الطبقة الدنيا من الفلاحات وغيرهن فكن يغزلن بخيوط من الصبر وقـوة الإرادة قصص مذهلة تجسد كفاح المرأة المصرية فكان بعضهن يعمل أكثر من الرجـال ويرحن ويجئن بملابسهن السوداء طليقات من غير قيد، ويمشين بهامات مرفوعة، وخلفهن أسراب من الأطفال بملابسهم البالية وعيونهم التى يتجمع حولها الذباب حيث يعملـن فـى الحقول وتحت أشعة الشمس، كما يعملن فى غزل القطن والكتان والصوف والحرير فـى منازلهن المبنية بالطين ، ويقمن بتجهيز الطعام وجلب المياه فى جرار كبيرة يحملنها على الرؤوس من الترع والآبار كما يقمن بعمل الجلـة مـن روث البهـائم المخلـوط بـالتبن ووضعها فى الشمس لاستعمالها كوقود فى الأفران[٣]، وتقوم المرأة الريفية أيضا بتربيـة الطيور وأحيانا قليل من الأغنام التى تنطلق فى فناء وحجرات المنزل دون كلفـه، وتنشـأ بينها وبين أهل البيت ألفه عجيبة[٤]، أما عن نومها فكانت تنام غالبا على قبه الفرن تحـت الهباب فى الشتاء، لتشعر ببعض الدفء، أما فى الصيف فكانت تنام على السطح[٥]، كمـا ساهمت نساء الطبقة الدنيا فى المدينة وفى القرية بوجه خاص بدور هام فى صناعة الغزل والنسيج فكان بعض النساء يقمن بعملية الغزل فى بيوتهن لحسابهن، حيث كانت السلطات

---

(١)محمود الشرقاوى: مصر فى القرن الثامن عشر، ص ١٧٣.
(٢)جركسية الأصل من بلاد الكرج، وقد ذاع صيتها عندما دخلت فى حريم على بك الكبير، وكانت ذات ثروة كبيرة، كما كان لها دارا تطل على بركة الأزبكية وبعد وفاة على بك الكبير تزوجت من مراد بك وخلال ذلك نالت مكانة كبيرة فى المجتمع المصرى. وللتفاصيل أنظر: محمود الشرقاوى: مصر فى القرن الثامن عشر، جـ١، ص ١٦٦-١٦٧.
(٣)كلوت بك: مرجع سابق، ص ٦٢٣.
(٤)محمد كمال يحى: الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث، ص ١٤.
(٥)الاستاذ: الجزء السادس عشر فى ٦ ديسمبر ١٨٩٢ مقال بعنوان "مدرسة البنات بهانه وست البلد"، ص ٣٧.

تمدها بكميات من القطن والكتان وغيره لتصنعه خيوطا[١] والبعض الآخر منهن يعملن لحساب الغير من خلال وسيط. فكان النساج يسلم المادة الخام إلى الغازلات التى يعيدنها إليه مغزولة بعد فترة نظير أجره متفق عليها مسبقا.[٢]

هذه كانت حياة المرأة المصرية على مختلف طبقاتها فى الفترة الأولى من عصر الجبرتى والتى تغيرت بشكل واضح بعد مجئ الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨م وفيما يلى نعرض لذلك.

ثانيا: نظرة الجبرتى للمرأة المصرية خلال الحملة الفرنسية:

من أبرز آثار الحملة الفرنسية التى سجلها الجبرتى ما تأثرت به حياة المرأة القاهرية بصفة خاصة بوجود الفرنسيين، فبعد أن كانت القيود الشرقية تكبل حياة الحريم، رأت المرأة القاهرية مدى التحرر وتلطف الفرنسيين فى معاملتهم للنساء، وخضوعهم لهن "وعدم مخالفة هواهن، فطرحت الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار"[٣]، لدرجة أنها انبهرت بحياة التحرر وبأزياء الفرنسيات، وقد سجل الجبرتى ذلك بقوله لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم زوجاتهن كانوا يمشون فى الشوارع مع هؤلاء النسوة وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحريرية الملونة. ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة فمالت إليهم أهل الأهواء من النساء الأسافل[٤]، كما حاولت بعض النساء تقليد الفرنسيات، فاختلطت بعض المصريات بالفرنسيين، وخرجن عن الحشمة والحياء فوجدت الجوارى السود فى ذلك فرصة للخروج عن تقاليد المرأة الشرقية. وقد ساعدهم الفرنسيون على ذلك رغبة فى اشباع رغباتهم نحو المرأة وقد أوضح الجبرتى ذلك بقوله فلما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجا، فرادى وأزواجا فنططن الحيطان، وتسلقن اليهم من الطيقان"[٥].

كما ارتادت بعض هؤلاء النسوة المقاهى فى حى الحسين، وانشأ الفرنسيون لأهل الخلاعة منهن متنزها فى غيط النوبى بالأزبكية تقام فيه الاحتفالات التى يتجمع فيها النساء والرجال للرقص وقد وصفه الجبرتى بأنه أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة،

---

(١) دار الوثائق: معية تركى، دفتر ٣ أمر رقم ١٩٩ فى ١٩ ربيع الأخر ١٢٣٤هـ/ ١٨١٨م.
(٢) سها عبد التواب: المرأة العاملة فى الصناعة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص ٢٢.
(٣) الجبرتى: عجائب الآثار، جـ٢، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧، حوادث عام ١٢١٥هـ.
(٤) نفسه.
(٥) نفسه.

يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة. وجعلوا على كل من يدخل إليه قدرا مخصوصا يدفعه. أو يكون مأذونا وبيده ورقة[١] أى تصريح بالدخول.

وقد استفز الجبرتى ذلك وأدانه ووصفه بالتبرج والخروج عن أصول الحشمة والحياء[٢]، ونتيجة لهذا الاختلاط والانفلات، ورغبة بعض النساء فى اكتساب النفوذ حدثت حالات زواج يشوبها المصلحة والغموض بين الفرنسيين الذين كانوا يظهرون اسلامهم عند العقد على مسلمات لبسن ملابس الفرنسيات، وسلكن سلوكهن ونهجن نهجهن فى الحياة، وأصبح لهن الكلمة المسموعة، بعد أن صرن مع حكام الأخطاط للنظر فى شئون الأهالى والأمر والنهى فى الأحكام وأمامهن القواسة والخدم وبأيديهم العصى لإبعاد الناس عنهن، وأبرز الأمثلة على هذه الزيجات زواج الجنرال "مينو" من زبيدة الرشيدية، ومعاملته لها معاملة السيدات الفرنسيات إذ كان يمد إليها يده كلما هم بالدخول معها إلى مكان عام، وكان يتحرى لها أوفق المجالس ويقدم إليها خير الأطعمة، وزواج الراقصة المسماة "هوى" من "نقولا القبطان"، بعد أن رآها ترقص فى أحد المقاهى، وكان يوافقها على رغباتها ولا يخالف هواها حتى ولو قامت بضربه كما خرجت بعض نساء الطبقة الوسطى عن التقاليد وتزوجن ببعض الفرنسيين الذين كانوا ينطقون بالشهادتين بشكل آلى ليتزوجوا[٣].

يضاف إلى ذلك حدوث صداقة من بعض نساء الأسر المشهورة للقادة الفرنسيين رغم مكانة أسرهم فى المجتمع المصرى وخلع بعضهن برقع الحياء وكان من أبرز هؤلاء زينب البكرى أحد بنات اسرة البكرى العريقة والتى كانت تتبرج مع الفرنسيين، وتخرج عن طورها معهم، والذى تبرأ منها والدها بعد خروج الحملة. كما وجد هذا الانفلات طريقا إلى قلوب كثير من نساء المماليك الذين مات أزواجهن فى معركة إمبابة، فانطلق بعضهن إلى حياة التحرر بعد أن كن يقضين سنوات عمرهن وراء المشربيات.

---

(١)الجبرتى: عجائب الآثار، جـ٢ طبعه بيروت، ص ٢٣١.

(٢)على الرغم من أن المماليك كانوا قد أجازوا إقامة دور للخلاعة وفرضوا عليها ضرائب مقررة فان الجبرتى اعتبر ما فعله الفرنسيون لا يتفق مع الأنماط الخلقية التى كانت تسود عصره.
أنظر: حكمت ابو زيد: المجتمع القاهرى فى عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتى، ص ٣٦٦.

(٣)صلاح عيسى: منهج الجبرتى فى رؤية الظواهر التاريخية دراسة ضمن ندوة عبد الرحمن الجبرتى، ص ١٦٤.

وقد استبشع الجبرتى، كل ما كان يدور حوله من مظاهر خـروج المـرأة علـى التقاليد، واصفا له بالانفلات، والخروج عن أصول الحشمة والحياء، واستفزاز المفـاهيم الخلقية الثابتة لدى المصريين هذا بالإضافة إلى مخالفتهم لقواعد الشرع والدين.(١)

ولم يتوقف هذا الانفلات الأخلاقى بعد خروج الفرنسيين من مصر بـل اسـتمرت عمليات زواج المصلحة مع الجنود العثمانيين. وقد أوضح الجبرتى ذلك بقوله: "وكان هذا الأمر كثر بينهم وبين أهل البلد، وأكثرهم النساء اللاتى درن مع الفرنساوية، ولما حضـر العثمانية تحجبن، وتقبن وتوسط لهن اشباههن من الرجال والنساء، وحسنوهن للطـلاب، ورغبوا فيهن الخطاب، فأمهروهن المهور الغالية، وانزلوهن المناصب العالية.(٢)

وإلى جانب ذلك فقد عرفت المرأة القاهرية فى عهد الحملة الفرنسية التظاهر فقمن بمظاهرة لأول مرة عندما قام الفرنسيون بمنع الأهالى من دفن موتاهم فى المقابر القريبـة من المساكن بهدف منع انتشار الأوبئة(٣)، وشروعهم "فى هدم التراكيـب المبنيـة علـى المقابر بتربة الأزبكية وتمهيدها بالأرض"(٤)، فخرجت النساء فى جمع غفيـر فـى شـكل مظاهرة وصاروا كالجراد المنتشر ولهم صياح وضجيج، واجتمعوا بالأزبكيـة، ووقفـوا تحت بيت صارى عسكر(٥)، الذى انزعج لمظاهرتهن وأبلغهم بعدم علمـه بـذلك، وأمـر بإبطال عملية الهدم.

واستمرت الأحوال على هذا المنوال حتى جاء عصر محمد على، وتغيرت الكثير من الأمور تمهيدا لبناء الدولة الحديثة.

ثالثا: المرأة المصرية خلال حكم محمد على:

بعد خروج الحملة الفرنسية، وتنازع القوى من أجل الاستيلاء علـى الحكـم فـى مصر برز دور المرأة فى الحياة السياسية والعامة، فخلال الصراع على السلطة بين محمد على والمماليك قام محمد على بتسليط الجند للمطالبة برواتبهم المتأخرة ونظرا لعدم قـدرة الخزانة على دفعها، اضطر البرديسى إلى فرض ضرائب إضافية على الفلاحـين، ممـا

---

(١)يرى صلاح عيسى أن الجبرتى إذا كان قد استبشع مظاهر المرأة المتحررة، فإنه لم يستبشع انتشار الشذوذ الجنسى فى مصر خلال تلك الفترة. انظر: منهج الجبرتى فى رؤية الظواهر التاريخية. سبق ذكره، ص ١٦٤.

(٢)الجبرتى: عجائب الآثار، جـ٢، ص ٢٠٥ تحت عنوان (استهل ربيع الثانى بيوم الثلاثاء، ١٢١٦هـ).

(٣)عبد المنعم الجميعي: مصر فى التاريخ الحديث والمعاصر، ص ٣٤.

(٤)الجبرتى: المرجع السابق، جـ٣، ص ٢١ تحت عنوان "واستهل شهر ربيع الثانى بيوم الاربعاء ١٢١٣هـ.

(٥)نفسـه.

ضايق الأهالى، وجعل النساء يخرجن من الحارات لمساندة الرجـال وبأيـديهم الـدفوف يغنون ويقولون إيش تأخذ من تفليسى يا برديسى"[١]، مما اضطر البرديسى للهروب إلـى القلعة، وإلى جانب ذلك فقد قامت المرأة المصرية بالتظاهر والتجمهر والتحـريض علـى الإضراب، بل واستعمال العنف مع الرجال من أجل الدفاع عن مصالحها بعد أن نجحـت هذه الطريقة من قبل مع الفرنسيين فى تحقيق مطالبها فبعد أن ألغى محمـد علـى نظـام الالتزام ورفع أيدى الملتزمين عن التصرف، وكان لبعض النسوة أراضى بـالالتزام عنـد محمد على ضج الناس وكثر فيهم اللغط، فقامت النساء فى القاهرة بمظاهرة عـام ١٨١٤ ذكرها الجبرتى بقوله: "وحضر جمع من النساء الملتزمات إلى الجامع الأزهر". وصرخن فى وجوه الفقهاء وأبطلوا دورسهم، وفرقوا محافظهم وأوراقهم وبددوا كتـبهم وملازمهـم مما أدى إلى تفرق العلماء وذهابهم إلى بيوتهم، وعند ذلك انصرفت النساء وهـن يقلـن: سنجئ كل يوم ونبطل الدرس ونمزق الكتب حتـى يفرجـوا عـن حصصـنا ومعايشـنا وأرزاقنا.[٢]

وكان من أثر هذه المظاهرة: أن طلب نائب محمد على بعض المشـايخ ليعـرف منهم أسباب غضب هؤلاء النسوة حتى فعلن ذلك واستمرت مقاومة النسـاء لإصـلاحات محمد على فى بداية حكمه فعندما قرر محمد على فرض التجنيد على الفلاحين الذين لـم يألفوا الخدمة العسكرية لإستخدامهم فى بناء جيشه الحديث، قاومت النسـاء هـذا الأمـر بتشويه أجساد أبنائهن عن طريق فقأ عيونهم أو بتر أصبع السبابة حتى لا يكونوا لائقـين للتجنيد[٣]، مما دفع محمد على إلى إصدار أوامره بإيقاع أشد العقوبات على النسوة اللاتى يفعلن ذلك بإلقائهم فى البحر، أو شنقهم[٤]، باعتبار أن فى ذلك ضررا بأمور الملك والملـة فضلا عن كونه مذموما شرعا.[٥]

ولم تستمر مقاومة المرأة المصرية لإصلاحات محمد على كثيرا بل أخذت تشارك فيها، وتندمج وتتعايش معها وتساهم بقوة فيها حيث وجدت نفسها رغم التقاليـد مضـطرة إلى التأقلم مع التغيرات بالإضافة إلى رغبتها أيضا فى مسـاعدة زوجهـا علـى أمـور

---

(١)عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ٤، القاهرة، المطبعة العامرة الشرفية، ١٣٢٢هـ، ص ٤٥، تحت عنوان واستهل شهر ذى الحجة يوم الاثنين ١٢٢١هـ.
(٢)الجبرتى: مرجع سابق، جـ٤، ص ٢١٧، تحت عنوان واستهل شهر ربيع الأول ١٢٢٩.
(٣)محمد محمود السروجى: الجيش المصرى فى القرن ١٩، ص ١٧.
(٤)محمد فؤاد شكرى: بناء دولة ،ص ٤٧٩.
(٥)احمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم فى عصر محمد على، ص ٣٧٨.

المعيشة، كما خرجت نساء الطبقة العليا عن التقاليد وسايرت حركة التغيير وبدأت الأفكار الجديدة تفرض نفسها فمارست بعض النساء فى القاهرة أنشطة مغايرة لما يمارسه أزواجهن كبعض الصناعات اليدوية والأعمال التجارية الصغيرة، ومساعدة الأسر فى المنازل.[١]

كما لعبت النساء القرويات دورا مهما فى إنجاح خطة محمد على لبناء دولته الحديثة التى تركت آثارا عميقة فى حياة البلاد حيث اعتمد عليها لسد النقص فى العمالة فى مصانع الغزل والنسيج عند خروج الرجال لأعمال الرى أو ذهابهم إلى التجنيد وإلى جانب ذلك فقد عملت النساء فى تنقية الأرض ورعاية الزرع من الديدان والآفات وفى حصد المحاصيل[٢]، وبذر غيرها وقلعها ومراعاة الزرع حتى نضوجه إلى أن يعود الرجال بعد حفر الترع وشق القنوات[٣]، وقد بلغت مساهمة الفلاحات فى العمل الزراعى، فى عهد محمد على حدا كبيرا لدرجة أن عمدت بعض النساء إلى ربط أنفسهن بالساقية والطاحونة لإدارتها بدلا من المواشى وهن شبه عاريات وكن يضعن أطفالهن الرضع على الأرض بجانبهم حتى إذا فرغن من أعمالهن قمن بإرضاعهم.[٤]

وبعد قيام محمد على بإنشاء مصانع الغزل والنسيج الحديثة أخذ فى استخدام النساء للعمل فى المصانع إلى جانب الرجال تحت الإشراف الدقيق، وعمد إلى توظيف خدماتهن فى عمليات الغزل والنسيج والتبيض، وفى مصانع الطرابيش[٥]، وفى كيفية غزل الصوف اللازم للعبايات، وفى تحويل القنب إلى حبال وخيوط وأقمشة[٦]، فأمر المديرين وشيوخ الحارات وطوائف الحرف بإلزام المتعهدين بإحضار العاملات من النساء للعمل بهذه المصانع. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أمر بجمع "كل حرمة ذات ذوق ومهارة للعمل فى تطريز كسوة الكعبة التى يتم إرسالها مع المحمل الشريف كل عام".[٧]

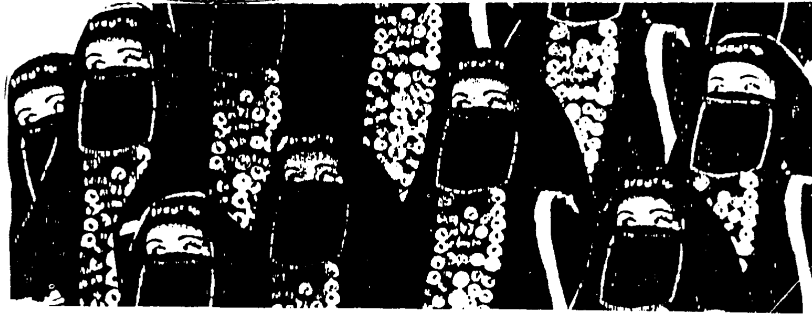
---

(١)جى فارجيت: محمد على مؤسس مصر الحديثة، ص ١٨٨.
(٢)ديوان معية تركى: سجل ١/٤٧/١ أمر رقم ٤٦ ، ص ١٥، فى ١٩ صفر ١٢٣٤هـ/ ١٨١٨م.
(٣)سها عبد التواب: مرجع سابق، ص ص ١٥-١٦.
(4)Tucker, Judith : Women in Ninteenth century Egypt. Cairo, The American University Press, 1986, P. 88.
(٥)معية تركى: دفتر ١٩ رقم ٣١٥ فى ١٤ جمادى الأولى ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م، ص ٤٥.
(٦)معية تركى: دفتر ٣٧ أمر رقم ١٩١ فى ٢٣ ربيع الأول ١٢٤٤/ ١٨٢٨م.
(٧)معية خديو تركى : سجل ٢/٤٠/ ١٥ أمر رقم ٢٥٧ فى ٢١ الحجة ١٢٤٥هـ، ١٨٢٩، ص ١٧٩.

وكان يشرف على عمل النساء وينظمهن "حرمة معروفة" كان يتم اختيارها من قبل الحكومة، وكان يتعين عليها العمل بناء على توجيهات محددة.[١]

وهكذا عرفت المرأة فى عهد محمد على ولأول مرة الوظيفة الرسمية فبحشد اعداد كبيرة من النساء للعمل لحساب الحكومة فى صناعات الغزل والنسيج أصبحت المرأة عاملة للدولة فخرجت للعمل فى المصنع، يضاف إلى ذلك أن محمد على حاول كسر قيود أوضاع المرأة الاجتماعية عن طريق تعليمها ومشاركتها فى بناء دولته الحديثة، فأنشأ مدرسة للولادة.[٢] لتكون النواة التى يرتكز عليها ليس فقط فى تعليم المرأة وإنما فى عملها حيث عملت خريجات هذه المدرسة فى الميدان الطبى، وشاركن فى بناء الدولة الحديثة التى أرادها محمد على لمصر.

وهكذا صور لنا عبد الرحمن الجبرتى كمفكر محافظ التغيرات التى طرأت على أوضاع المرأة المصرية خلال فترة انتقال مصر من العصور الوسطى إلى الحديثة والتى اتضح من خلالها أن التحديث الذى جلبته الحملة الفرنسية اختلف فى مغزاه عن إجراءات التحديث التى تمت فى عصر محمد على والتى كان لها الآثار الكبيرة فى حياة مصر الحديثة، وفى مشاركة المرأة المصرية فيها رغم قيود التقاليد، ومساهمتها بقدر غير قليل فى الحياة العامة بدليل أن الجبرتى اشار إلى ذلك فى أكثر من موضع فى كتابه النفيس المسمى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار.



---

(١)سها عبد التواب: مرجع سابق، ص ٨٠.

(٢)انشئت هذه المدرسة فى عام ١٨٣٢م وقد ألتحق بها فى السنوات الأولى من حياتها الحبشيات ثم انضم إليها المصريات، وحول نظام هذه المدرسة والدروس التى كانت تتلقاها الطالبات.
انظر: عبد المنعم الجميعى: وثائق التعليم العالى فى القرن التاسع عشر، ص ٤٧.

ملاحق الدراســة

ملحق رقم (١)

المصدر: دار الوثائق القومية: معية تركى دفتر ٨ أمر رقم ١٠٠٠، ص ٨٢.

الموضوع: أمر كريم إلى كاشف المنصورة بمنع بعض المشايخ من الاستيلاء على أجور النساء.

التاريخ: ٨ ربيع الأول ١٢٣٨ / ١٨٢٢م

قدم إبراهيم شيخ صناعة الكتان من قرية أطوابير بإقليم المنصورة عريضة يقول فيها أنه يوجد مبلغ ١٤٠ ريالا فى ذمة المعلم وذلك قيمة أجرة النساء اللاتي يشتغلن فى أشغال الكتان وأن المعلم المذكور ممتنع عن إعطاء النساء حقهن. فيلزم إجراء التحقيق وإعطاء النساء حقوقهن وتأديب المعلم المذكور.

ملحق رقم (٢)

المصدر: دار الوثائق القومية: معية تركى دفتر ٥٨ أمر رقم ٣٥١.

الموضوع: أمر كريم بإلزام المتعهدين بجمع خمسة آلاف عاملة من النساء للعمل فى المصانع.

التاريخ: ٢٥ رجب ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م.

جوابا على طلبكم نحو خمسة آلاف عاملة من النساء لأشغال الغزل نقول أن المتعهدين بتقديمهن سبق أن تعهد كل واحد منهم بمقدار وقد كتبنا لكل منهم تذكرة بلزوم إيفائه ما تعهد به وأنتم بدوركم يلزمكم أن تراجعوا المتعهد فى المديرية ومتى ما جاء الجواب منهم تجرى ما يجب إزاء ذلك التقصير وبهذه الصور تكون أدينا المصلحة حقها المقتضى لها.

ثبت المصادر والمراجع

الوثائــــــق:

دار الوثائق القومية بالقاهرة.

أولا: وثائق غير منشورة:

- ديوان معية تركى:

١- سجل ١/ ١/٤٧ أمر رقم ٤٦ فى ١٩ صفر ١٢٣٤هـ.

٢- سجل ٢/ ٤٠/ ١٥ أمر ٢٥٧ فى ٢١ الحجة ١٢٤٥هـ.

- معية تركى:

١- دفتر ٣ أمر رقم ١٩٩ فى ١٩ ربيع الآخر ١٢٣٤هـ.

٢- دفتر ١٩ رقم ٣١٥ فى ١٤ جمادى الأولى ١٢٤١هـ.

٣- دفتر ٣٧ أمر ١٩١ فى ٢٣ ربيع الأول ١٢٤٤هـ.

ثانيا: وثائق منشورة:

وثائق التعليم العالى فى القرن التاسع عشر. دراسة وإشراف د. عبد المنعم الجميعى، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٤م.

ثالثا: المصادر والمراجع العربية:

- أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم فى عصر محمد علـى، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٣٨م.
- جى فارجيت: محمد على مؤسس مصر الحديث- ترجمة محمد رفعت عواد، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة ٤٩٢.
- حكمت أبو زيد: المجتمع القاهرى فى عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتى. دراسة ضمن ندوة الجبرتى التى أقامتها الجمعية التاريخية، ١٩٧٤.

- درية شفيق وإبراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر من عهد محمد على إلى عهد الفاروق، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٤٥.
- ستانلى لين بول: سيرة القاهرة- ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخران ، القاهرة، النهضة المصرية. د.ت.
- سها عبد التواب: المرأة العاملة فى الصناعة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر- رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب فرع بنى سويف جامعة القاهرة.
- صلاح عيسى: منهج الجبرتى فى رؤية الظواهر التاريخية، دراسة ضمن ندوة عبد الرحمن الجبرتى التى أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٧٤.
- عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (طبعات متعددة).
- عبد المنعم الجميعى: مصر فى التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٩٢.
- كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر ، جـ١- تعريب محمد مسعود- القاهرة، مطبعة ابو الهول د.ت.
- محمد فؤاد شكرى وآخران: بناء دولة مصر محمد على، السياسة الداخلية ، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٤٨.
- محمد كمال يحى: الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث، القاهرة، سلسلة مصر النهضة ١٩٨٣.
- محمد محمود السروجى:الجيش المصرى فى القرن ١٩،القاهرة،دار المعارف، ١٩٦٧
- محمود الشرقاوى:مصر فى القرن الثامن عشر،جـ١،القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٥٥.

رابعا: المراجع الأجنبية:

- Tucker, Judith: Women in Ninteenth Century Egypt, Cairo, The American University , Press, 1986.

خامسا: الدوريات:

الأستاذ: الجزء السادس عشر فى ٦ ديسمبر ١٨٩٢.

٣- المرأة فى حياه محمد على

لم يقتصر دور محمد على فى حياته على بناء دولة، أو الصراع من أجل البقاء على رأس السلطة فى مصر، بل هدف أيضا إلى تكوين أسرة تحمل اسمه، وتحافظ على أمجاده.

إن محمد على لم يظهر على مسرح الأحداث فجأة، ولم تتجلى قدراته وعبقريته التى غيرت مجرى تاريخ مصر والشرق صدفة بل هناك من الأشخاص الذين ساندوه، ومن الظروف التى ساعدته ما هيأه للوصول إلى اريكة الحكم، وجعلت من هذا اليتيم الفقير رجلا يشار له بالبنان.

إن هناك العديد من الأسباب التى دفعت محمد على منذ صغره إلى التطلع للمجد والعمل من أجل الوصول إليه، وتحويل الآلام التى تعرض لها فى شبابه إلى آمال حلمت بها أمه قبل ولادته حقيقة فإن الدنيا حظوظ، ومصير الانسان فيها يتوقف على لحظة يمكن عن طريقها تغيير مجرى حياته، ومع ذلك فإن العزيمة القوية هى التى يكون لها القول الفصل فى إيجاد الرجل العظيم.

وبما أن للمرأة سواء كانت الأم أو الزوجة أو الحبيبة غالبا تأثير مباشر فى تكوين حياة العظماء، فإن أثر المرأة فى حياة محمد على، ودورها فى وضع بصمات واضحة فى تكوينه، وفى مساندته لارتقاء سبيل المجد يبدو واضحا وبما أن تكوين أسرة تحمل اسم محمد على وتساعده فى أداء مهامه، وتحافظ على إنجازاته وأمجاده كانت ضمن أهدافه فإن محمد على نجح فى تكوين أسرة من الأبناء والأحفاد إستطاعت أن تحكم مصر ما يقرب من المئة والخمسين عاما.

وفيما يلى نعرض لدور المرأة فى حياة محمد على ثم لأولاد محمد علـــى الســـبعة[١]، الذين عاشوا، وانطبعت فى أذهانهم بطولات والدهم، وساعده بعضهم فى بناء مصر الحديثة.

أولا: دور المرأة فى حياة محمد على:

إن أثر المرأة فى حياة محمد على ودورها فى وضع بصمات واضحة فـــى تكوينـــه، وفى مساندته لإرتقاء سبيل المجد يبدو جليا فى دور والدته "زينب بنت حسين أغا" فى تكوينه وتنشئته. تلك السيدة الحازمة التى توفى زوجها "إبراهيم أغا" والد محمد على وهى فى ريعان شبابها، وأوقفت حياتها على تربية ابنها، ورغبت إليه الشعور بالطموح والمجد، وحببت إليـــه الرغبة فى القضاء على الأشرار والسفاحين إنتقاما لأبيه الذى قتل علـــى يـــد عصـــابة مـــن اللصوص. وفى دور زوجته الأولى[٢]، أمينة هانم بنت على باشا الشهير بنصرتلى.[٣]

لقد رأت زينب قبل ولادتها لمحمد على حلما فى منامها كان فى نظرها حلـــم المجـــد والعظمة، فقد رأت ابنها يعتلى فرسا أبيض مزينا بغطاء من الفضة، وركابه الفضية تبرق من الشمس مع كل خطوة يخطوها وهو يصعد به بصعوبة طريقا وعرا شديد الانحدار، وعنـــدما وصل إلى القمة نزل من على فرسه ليصعد أعلى منصة ثم يجلس على كرسى ضخم مطلـــى بالذهب وهو ممسكا سيفه.[٤]

ولما حكيت زينب ما رأته لزوجها قال إنها خرافات ونصحها بألا تكثر من الأكل قبل الذهاب إلى الفراش، ومع ذلك فقد ظلت زينب مقتنعة فى سريرتها بأن هذا الحلم لـــه مغـــزى خاص[٥]، ولذلك لجأت إلى عرافة ذاع صيتها فى قوله[٦] Kavala وطلبت منها تفســـير هـــذا الحلم، وعما يخبئه الزمان لمولودها الجديد، فتنبأت لهـــا بـــأن ولـــدها ســـيرقى ذروة المجـــد والعظمة، وسيكون حاكما قويا لأمة كبيرة، وأن السماء بشرتها بذلك فرأت بعينيها عرش ابنها وهو يجلس عليه[٧]، فاغتبطت زينب بهذه النبوءة ولم تكف عن حكايتها لابنها محمـــد علـــى

---

(1) الجدير بالذكر أن محمد على انجب ثلاثون طفلا منهم سبعة عشر ولدا وثلاثة عشر بنتا لم يعش من بين أولاده الذكور ويصل إلى مرحلة الشباب سوى سبعة وهم إبراهيم، وطوسون، وإسماعيل كامل، وسعيد، وحسين، وعبد الحليم، ومحمد على الصغير أما العشرة الباقون فقد ماتوا أطفالا. وبالنسبة للبنات فلم يبلغ منهم الكبر سوى توحيدة ونازلى، وزينب (الابنة الرابعة التى تحمل هذا الاسم على التوالى) اما العشر الآخريات فقد توفين وهن فى مرحلة الطفولة.

للتفاصيل انظر: عفاف لطفى السيد: مصر فى عهد محمد على – ترجمة عبد السميع عمر، ص ١٢٩.

وكانت تسمية محمد على لأبنائه ذات دلالات واضحة، فقد سمى اثنين من أولاده باسم اسكندر تيمنا بالاسكندر الأكبر الذى كان يفتخر بأنه مقدونى الوطن مثله، كما كان معجبا بسيرته، ويكن له إحترما كبيرا.

(2) تزوج محمد على أكثر من مرة فتذكر مصادر التاريخ أن زوجته الثانية كانت "ماه دوران هانم" أو "قمش قادين" ولم يرزق منها بأولاد، هذا بالإضافة إلى مستولداته.

(3) اسم قرية بمقاطعة دراما Drama شمال مدينة قوله.

(4) يقارن المؤرخون بين هذا الحلم، والحلم الذى رأته والدة الاسكندر الأكبر قبل مولده بان رأت صاعقة إنقضت على الأرض قبل ولادة ابنها وقد تنبأ لها العرافون بأن ابنها سيكون عظيما، وأنه سيملك الأرض وما عليها.

(5) نيفين يسرى: قسمة. القدر العجيب لمحمد على باشا الكبير مؤسس مصر الحديثة، ص ٣ ـ٤ ، والأميرة شيوكار: بلادى إحياء مصر، محمد على باشا، ص ١٨.

(6) مسقط راس محمد على.

(7) لويزا مولباخ، محمد على الكبير ، ص ١٥.

عندما ترعرع واشتد عوده فأثرت فيه تأثيرا شديدا وأقسم لأمه أنه سيعمل على تحقيق هذه النبوءة، وشكرها على أنها كشفت له عن مستقبل حياته ثم لم يلبث أن أحس بدافع يدفعه إلى سلوك الطريق المؤدى إلى المجد فأخذ يرقب الفرصة حتى سنحت له.

وظل محمد على تحت رعاية أمه الحنون يستمع هو وأخوته[١] إلى قصصها المثيرة التى كانت ترويها له مساء كل يوم قبل النوم عن مشاهير السلاطين وحكايات النبل والشهامة والفروسية وكان أحبها إلى قلبه قصة تلك الرؤيا التى رأتها أمه فى الحلم قبل ولادته والتى كانت طبقا لكلام أمه حلم المجد والعظمة. ولكن سعادة محمد على لم تدم طويلا فقد قتلت عصابة من اللصوص والده خلال مطاردته لها وشوهت وجهه ونقل جثمانه إلى بيته مضرجا بالدماء.[٢]

وعلى الرغم من طلب الكثير من الرجال الإقتران بوالدة محمد على فقد رفضت هذا الطلب رفضا باتا وباعت كل ما لديها للانفاق على أولادها. وأخذت فى تحميس محمد على على اجتياز الصعاب بعد وفاة والده حتى لا يشعر أحد بيتمه، وأن يكون أكثر قدرة على تحمل المسئولية ولم يطل المقام بوالدة محمد على حيث أصيبت بمرض خطير انتقلت على أثره إلى الرفيق الأعلى فبات محمد على يتيم الأبوين وحيدا يرى الدنيا حوله كأنها قفر مقفر لا يدرى ما المصير.[٣]

تولى تربية محمد على والإنفاق عليه عمه طوسون غير أن المنية عاجلته فأصبح الغلام يتيما قاصرا[٤]، وخلال تلك الفترة ظل الحلم الذى حكته له والدته فى ذاكرته يبعث فيه روح الأمل. هذا عن دور والدة محمد على فى تكوينه وتنشئته أما عن دور زوجته الأولى "أمينة بنت على أغا" الأرملة الشابة[٥]، فقد شجعته على تحقيق طموحه الذى لا يتوقف عند حد، وكانت الشخص الوحيد الذى كان له الجرأة على ترويض أحلامه ومواجهته بأخطائه، وعلى مر السنين أنجبت أمينة لمحمد على خمسة أطفال ثلاثة أولاد وبنتين. وهم إبراهيم وأحمد طوسون، وإسماعيل كامل وتوحيدة، ونازلى. وبعد أن حشد الباب العالى جنوده لإخراج الفرنسيين من مصر تم استدعاء محمد على وتعيينه نائبا لقائد فرقة البانية مسافرة إلى

([1]) ترك والد محمد على مجموعة من الأولاد توفوا جميعا ولم يبق على قيد الحياة سوى محمد على، انظر: جورج يانج: تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، ص ٦١.
([2]) لويزا مولباخ، مرجع سابق، ص ١٤.
([3]) خالد عبد المحسن بدر: شخصية محمد على رؤية تحليلية دراسة ضمن ندوة مصر فى عصر محمد على إصلاح أم تحديث، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ص ص ٣٤- ٣٥.
([4]) جرجى زيدان: تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن، جـ١.
([5]) كانت أرملة دون أن تكون قد تزوجت، وقصة ذلك أن والدها توفى وهى طفلة فطمع حارسها القضائى فى ميراثها وارغمها على الزواج منه على أن يدخل بها عند بلوغها ولكن هذا الرجل قتل قبل أن يدخل بها، انظر نيفين يسرى: مرجع سابق، ص ص ١٦-١٧.

مصر[١]، فترك لزوجته حملا ثقيلا وهو مسئولية تربية أطفاله الخمسة بعد أن أوصى ابنه الأكبر إبراهيم بأمه وأخوته.

ومع أن أمينة عانت منذ سفر زوجها إلى مصر عشر سنوات من الوحدة والخوف والقلق فقد تحملت بشجاعة وبدون شكوى كل ذلك، وكان نصيبها فى هذه الفترة الانتظار كما كانت تتظاهر أمام الناس بأنها حياتها هادئة سعيدة وهى ترعى بيتها وأبناءها الخمسة انتظارا لعودة زوجها الحبيب إلى أن وصلها نبأ توليته نائبا للسلطان على مصر.

لقد وصل محمد على إلى حكم مصر بناء على رغبة شعبية حيث بايعه زعماء الشعب وهنا تذكر الحلم الذى كانت تحكيه له والدته مرارا وتكرارا والذى كانت قد رأته قبل ولادته بأنه سيكون عظيما.

قد يقول البعض ما هو دخل الحديث عن هذا الحلم فى الدراسة التاريخية؟ الواقع أن المؤرخ الذى يترجم لحياة الأشخاص كثيرا ما يحتاج إلى التعرف على أساليب المعاينة النفسية حتى إذا تعرض لدراسة أحدى الشخصيات يستطيع التعرف على عمليات نشوء الشخصية وتكوينها وعلى وصف سلوك الفرد وتحليله على أساس الأدوار التى قام بها والتفاعلات التى تعرض لها تجاه إحداث معينة ومن هنا فإن العلوم النفسية لها أهمية بالغة لدى المؤرخ وعلى أى حال فبعد أن استقرت الأمور لمحمد على فى مصر أرسل إلى زوجته رسالة يأمرها فيها بإرسال نجليه إبراهيم وطوسون إليه فى القاهرة، وأن ترحل هى وابنها الأصغر اسماعيل وبنتاها توحيدة ونازلى إلى استنبول ليتعلموا البروتوكول والإتيكيت المتبع فى البلاط السلطانى.

وعلى الرغم من فرحة أمينة بمنصب زوجها كوال على مصر فقد امتلأت الغيرة قلبها خشية أن تستميله إمرأة جميلة وصغيرة من حريمه أو تحظى به الفتيات الشركسيات وتحاول كل منهن جذبه، وتعمل على أن ينسى زوجته وأبناءه الخمسة، وتحاول أن تعطيه ابنا لترتفع به إلى مرتبة "قادن" أى زوجة مما ملكت إيمانهم.[٢]

حقيقة لقد كانت أمينة تعلم أن زوجها يحترمها، ولكن هذا الاحترام وحده لا يكفى تلك المرأة المحبة لزوجها لذلك كانت الغيرة والشكوك تساورها لقد أدركت "أمينة هانم افندى" أنه منذ اللحظة الأولى التى ستطئ قدمها أرض مصر فإن حياتها سوف تتغير تغييرا شاملا فمنصبها الجديد كان يتطلب منها مسئوليات كبيرة، وكان عليها أن تساند زوجها فى حدود

([1]) تولى محمد على قيادة هذه الفرقة بعد ذلك عند عودة قائدها إلى قوله، وترقية محمد على إلى رتبة البكباشى.
([2]) نيفين يسرى: مرجع سابق، ص ٨٥.

قدرتها. يضاف إلى ذلك أن مركزها كزوجة للوالى سيخرجها من محيط الحياة العادية كزوجة وأم ويجعلها "هانم افندى" وأن تعطى انطباعا بأنها أسعد سيدة فى مصر.

وبعد أن وصلت أمينة هانم إلى أبواب القاهرة، كان ابنها إبراهيم فى انتظارها ثم استقبلها الباشا وقادها إلى "الحر ملك" لترى محل إقامتها الجديد، حيث إنها بصفتها زوجته الأولى ستكون السيدة الرئيسة فيه. وعندما دخلت أمينة إلى هذا المكان رأت صفين من أجمل الفتيات واقفات لتحيتها، فردت امينة هانم التحية ثم قامت برفع الخمار والتفتت لمشاهدة نفسها فى المرآة، وعندئذ أصيبت بصدمة، واختفت الابتسامة من شفتيها عندما رأت فى صورتها آثار الإرهاق من السفر وبداية التجاعيد على وجهها، وظهور الشيب فى شعرها مما ذكرها بسنها، فالتفتت إلى الفتيات مرة ثانية لتنظر اليهن بدقة لتجد فتيات ممتلئات بالصحة والحيوية والجمال أكبرهن لا يزيد عمرها عن الخامسة والعشرين فأدركت أن منافستهن أمر مستحيل فاتخذت قرارها فى الحال وقالت فى نفسها أنا "أمينة بنت على أغا" أرفض اقتسام زوجى مع تلك الفتيات مهما كانت عادات وتقاليد هذا البلد ثم اقتربت أمينة هانم من الباشا وطلبت منه أن تحدثه على انفراد، وقالت له فى هدوء أرجو أن تفهمنى أفندينا سوف أقوم بكل امكانياتى وقدراتى بمهام سيدة مصر الأولى، ولكن من الآن فصاعدا أرجوكم أن تنسوا أننا زوج وزوجه، فنظر إليها محمد على باستغراب دون أن يفهم سبب هذا القرار المفاجئ، ولم ينطق بكلمة. ومنذ ذلك اليوم لم يطأ قدم أمينة هانم جناح الباشا، ولم يدخل هو جناحها قط[١]، ومع ذلك فقد ظلت أمينة على وفائها واحترامها لمحمد على، وأن ظلت تأخذ عليه إرسال أولادها إلى الحروب ومواجهة المخاطر للوصول إلى غايته وأهدافه، ومع ذلك فإنها لم تفقد صوابها معه إلا بعد إحراق ابنها اسماعيل خلال حروبه فى السودان حيث انطلقت إلى جناح الباشا تفتح الأبواب بعصبية زائدة، وهى تقذفه بالإتهام الرهيب أنتم المسئول عن موت إبنى اسماعيل. أنتم الذى قتلتم ابنى سامحكم الله. ومع كل ذلك ظلت أمينة على وفائها واحترامها لمحمد على وبعد وفاة ابنها طوسون بمرض الطاعون اعتزلت أمينة الحياة الرسمية وعاشت باقى حياتها فى خدمة البؤساء وفى أعمال الخير، فكانت تكثر من الصلاة وقراءة القرآن وقد توفيت أمينة هانم فى عام ١٨٢٤م بالقاهرة، ودفنت فى المدفن الكبير بالامام الشافعى. [٢]

هذا عن دور أمينة فى حياة محمد على كزوجة أولى، أما عن زوجته الثانية "ماه دوران هانم" أو "قمش قادين" فإنها لم تنجب له أطفالا، كما أن تأثيرها فى حياته ليس كبيرا.

([1]) نيفين يسرى: مرجع سابق، ص ١٣٨- ١٤٠.
([2]) حنفى المحلاوى: حريم ملوك مصر من محمد على إلى الفاروق ، ص ٥٤.

وبالنسبة لمستولدات محمد علـــى فهن:

- أم نعمان وقد رزق منها الأمير نعمان.
- عين حياة قادين وقد رزق منها محمد سعيد باشا الذى تولى حكم مصر فى الفترة من ١٨٥٤- ١٨٦٣م.
- ممتاز قادين وقد رزق منها الأمير حسين بك.
- ماهوش قادين وقد رزق منها الأمير على صديق بك.
- نام شاز قادين وقد رزق منها الأمير محمد عبد الحليم الــذى تنــافس علــى عــرش الخديوية مع الخديوى توفيق.
- زيبه خديجة قادين وقد رزق منها الأمير محمد على الصغير.
- شمس صفا قادين، وقد رزق منها بنتين هما الأميرة فاطمة هانم والأميرة رقية هانم.
- شمع نور قادين وقد رزق منها الأميرة زينب هانم.
- نايلة قادين ولم يرزق منها أولادا.
- كلفدان قادين ولم يرزق منها أولادا.
- قمر قادين ولم يرزق منها أولادا.

وإلى جانب كل ذلك فإن محمد على لم يفقد إعجابه بالوجوه الجميلة للفتيات الحســناوات من التركيات والشركسيات والجورجيات اللاتى لم تتعد بعضهن العاشرة من عمرها واللاتـــى لهن عادة بشرة ناصعة البياض[١]، على الرغم من لحيته البيضاء ومــن هــؤلاء الزوجــات والمستولدات أنجب محمد على سبعة عشر ولدا وثلاثة عشر بنتا. وقد ولد آخــر طفلــين لــه عندما كان قد تجاوز الثالثة و الستين. [٢]

وهكذا ومن خلال الصورة التى قدمناها عن دور المرأة فى حياة محمد على يبرز أثر والدته، وزوجته الأولى فى تكوينه ومساندته فى ارتقاء سلم المجد والعظمة.


زيبة قادن " زوجة محمد على "


زوجة محمد على و ابنتيـ

(١) صوفيا لين: حريم محمد على باشا ، ص ١٧١.
(٢) عفاف لطفى السيد: مصر فى عهد محمد على، ص ٥٦.

الملاحق
زوجات محمد علي



أمينة هانم

- **محمد علي باشا الكبير**
كانت له زوجتان

- الأولى: أمينة هانم وهي بنت علي باشا الشهير بمصرلي من أهالي قرية نصرتلي التابعة لدراما رزق منها محمد علي باشا الكبير خمسة أولاد ثلاثة أنجال وبنتين وهم:الأمير إبراهيم باشا - الأمير أحمد طوسون باشا - الأمير إسماعيل كامل باشا - الأميرة توحيدة هانم - الأميرة نازلي هانم



- الثانية : ماه دوران هانم (أوقمش قادين) لم يرزق منها أولادا

أما مستولداته فهن :
-أم نعمان وقد رزق منها الأمير نعمان بك
-عين حياة قادين وقد رزق منها محمد سعيد باشا (والي مصر)
-ممتاز قادين وقد رزق منها الأمير حسين بك
-ماهوش قادين وقد رزق منها الأمير علي صديق بك
-نام شاز قادين وقد رزق منها الأمير محمد عبد الحليم
-زيبة خديجة قادين وقد رزق منها الأمير محمد علي باشا الصغير
-شمس صفا قادين وقد رزق منها بنتين الأميرة فاطمة هانم، الأميرة رقية هانم-شمع نور قادين وقد رزق منها الأميرة زينب هانم
-نايلة قادين لم يرزق منها أولادا
-كلفدان قادين لم يرزق منها أولادا
-قمر قادين لم يرزق منها أولادا

ثبت المصادر والمراجع

مصادر غير منشورة:

أولا: الوثائق والمخطوطات:

دار الوثائق القومية:

١- الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على ثم من ولده العزيز إبراهيم إلى وفاته. مخطوط تحت رقم ٢٤٨٤ (تاريخ تيمور).

٢- محافظ أبحاث محفظة ١٣٥ صورة التقرير الذى تضمن إسداء محمد على النصح لأعضاء أسرته والمقدمين من رجاله بتاريخ ١١ محرم ١٢٦٣هـ.

محفظة ١٤٩ مخطوط بعنوان عبر البشر فى القرن الثالث عشر.

٣- المحفوظات الملكية تركى: ملف (١) وثيقة رقم ٩٨ خطاب من محمد على إلى ابنه إبراهيم فى ٤ ربيع الأول ١٢٣٧هـ.

ثانيا: المصادر والمراجع المنشورة:

- بيير كرابيتس: إبراهيم باشا- ترجمة محمد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧.
- جرجى زيدان: تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى إلى الآن الجزء الأول، القاهرة- مطبعة الهلال ١٩١١.
- جورج يانج: تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل- تعريب على شكرى ، القاهرة ١٩٣٤.
- حنفى المحلاوى: حريم ملوك مصر من محمد على إلى الفاروق، القاهرة، دار الامين، ١٩٩٣.
- خالد عبد المحسن: شخصية محمد على رؤية تحليلية- دراسة ضمن ندوة مصر فى عصر محمد على اصلاح ام تحديث، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.
- شيوه كار (الأميرة) بلادى- أحياء مصر محمد على باشا، ترجمة اميل مراد، د.ت.

- عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الرابع، القاهرة، الطبعة الشرفية.
- عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥١.
- عبد المنعم الجميعى: الثورة العرابية: بحوث ودراسات وثائقية، القاهرة، دار الكتاب الجامعى ١٩٨٢.
- عمر طوسون: البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس وسعيد، الإسكندرية.
- عفاف لطفى السيد: مصر فى عهد محمد على – ترجمة عبد السميع زين الدين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤.
- لويزا مولباخ: محمد على الكبير، القاهرة، دار الهلال، فبراير ١٩٥٢.
- نيفين يسرى: قسمة – القدر العجيب لمحمد على باشا الكبير مؤسس مصر الحديثة– ترجمة على محمد سعيد ذو الفقار، ٢٠٠٢م.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

- Sophia Poole: The English Woman in Egypt , Cairo, American University, 2003.

رابعا: الدوريات:

- الأهرام: نوفمبر ١٩٤٩.
- الهلال: ديسمبر ٢٠٠٤.



٤ – صالون الأميرة نازلي فاضل (١)

من المهم لكل من يؤرخ للحياة الفكرية فى مصر الحديثة ويتطرق لينابيع حركة التنوير ، وما نتج عنها من تأثير ألا يتجاهل الصالونات الأدبية أو تلك الأندية الارستقراطية التى كانت تجذب إليها صفوة قادة الرأى والفكر فى مصر من كتاب وخطباء وشعراء ومفكرين وسياسيين وصحفيين وغيرهم وتدفعهم إلى التسابق فى مضمار الرقى الفكرى والتمدن والتى كان من أبرزها صالون الأميرة نازلى فاضل ، وصالون

---

(١) ابنة الأمير مصطفى فاضل نجل ابراهيم باشا ابن محمد على ، وشقيق الخديو اسماعيل والذى كان يعتبر نفسه أحق بعرش مصر من بعده ، ولكن نظام توارث العرش قد تغير بفرمان مايو ١٨٦٦ الذي نقل العرش لأكبر أولاد اسماعيل وليس أكبر أفراد الأسرة مثلما حدث فى فرمان ١٨٤١ م . لذلك ظل مناوئا له حتى اضطره الخديو فى نهاية الأمر إلى التنازل عن جميع ما له بالقطر المصرى من الأملاك وغيرها .

للتفاصيل يمكن الرجوع إلى دار الوثائق : محافظ أبحاث ، محفظة ١٣٥ تحت عنوان « تراجم محمد على والعائلة » .

وإلى جانب ذلك كان من دعاة الحرية والدستور والثائرين فى وجه الاستبداد فى عاصمة الدولة العثمانية فطالب بالدستور فى عهد السلطان عبد المجيد لدرجة أن أطلق عليه البعض « أبو الأحرار » . ونتيجة ليأسه من العمل السياسى وفشل مؤامراته ضد الخديو اسماعيل انصرف إلى العلم والأدب فحوّل قصره إلى مدرسة كما كانت مكتبته الخاصة من أكبر المكتبات فى مصر مما جعل له منزلة خاصة فى قلوب المثقفين المصريين حتى مات فى عام ١٢٩١ هـ . وتميزت الأميرة نازلى منذ نشأتها بالذكاء والدهاء والجمال الفتان ، وقد اتصلت بعالم السياسة والدبلوماسية نتيجة لتزوجها من سفير الدولة العثمانية فى لندن ، وبعد وفاة زوجها عادت إلى عاصمة الخلافة حيث ضاق بها السلطان عبد الحميد ذرعا لعلاقتها بجماعة تركيا الفتاة فاضطرت للاقامة فى مصر فترة حيث ضاق الخديو عباس الثانى بها ذرعا أيضا ثم رحلت إلى تونس وتزوجت من السيد خليل بو حاجب نجل قاضى المملكة الشرعية بتونس ، ولما لم يطب لها المقام هناك استقرت فى قصرها بالقاهرة إلى أن ماتت فى نهاية عام ١٩١٣ .

أنظر : أوراق محمد فريد ، المجلد الأول ، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ – ١٩١٩ القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨ ، ص ١٣٣ . ومصطفى عبد الرازق : أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده ، مجلة الشباب ، العدد الأول فى ١٧ يناير ١٩٣٦ .

اسماعيل صبرى ، والمجالس التى كانت تعقد فى منازل على باشا مبارك ، ولطيف باشا سليم ، وسعد زغلول وغيرهم وما أعقب ذلك من ظهور صالونات مشهورة مثل صالون « مى » الذى ظل موضوعا محببا ومثيرا لدى العديد من المثقفين والقراء ، وصالون العقاد الذى احتشدت فيه العديد من العقول التى حددت ملامح هذا الجيل ، ودارت فيه موضوعات شتى من التاريخ والأدب والفلسفة والفن والسياسة والفكاهة .

إلا أن صالون الأميرة نازلى كان يعدُ من أبرز الصالونات فى مصر وأشدها تأثيرا فى الحركتين الأدبية والسياسية (١) خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث ضم بين جنباته صفوة القوم فى مصر أمثال « شريف باشا » ، و« رياض باشا » ، و « سلطان باشا » ، و « لطيف باشا سليم » ، و « عمر باشا لطفى ، و « شاهين باشا » وغيرهم ممن تألفت منهم هذه الجماعة التى عرفت باسم جمعية حلوان السرية ثم الحزب الوطنى بعد ذلك (٢) .

كما لعب هذا الصالون دوراً هاما فى تغيير فكر واتجاهات جماعة الشيخ محمد عبده الذى قاد حركة التفاهم بين السلفية والتحديث .

كما ضم هذا الصالون بين جنباته قاسم أمين وسعد زغلول وابراهيم الهلباوى ، وأحمد فتحى زغلول وابراهيم المويلحى وأديب اسحق وعلى يوسف وحسين رشدى وغيرهم من قادة الرأى والفكر والسياسة الذين لعبوا أدوارا هامة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر .

---

(١) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٣ ، ابراهيم المويلحى صاحب مصباح الشرق ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠ - ٨١ .



هذا إلى جانب أنه كان يضم بين جنباته كبار المسئولين الانجليز أمثال ايفلين بارنج (لورد كرومر) المعتمد البريطانى فى مصر وهارى بويل السكرتير الشرقى وكبار رجالات الاحتلال فى مصر أمثال المستشرق رونالد ستورز وغيره .

وعلى الرغم من كل ذلك فإن هذا الصالون وصاحبته كانا من مظاليم التاريخ فلم يحظيا باهتمام من أحد ولم يبرز أهمية مكانتهما أحد ربما لأن هذه الأميرة كانت تنسب إلى الأسرة المالكة المعزولة كما أنها كتبت بعض المقالات فى الصحف الأجنبية ضد المصريين [1] وكانت على علاقة بالانجليز المحتلين لمصر ،

لقد تربت الأميرة نازلى على النمط الأوربى ، وتثقفت بالثقافة الغربية ، وكانت تتكلم الفرنسية كاحدى بنات السين ذوات الثقافة العالية والأدب الرفيع هذا إلى جانب أنها كانت تُحسن اللغات الانجليزية والتركية والعربية . وكانت كما يذكر محمد فريد تقابل الرجال على العادات الأوربية ، وتحيى ليالى موسيقية فى دارها و« تكثر من شرب الخمر خاصة الشمبانيا على الطعام بل وقبل كل طعام » [2] يضاف إلى ذلك أنها كانت تتداخل فى القضايا المنظورة أمام المحاكم مقابل سمسرة تأخذها باسمها أو باسم القضاة [3] .

---

(١) للأميرة حديث نشره جرفيل Guerville الأمريكى فى كتابه الذى نشر فى لندن عام ١٩٠٥تحت عنوان New egypt وصفت فيه الشباب المصرى بالخمول والكسل كما أن لها حديثا نشر فى الايجبسيان جازيت عام ١٩٠٩ ذكرت فيه أن الشباب المصرى لا يساوى ثمن الحبل الذى يشنق به نفسه مما أهاج بعض الجرائد المصرية ضدها .

انظر : المقطم فى ٢٦ فبراير ١٩٠٩ .

(٢) انظر أوراق محمد فريد المجلد الأول ، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٨ ، ص ١٣٣ .

(٣) يذكر محمد فريد أنها تداخلت فى قضية السيدة ليلى هانم مقابل مبلغ كبير أخذت به كمبيالات عليها ، وانها أرادت توكيله فى هذه القضية ولكنه رفض لأن سببها غير شرعى . للتفاصيل انظر أوراق محمد فريد ص ١٣٤ .

وقد كان قصر الأميرة نازلى مجتمعا للعظماء وقادة الرأى وصفوة أهل العلم والأدب من أجانب ومصريين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولم يقتصر صالونها على تدارس الشعر والأدب بل كانت تتدارس فى أروقة هذا الصالون موضوعات أخرى وتحل فيها عظائم الأمور وتعقد .

ففى صالونها كانت تناقش مسائل الاصلاح الاجتماعى وأحوال المرأة المصرية ، وتتدارس طرائف العلوم والآداب والفنون الجميلة وخلاصة الفكر الراقى .

وفى صالونها كانت تشجع أصحاب المواهب والكفاءات المتميزة التى حملت راية التنوير الفكرى فى مصر ، كما كانت أحيانا تناقش الكتب الأدبية التى تهاجم مصر (١) وتخاطب الصحفيين وترسل آراءها إلى الجرائد .

وفى صالونها دافعت عن أحمد عرابى وثورته ، ولم تمل الكلام عن نزاهة أغراضه ومما قالته عنه انه لم يكن جنديا فحسب لأن قلبه كان أطيب من أن يساعده على ذلك ولو كان رجلا عنيفا لأخذ توفيقا مع جميع الأمراء إلى القلعة وقطع رءوسهم وصار أميرا على البلاد (٢) .

وفى صالونها تولدت المشاعر القومية بعد فترة من الكبت السياسى والفكرى والأدبى حيث قربت منها العديد من رجالات مصر السياسيين وغيرهم كما سبق القول .

وقد يرجع السبب فى ذلك أنها كانت تنتمى إلى فرع من الأسرة الحاكمة كان يدعى أحقيته بولاية العرش ، لذلك فإنها كثيرا ما ناوأت

---

(١) من امثلة ذلك كتاب « سر تأخر المصريين » لداركور الفرنسى .
(٢) بلنت : التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر ص ٥١٦ .



الخديو اسماعيل ووقفت بجانب مناوئيه أمثال جمال الدين الأفغانى أثناء وجوده بمصر وخلال وجوده بالاستانة ، كما كانت تتجسس للسلطان العثمانى على الخديو عباس الثانى . وعليه كذلك للانجليز (١) .

يضاف إلى ذلك أنها كانت على علاقة بأعضاء جماعة تركيا الفتاة مما أدى إلى سخط السلطنة عليها (٢) .

وقد توثقت علاقة الأميرة نازلى بالأفغانى لدرجة أنه قال عنها أنها « تمثال الكمال والجمال حضرة البرنسيس التى لها من قلبى المنزل الأبهى ، والمقام الأسنى » (٣) .

كما حاول أن يطلب لها من السلطان « وسام الشفقة المرصع » (٤) ولكنه لم يفلح فى ذلك .

كما توثقت علاقة الأميرة بالشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه ببلاد الشام إلى القاهرة فى عام ١٨٨٨ خاصة بعد أن علم بمساعيها لدى الخديو توفيق واللورد كرومر ورياض باشا رئيس النظار وقتئذ فى اصدار العفو عنه فتردد على صالونها وتوثقت علاقته بها (٥) مما كان له أثره العميق فى حياة الشيخ نفسه ويشهد على ذلك خطاب لها بالفرنسية أرسلته إلى الشيخ ليس عن طريق البريد ولكن عن طريق رسول تقول فيه (٦) :

---

(١) أوراق محمد فريد ، ص ١٣٤ ، ومذكرات سعد زغلول جـ ١ ، ص ٦٤ .

(٢) الرائد المصرى : العدد ٢٨ فى ١٨ ديسمبر ١٨٩٦ ، ص ٢٩٣ ، تحت عنوان « البرنسيس نازلى هانم » .

(٣) محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، جـ ١ ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٥٠ هـ ، ص ٨٩٧ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ، جـ ١ ، ص ٤١٨ ، ٨٩٤ .

(٦) نشر هذا الخطاب الاستاذ عثمان أمين خلال تعليقه على مقال الشيخ مصطفى عبد الرازق « أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده » ، موضحا أن الخطاب كتب على غلافه بالعربية «عزتلو شيخ محمد عبده حضرتلرى» الرسالة ، العدد ١٩٠ فى ٢٢ فبراير١٩٣٧ .

Cher Ami

Je vous prie de venir me voir ce soir aprés 7 h.

Je regrette d'avoir manqué votre visite hier.

Votre amie sincére

Nazli

وترجمته :

صديقى العزيز

أرجوك أن تحضر لرؤيتى هذا المساء بعد الساعة السابعة . .

أنا أسفة إذ فاتتنى رؤيتك أمس ..

صديقتك المخلصة

نازلى

ومعنى ذلك أن أمر الصداقة بين الشيخ والأميرة أصبح واضحا ، وأن الأميرة خصت الشيخ بمكانةٍ مميزةٍ وأنها كانت تُجِلَّهُ .

ومع أن الشيخ محمد عبده لم يكن راضيا عن اشتغال الأميرة بالسياسة ، وأنه كان يفضل لها أن توجه عنايتها بتأسيس أعمال تفيد فى تهذيب البنات وتعليمهن فإنه لم يستطع اقناعها بذلك ، ومع أنه كان لا يجاريها فى أرائها السياسية ويفضل الصمت على مجاراتها فى أحاديثها فإنها كانت تغضب منه وتطالبه بالاشتراك فى الحديث ، وعندما يتحدث تتعارض أراؤه مع أرائها لدرجة أنه قال لها يوما « إن سكت لا أرضيك وإن تكلمت لا أرضيك فكيف العمل ؟ » (١) .

(١) محمد رشيد رضا: المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٨٩٥ .



وعلى أى حال فقد استطاعت الأميرة أن تؤثر فى أفكار الشيخ محمد عبده فى وجوه ثلاثة أوضحها الشيخ مصطفى عبد الرازق وهى :

١ - على الرغم من عداوة الشيخ محمد عبده للانجليز وكتاباته الملتهبة ضدهم [١] خاصة فى جريدة العروة الوثقى التى أصدرها بالاشتراك مع استاذه الأفغانى فى باريس فقد استطاعت الأميرة عن طريق علاقتها الوطيدة به أن تخفف من عداوته لانجلترا وأن تقربه من صديقها « كرومر » لدرجة أن تلاشت من صدره عداوة انجلترا ، وأصبح يجهر فى كتاباته بدورها فى تنظيم أمور مصر ، كما أعلن عن مهادنته للانجليز [2] موضحا أن اصلاح الأمة لا يتحقق إلا عن طريق التربية والتعليم والاستنارة ، وتكوين أفرادها علميا وفكريا ، وأنه لا يمانع فى الاستعانة بالانجليز على نوال بعض الاصلاح ولو أدى ذلك إلى معاداة الخديو [3] .

يضاف إلى ذلك أنه قاد عملية التفاهم بين السلفية والتحديث وأباح للعقل المصرى أن يفكر غير متحرج ولا متحفظ فى أمور الدين والسياسة والاجتماع ، وعرض كل شىء للنقد ، واستخلاص وجه الحق فيه رغم أى قيود أو ظروف [4] .

٢ - المامه فى كتاباته بموضوعات لم يتعرض لها قبل تعرفه على الأميرة ففى مقاله « الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها » قام بتقريظ فوائد حفظ هذه الآثار وأجاز للرسامين عملها بقوله « إن الرسم ضرب

---

(١) Blunt : secret History of the English occupation in Egypt p. 489 .

(٢) Safran, N : Egypt in Search of political community, Oxford university press, 1961, p. 62 .

(٣) أوراق محمد فريد ، ص ١١٩ .

(٤) الدستور ، العدد ١٣٣١ فى ١٩٤٩/٩/٢٣ تحت عنوان الدكتور طه حسين ، يلخص لأهل الباكستان حياتنا العقلية فى مصر .

من الشعر الذى يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى » (١) وقوله « وأما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك » (٢) وقوله « فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها » (٣) .

وهذا الكلام ما كان يخرج من شيخ أزهرى مثل الشيخ محمد عبده لولا تأثير الأميرة عليه .

٣ – أن أسلوبه الكتابى فى أواخر أيامه كان يميل إلى الدعابة والخفة كما فى الفصول التى كتبها عن سياحاته (٤) .

ومع أننا نضيف إلى ما ذكره الشيخ مصطفى عبد الرازق أن عناية الشيخ باتقان الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة فإننا نرى أن المبالغة فى تأثير الأميرة على الشيخ محمد عبده إلى هذا الحد قد يبعدنا عن الموضوعية بعض الشىء .

حقيقة أن الشيخ ساند العرابيين خلال ثورتهم ووقف للانجليز بالمرصاد وهاجمهم على صفحات العروة الوثقى وغيرها هجوما عنيفا وأنه بعد أن قابل الأميرة تغير موقفه تجاههم ولكن لماذا لا نرجع ذلك إلى اقترابه من سن الشيخوخة وأن التجارب حنكته وصقلت أفكاره . حقيقة أن بعض عظماء الرجال برزت عبقريتهم فى منبت العطف والتأثير النسائى ، وأن الشيخ محمد عبده تأثر ببعض أفكار هذه الأميرة ، ولكن ليس إلى الحد الذى ينسيه أفكاره كوطنى حاول بث فكرة الوطنية المعتدلة فى نفوس مواطنيه ، وطالب الحاكم باصدار دستور عادل لحكم بلاده .

---

(١) رشيد رضا : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٩٨ – ٤٩٩ .
(٢) نفسه ، ص ٤٩٩ .
(٣) نفسه .
(٤) مصطفى عبد الرازق : أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده .



وعلى أى حال فإن تأثير الأميرة على رجالات مصر لم يتوقف عند الشيخ محمد عبده . بل تعداه إلى أخرين فقد لعبت دورا مهما فى حياة سعد زغلول وقاسم أمين كما كانت لها علاقات مع محمد فريد وغيره .

وعن سعد زغلول فقد توثقت علاقته بالأميرة عن طريق أستاذه الشيخ محمد عبده فاتخذت منه وكيلا لها وأتاحت له فرصة الاختلاط بأوساط الطبقة الارستقراطية وبالعديد من الشخصيات الهامة ، وشجعته على تخطى الحاجز الاجتماعى ، ونصحته بدراسة الحقوق وضرورة تعلم الفرنسية وقربته إليها لدرجة أن ترددت الشائعات بقرب زواجه منها (١) . ومن خلال صالونها ألتقى سعد بأيفلين بارنج (لورد كرومر) وبفضل مساعيها لدى كرومر عين سعد مستشارا فى الاستئناف (٢) ، كما كانت جواز المرور فى اقترانه من صفية فهمى كريمة مصطفى باشا فهمى رئيس مجلس النظار وأكثر المسئولين المصريين تأييدا للانجليز وذلك فى السادس من فبراير ١٨٩٦ (٣) ثم رشحته بقوة وتصميم ليكون أول وزير مصرى للمعارف مع أنه من أسرة فلاحية مصرية .

صحيح أن تزكية نازلى وحدها لم تكن لتكفى فى التأثير على المعتمد البريطانى كرومر لولا كفاءة سعد ، ولكن من أين عرف كرومر سعداً ؟ إنه تعرف عليه فى صالونها (٤) .

وبالنسبة لقاسم أمين فقد استطاعت الأميرة نازلى تغيير مفهومه

---

(١) عباس حافظ : بطل النهضة المصرية الكبرى ، سعد زغلول باشا ، القاهرة ، د. ت ، ص ٦٣ .

(٢) أوراق محمد فريد : المجلد الأول ، ص ١١٩ .

(٣) يرفض عباس العقاد هذه الفكرة ، ويذكر أن الأميرة لم تكن ترتاح إلى هذا الزواج ولم تساعد على اتمامه .

انظر : سعد زغلول سيرة وتحية ، القاهرة ، مطبعة حجازى ، ١٩٣٦ ، ص ٥٢٨ .

(٤) مذكرات سعد زغلول ، جـ ١ ، ص ٦٤ .

عن المرأة ، فبعد أن عاد من فرنسا إلى مصر كتب كتابا بالفرنسية عنوانه Les Egyptian (المصريون) للرد على مطاعن الدوق الفرنسى داركور Duc de Darcourt القاضى بالمحاكم المختلطة (١) وفيه دافع عن الحجاب ، وندد بالداعيات إلى السفور واشتراك المرأة فى الأعمال العامة ، وهاجم المرأة المصرية وقلل من قدرها ووصفها بالضعف والانغلاق ، وطالبها بالقبوع فى المنزل والاقتصار على شئون الدار ، وعدم الخوض فى الحياة العامة خاصة وأن مصر لا تزال تعيش فى حالة من التخلف . يضاف إلى ذلك أنه أخذ فى كتابه سلسلة من المقالات فى جريدة « المؤيد » كانت تحت عنوان « أسباب ونتائج واخلاق ومواعظ » (٢) .

ولما كانت الأميرة نازلى تمثل النهضة النسائية المصرية فى ذلك الوقت فقد رأى محمد عبده وسعد زغلول وآخرون أن ما كتبه قاسم أمين يعد تعريضا جارحا بالأميرة ، ونتيجة لذلك كلفوا « فارس نمر » صاحب المقتطف بالرد عليه فبدأ كتابه سلسلة من المقالات لنقد هذه الكتابات لم تنل رضاهم ، ولما طالبوه بالتوقف عن الكتابة طلب منهم الحصول على الاذن بذلك من الأميرة .

وقد توسط سعد زغلول لدى الأميرة فى هذا الشأن ثم أحضر قاسم أمين للاعتذار لها فقبلت اعتذاره وبعد ذلك أخذ يتردد على

---

(١) وضع كتابا عن مصر ونشر فى باريس عام ١٨٩٣ تحت عنوان L'Egypte et Les Egyptiens نتقد فيه المجتمع المصرى انتقادا لاذعا ، وصور فيه حياة مصر والمصريين بألوان قاسية مس فيها عاداتهم ودينهم .

(٢) نشرت فى الفترة بين عامى ١٨٩٤ ـ ١٨٩٨ وتضمنت تسعة عشر مقالا دارت حول ثلاثة عناصر فالمقالات السبع الأولى كانت حول المال ، والمقالات السبع الثانية كانت حول اسس التربية السليمة . أما المقالات الخمس الأخيرة والتى اسماها أخلاق ومواعظ فقد دارت حول موظفى الدولة . وقد طغت فكرة التربية على كل هذه المقالات .



صالونها فرآها سافرة تناقش محمد عبده وعلى يوسف والمويلحى وغيرهم مناقشة عميقة فى أمور مصر الداخلية وفى الشئون العالمية [١] كما وجد فيها إمرأة تدافع عن نساء مصر ، وتجادل الكتاب الأوربيين جهاراً دون حرج مما جعلها تزداد فى عينيه اقتناعا وارتفع مقامها لديه مما جعله يغير رأيه ويتحول من النقيض إلى النقيض ، ويتمنى لو كانت كل امرأة فى بلده مثلها [٢] . وبدأ يكتب فى المؤيد مدافعا عن حقوق المرأة وضرورة تحريرها من الجهل والتخلف وأن تخرج من قوقعتها كما طالب بسفورها وخروجها إلى العمل إذا اضطرتها الظروف [٣] بعد أن كان أكثر الناس دعوة إلى الحجاب [٤] . وقد جمعت هذه المقالات بتأييد ومباركة نازلى فاضل . والشيخ محمد عبده فى الكتاب المسمى « تحرير المرأة » الذى صدر فى عام ١٨٩٩ وتسبب فى هز المجتمع المصرى من الأعماق ، وإثارة العديد من المعارك الفكرية الضارية .

وقد أكد دور نازلى فاضل فى اصدار هذا الكتاب ما ذكره داود بركات فى مقال له بالأهرام أن قاسم أمين هدف من تأليف كتاب تحرير المرأة إلى إرضاء نازلى فاضل وتصحيح خطئه فى حقها [٥] كما اكد دور محمد عبده ما رددته « الجريدة » بأن محمد عبده كان صاحب هذه الفكرة [٦] . وما ذكره صاحب الأعمال الكاملة لقاسم أمين حول ما تردد من أن الشيخ محمد عبده شارك فى تأليف هذا الكتاب ثم وضع على

---

(١) السياسة الأسبوعية فى ١٩٢٨/٥/٥ مقال للاستاذ عبد العزيز البشرى .
(٢) د. ماهر فهمى حسن : قاسم أمين ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١١٧ .
(٣) نشرت أول هذه المقالات فى ١٥ مايو ١٨٩٩ ، والثانية فى ٢٠ مايو ، والثالثة فى ٢٨ مايو .
(٤) مجلة الحديث ، يناير ١٩٣٩ ، ص ٨٨ ، ٩٢ .
(٥) الأهرام فى ٤ مايو ١٩٢٨ .
(٦) الجريدة فى ٢٦ ابريل ١٩٠٨ .

غلافه اسم قاسم أمين تجنبا للحرج والعاصفة الضارية التى يمكن أن تهب عليه خاصة وانه الشيخ الأزهرى الكبير الذى كان يحمل منصب مفتى الديار المصرية (١) . وقد استند من ردّد هذه المقولة على أن الأمور الدينية التى عالجها الشيخ محمد عبده فيما يختص بحقوق المرأة قد تناولها قاسم امين بالبحث فى الناحية الاجتماعية ، كما أكدوا أن آراء قاسم امين لقيت تأييداً تاماً عند الشيخ محمد عبده واستندوا فى ذلك إلى الاجتماع الذى حدث فى جنيف فى عام ١٨٩٧ بين الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ولطفى السيد وقاسم أمين وأخذ الأخير يتلو على الامام بعض فصول من كتابه عن تحرير المرأة فكان يوافق على ما فيها ويضيف إليها بعض الفقرات (٢) . وإلى جانب ذلك استندوا إلى ما ذكره أحمد شفيق فى كتابه « أعمالى بعد مذكراتى » إلى رغبة قاسم أمين فى ألا يصدر الكتاب باسمه فقط بل بالاشتراك مع آخرين وأن قاسم أمين عرض عليه أن يشاطره العمل فى تأليف الكتاب ولكنه امتنع عن تلبية طلبه لسببين أولهما عمله الحكومى الذى لا يسمح له بالتفرغ لمسألة يعلم أن تأليف كتاب فيها لا ينتج الثمرة المرجوة . وثانيا : يقينه بأن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة (٣) .

وعلى أى حال فعلى الرغم من استبعادنا فكرة اشتراك الشيخ محمد عبده فى تأليف هذا الكتاب خاصة وأن اسلوبه الانشائى أقرب إلى أسلوب قاسم أمين منه إلى أسلوب محمد عبده فإننا لا نستبعد أن يكون الشيخ قد أضاف إليه بعض الفقرات والاقتباسات المأخوذة من أمهات

---

(١) قاسم أمين : الأعمال الكاملة ـ تحقيق محمد عمارة ـ بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ١٣٣ .

(٢) درية شفيق وابراهيم عبده : تطور النهضة النسائية فى مصر من محمد على إلى الفاروق ، القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٤٥ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣) انظر أعمالى بعد مذكراتى ، القاهرة ، ١٩٤١ ، ص ٣٥٢ .

الكتب فى الفقه الاسلامى خاصة وان ثقافة قاسم أمين الدينية لم تكن قد بلغت الاحاطة بمثل هذه الأمور الفقهية .

وهكذا يتضح أن فكر قاسم أمين كان قد تطور وتغير على يد هذه الأميرة ومن خلال صالونها ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا أن كتاب تحرير المرأة كان انتصارا لأفكارها ، وارضاء لتطلعاتها ، وترديدا لما كان يدور فى حجرات صالونها .

وبالنسبة لعلاقة الأميرة نازلى بمحمد فريد فلم تكن طيبة فى أول الأمر حيث هاجمها على صفحات الجرائد لتمجيدها للانجليز ثم لآرائها المعادية للمصريين حيث تم الصلح بينهما وقابلها فى تونس حيث دعته فى دارها بحمام الأنف وبالمرسى وأكرمته وقد قال عنها فريد « كنا على طرفى نقيض فى السياسة ولكنها كانت تحترم آرائى » ولكن هذه الصداقة لم تدم بينهما طويلا خاصة وإنها كانت تكره مصطفى كامل وتتهمه بالمتاجرة فى الوطنية ، ونظرا لاختلافهما حول هذه النقطة توقفت عن الهجوم على مصطفى كامل فترة ولكنها بعد أن علمت بمرضه دعت عليه بالموت أمام فريد فغضب منها وقاطعها ولم يقابلها بعدها قط على الرغم من صلته المتينة بها [١] ومشاركتها له فى أفراح أسرته [٢] .

لقد تعرض الكثيرون للأميرة نازلى بالتشكيك بحجة أنها كانت انجليزية الهوى والتفكير ، وأن كبار الانجليز فى مصر كانوا من رواد صالونها ومن أصدقائها الخصوصيين [٣] ولأن كلمتها كانت ذات تأثير لدى قصر الدوبارة ، ومع كل ذلك وعلى الرغم من نقدها للمصريين

---

(١) أوراق محمد فريد : الجزء الأول ، ص ١٣٤ .
(٢) حضرت على سبيل المثال زواج ابنته فريدة ، وابن أخته أحمد كمال .
(٣) عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ ، ص ٣٥ .

فهل يمكن أن نتجاهل أن الشيخ محمد عبده كان يحترم عقليتها ويرى فى صالونها خيرا وأنها خدمت الوطنية المصرية بقصد أو بغير قصد من خلال معاضدتها لسعد زغلول (١) وأنها كانت من أوائل من شاركن فى حركة التنوير الفكرى وايقاظ الحياة المصرية العامة مع بعض نساء الأسر الراقية وأنها بخيرها وشرها اشتركت فى صنع بعض زعماء مصر أمثال سعد زغلول وقاسم أمين . ففى صالونها تم صقل الزعامات المصرية وتطوير بعض مفاهيمها فلم تظهر نزعة الشيخ محمد عبده إلى تحسين حال المرأة وتلافى ما فى حياتها البيتية من النقائص إلا بعد مقابلته للأميرة وتأثره بأفكارها ، ولم تظهر زعامة سعد وتتألق بعد تأخرها على المقاعد الخشنة فى قهوة متاتيا إلا بين الباشوات فى صالون الأميرة ، وبعد مصاهرته للطبقة الارستقراطية .. ولم تتغير نظرة قاسم أمين عن الحجاب ولم يدع إلى تحرير المرأة إلا بعد مقابلته للأميرة التى تميزت جلسات صالونها بجذب الزعامات المصرية المعتدلة فى ثقافتها ووطنيتها .

وهكذا استطاعت هذه الأميرة التى كانت تفوق أكثر أهل عصرها من أبناء الشرق فى الاشتغال بالسياسة والاهتمام بمسائل بنات جنسها أن تسوس مواهب رجالات مصر وأن تؤدى دورها الطليعى فى الحياة الفكرية المصرية وأن تهيأ المناخ الفكرى لحركة التغيير التى كانت تترقبها مصر حتى وافاها الأجل فى الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩١٣ (٢) .

* * * * *

---

(١) الهلال : عدد سبتمبر ١٩٨٢ ، مقال للدكتور السيد فهمى الشناوى ، تحت عنوان صالون نازلى هانم ، ص ٤٦ .

(٢) المقتطف ، جـ ٤ ، يناير ١٩١٤ ، ص ٩٩ .



الأميرة نازلى فاضل صاحبة أول
صالون نسائي في مصر



٥- المرأة المصرية والتعليم الجامعي [١]

بعد أن افتتحت الجامعة المصرية رسميا في ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ رأي بعض القائمين علي أمرها ضرورة الأخذ بيد المرأة المصرية والارتقاء بها أدبيا وعلميا ، ومن أجل ذلك خصصت الجامعة ابتداء من العام الثاني من افتتاحها محاضرات خاصة بالسيدات تشمل تاريخ المرأة علي مر العصور ، وبالرغم من الحذر الشديد في اتخاذ هذه الخطوة خشية غضب المحافظين علي التقاليد ، ومفاجأة الرأي العام بشيء لم يستعد له فان بعض الصحف المصرية باركت ذلك الاتجاه وهللت له وشجعت علي دراسة العلوم النسائية للنساء موضحة أن النساء المصريات في حاجة كبيرة إلي من يصقل أفكارهن ويقوم اعوجاجهن ويرفع عنهن غشاوة الجهل فطالبت جريدة « الظاهر » بانشاء جامعة للنساء حتي يتعلمن ما لهن وما عليهن فقالت « نريدهن متعلمات عارفات بكل ما يجب لهن وعليهن بارعات في تدبير المنزل والنظر في شئون أطفالهن ، فمن شاء اصلاح مصر وترقيتها حقيقة فليجهر معنا بضرورة لزوم جامعة للنساء يتعلمن فيها علم تدبير المنزل وتربية الأولاد [٢] وقد أيدت اللواء ذلك فطالبت بانشاء جامعة للنساء موضحة أن اصلاح البلاد لا يتم بدون انشاء مثل هذه الجامعة [٣] .

ولا يعني هذا أن اللواء في مناداتها بانشاء جامعة للنساء قد تراجعت عما نادي به مصطفي كامل بضرورة فرض الحجاب علي المرأة ورفضه لفكرة التحرر من قيودها فقد حددت في مناداتها بانشاء هذه الجامعة أن يقتصر التعليم علي ما يساعد المرأة في تدبير شئون منزلها وتربية أولادها وتهذيب أخلاقها ليتكون منها امهات المستقبل .

---

(١) ألقي هذا البحث في سمنار كلية البنات جامعة عين شمس .

(٢) الظاهر : العدد ١١٤٩ في ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « جامعة النساء » .

(٣) اللواء : العدد ٣٣٧٤ في سبتمبر ١٩١٠ تحت عنوان « جامعة النساء الشرقيات » .

ونتيجة لتشجيع بعض الصحف للجامعة الوليدة علي السير في خطاها نحو تعليم المرأة قررت الجامعة انشاء قسم نسائي بها اقتصر التدريس فيه أول الأمر علي محاضرات في علم نفس المرأة والفلسفة والتربية والتاريخ وبعض الموضوعات العصرية هذا بالاضافة إلي تدريس بعض الموضوعات الأساسية في علم الصحة والطب [(١)] .

ولما كانت الدراسة بالجامعة للرجال في المساء فقد رأت الجامعة أن تكون الدراسة بها للنساء في الصباح حرصا علي تجنب التلاقي بين الجنسين داخل أروقتها .

وعلي الرغم من تعنت التقاليد وشدتها في ذلك الوقت فإنه يتضح من وثائق الجامعة الأهلية أن عدد النساء اللاتي خاطرن بدخول الجامعة في عام ١٩١٠ كان ستة وثمانين قيد جميعهن كطالبات مستمعات وكان عدد المصريات منهن خمسا وثلاثين أما الباقي فكن من جنسيات مختلفة ، وإذا قسنا ذلك العدد بعدد الرجال فإننا نجد أن عدد الرجال المقيدين بالجامعة في نفس هذه السنة كان ثلثمائة وسبعة عشر طالبا أي أن عدد الطالبات بالنسبة لعدد الطلبة كانت تزيد نسبته عن الربع وهذه نسبة ليست بالقليلة إذا نظرنا إليها في ضوء تقاليد ذلك العصر . وقد يدفعنا ذلك إلي أن نتساءل عن نوعية النساء المصريات اللاتي حضرن إلي الجامعة في ذلك الوقت للاستماع إلي محاضراتها الواقع أن المواظبات منهن علي حضور تلك المحاضرات كن من عقائل البيوتات المصرية منهن هدي شعراوي وصفية زغلول وفاطمة عمر شقيقة عبد العزيز باشا فهمي ، هذا بالاضافة إلي عقيلات وكريمات بعض الباشوات أمثال ارتين وقطاوي ورشدي وذو الفقار ولم تكن هؤلاء كل من التحقن بالجامعة مستمعات من بنات مصر بل كانت هناك معهن أميرات من الأسرة المالكة أمثال فاطمة فاضل وعين الحياة [(٢)] .

---

(١) الظاهر : العدد ١١٤٩ في ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ .
(٢) للتفاصيل انظر : تقويم جامعة القاهرة ٦٩ ـ ١٩٧٠ .

وقد وصفت احدي النساء حضور المستمعات إلي مبني الجامعة ، فقالت « تقاطرت العربات والسيارات مقلة كرائم السيدات وعقائل البيوتات ، وكانت وجهة هذا الجمع الرقيق من الجنس اللطيف سراي الجامعة المصرية فدخلن زرافات ووحدانا إلي البهو العظيم المعد لحاضرة السيدات [١].

هذا عن المستمعات من الطالبات أما عن المحاضرين فقد كان معظمهم من السيدات وذلك حتي لا تضطر المستمعات إلي وضع الحجاب داخل قاعة الدرس وقد حاضر في هذا القسم النسائي نبوية موسي ناظرة المعلمات بالمنصورة وتركزت محاضراتها في مجال تاريخ مصر الحديث وما يسود العالم من علوم عصرية ولبيبة هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق وقد تحدثت عن التربية والأخلاق وأثرهما في حياة الأمم وطالبت بايجاد الوسائل اللازمة لتحسين التربية في المدارس وتعليم الفتيات قوانين الصحة وقواعد الآداب الصحيحة حتي إذا أصبحن أمهات أدركن ما عليهن من خطر الواجبات [٢].

وحاضرت رحمة صروف في شئون التدبير المنزلي ، وحاضرت ملك حفني ناصف (باحثة البادية) في حقوق المرأة وواجباتها وموقف الاسلام من ذلك ، كما حاضرت في موضوعات تدور حول « المقارنة بين المرأتين المصرية والغربية وعاداتهما » وكانت تلقي علي مستمعيها النصائح وتبين للحاضرات سيء العادات ومضار الخرافات ومن ذلك ما ذكرته من أن المرأة الغربية تقوم بتغذية طفلها غذاء حقيقيا سريع الهضم . وتتحفظ عليه من موجات البرد والحر نجد المصرية تطعمه أثقل الغذاء وتبادر باعطائه اللحم وما يتعذر هضمه فيصاب بالاسهال والنزلات المعوية ، ولا تكترث لنظافة جسده لئلا يحسده أحد ، وإذا مرض تم علاجه بالتعاويذ والتمائم ، كما تحدثت عن الزار فقالت أنه أبو الخرافات

---

(١) الجريدة في ١٧ ابريل ١٩١٠ تحت عنوان « في الجامعة المصرية » .

(٢) مجلة فتاة الشرق : القاهرة ١٩١٠ - ١٩١١ ، ص ١٦٩ .

ومفسد البيوت ، وأنها لاتدري لماذا اختارتنا العفاريت مسكنا لها ، وتساءلت لماذا لم نلجأ إلي ارسطو وابن رشد وفيثاغورث وغيرهم بدلا من أن نلجأ إلي الشيخة رمانة وسعيفة ويوسف مرقع وغيرهم ممن لا يطلبون إلا الخلاخيل والمصوغات وأوضحت كذلك أن كثيرات من المصريات ادعين ركوب العفاريت اياهن ، ولما ضربهن رجالهن بسبب ذلك لم تعد اليهن العفاريت ولم يطلبن الزار (١) .

واشترك في إلقاء هذه المحاضرات أيضا بعض الأجنبيات مثل الآنسة كوفرور المدرسة بمدرسة راسين بباريس واقتصرت في محاضراتها علي علم النفس والأخلاق كما كان يلقي بعض الأطباء من المصريين والأوربيين محاضرات في حفظ الصحة والعناية بالأطفال (٢) .

ولم يقتصر نظام الدراسة بالقسم النسائي علي ذلك بل أخذ يتطور بتطور نظام الجامعة وبرامج التدريس فيها ففي عام ١٩١٢ أصبحت الدراسة بهذا القسم تشتمل علي محاضرات في التربية وعادات المصريين وتأثير الاسلام فيها ودولة المماليك ، وحروب فرنسا ، وأشهر النساء في التاريخ ، وعلم التدبير المنزلي والتدابير الصحية واختيار المنزل وأثاثه والحياة الزوجية وسعادة الأسرة والآداب المنزلية والأخلاق .

وعند مقارنتنا لهذا البرنامج ببرنامج التدريس الذي سبقه يتضح أن كلا من البرنامجين ركز علي الاهتمام بمواد تهم حياة المرأة الزوجية والمنزلية والأسرية أكثر من غيرها ، وربما كان يرجع هذا إلي أنه لم يكن يتطرق إلي ذهن أحد في ذلك الوقت قيام المرأة المصرية بالعمل بالمصالح كالرجال بل يقتصر دورها علي تدبير شئون المنزل ، وتهذيب الأولاد .

وعلي الرغم من اقبال بعض السيدات والآنسات على حضور هذه

(١) الجريدة : العدد ٩٤٤ في ١٨ ابريل ١٩١٠ .
(٢) الجامعة المصرية : تقرير مجلس الادارة في ١٥ مارس ١٩١١ ، ص ١٢ .

الدراسات في الجامعة فإن الرجال المتمسكين بالتقاليد منعوا زوجاتهم وأقاربهم من حضور هذه المحاضرات ويتضح ذلك من مناشدة بعض النساء علي صفحات الجرائد دون أن يذكرن أسماءهن الرجال ألا يمنعوا زوجاتهم واخواتهم وبناتهم من حضور المحاضرات بالجامعة (١) .

والجدير بالذكر أن إنشاء القسم النسائي بالجامعة قد أثار ثائرة بعض المحافظين فبالرغم من أن معظم المحاضرات كانت تلقيها نساء ، وكانت تتركز علي التربية المنزلية والحياة الأسرية فقد تجمع بعض الرجال أمام الجامعة للتعرض للنساء ومنعهن من الدخول لأن ذلك سيؤدي من وجهة نظرهم إلي خروجهن علي الآداب ، ويرفع عنهن صفة العفاف التي تتحلي بها كل قابعة بالمنزل ، وعندما أرسل عبد العزيز فهمي سكرتير الجامعة خطابات إلي نساء الطبقة الواعية يدعوهن للحضور اعتبر بعض الغيورين علي الأخلاق العامة وجود أسماء نسائية علي أظرف الخطابات ، فيراها رجل البريد بمثابة عار يلحق بسمعتهن ومن الفضائح الكبري التي لا يمحوها إلا الدم ، فأرسلوا خطابات تهديد بالقتل إلي عبد العزيز فهمي إذا لم يكف عن هذا العمل (٢) .

وعلي كل حال فإنه نتيجة لحضور بعض النساء المحاضرات في الجامعة حدثت مناظرات فكرية علي صفحات الجرائد بين معارضي تعليم المرأة ومؤيديه وتصارعت الأفكار بينهما فذكر المعارضون أن البلاد في حاجة إلي أمرأة تحمل ولدها علي كتفها لا أن تصدر الأوامر بقلمها وتدير الشئون العامة في الدواوين .

وأنها من يوم أن تولد إلي يوم أن تموت تنتقل من رعاية رجل إلي رعاية آخر لأن الرجال قوامون علي النساء شرعا كما صور بعض هؤلاء

---

(١) وزارة التعليم العالي : المرأة المصرية في التعليم العالي ١٩٧٥ ، ص ١٩ .

(٢) اجلال خليفة : الحركة النسائية الحديثة ، قصة المرأة العربية علي أرض مصر ، ص ٨٤ .

للمرأة جمال خدرها وضرورة الاستقرار فيه ورأي بعضهم الآخر أن سبب شقاء الجنس البشري حواء التي أغوت آدم (١) ، ولم تقتصر معارضة تعليم المرأة علي الكتاب بل عارضه أيضا أمير الشعراء فقد شبه أحمد شوقي المرأة المصرية بالطير من حيث ضعفها وتقيدها بمشيئة الرجل ، وأنه يجب علي النساء التمسك بالحجاب صونا لعفافهن وذلك في قصيدته الموسومة بين الحجاب والسفور فأوضح لهن في شخص عصفور الكناريا أنهن محجوبات منحبسات لنفاستهن والخوف عليهن من عاديات الخارج وضرب لهن الأمثال للتحريض علي الخضوع للرجل فقال :

صـــــداح يا ملك الكنار ويا أمـــيـــــر البلبـــل
حـــــرصي عليك هـــوي ومن يحـــرز ثمـــينا يبـــخـــل
شـــهـــد الحـــيـــاة مـــشـــوبة بالـــرق مـــــثـــل الحنظل
ان طـــرت عـــن كـــنـــــفـــي وقعت علي النسور مثل الجهل (٢)

وقد ردت احدي النساء علي هذه القصيدة معاتبة أمير الشعراء فقالت حكمت عليَّ أيها الشاعر بالأسر ونصحتني بالصبر ولم تدر أني فقدت كل صبر في حبسك اياي بدون داع فلم يعد لي شعور ولا إدراك بعد أن اغتصب مني حقي الطبيعي الذي دونه قتل النفس وازهاق الأرواح أيها الشاعر نسبت حالتي هذه إلي الطبيعة ، وما هي إلا نتائج حبك لأسري . أسرتني لأحررك ، أحزنتني لأفرحك . أناشدك الحق هل سمعت نحيبي داخل القفص وهل راقك منظري مكبلا بتلك السلاسل الحديدية (٣) .

وعلي كل حال فإن أمر مهاجمة سفور المرأة لم يقتصر علي الرجال بل أيد ذلك بعض النساء حتي اللائي أصبح لهن بعد ذلك شأن

---

(١) صحيفة العفاف : ابريل ١٩٢١ وديسمبر ١٩٢٢ .
(٢) أحمد شوقي : الشوقيات جـ ١ ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٢١٤ – ٢١٦ .
(٣) الجريدة : العدد ٩٨٥ في ٦ يونيو ١٩١٠ .

في مجال التعليم الجامعي ومن هؤلاء الدكتورة عائشة عبد الرحمن فقد ذكرت في بداية عهدها بالكتابة عن انطباعاتها عن نساء القاهرة عندما رأتهن لأول مرة في مقال تخيلت فيه أنها تخاطب صديقة لها فتقول « ستذهبين إلي القاهرة وتدخلين في دنيا جديدة وتشعرين بحال غريبة فتثور في نفسك ثورات كامنة لا عهد لك بها إذ تجدين الفتيات عاريات إلا ما يستر عوراتهن . . . كأنهن بين جدران مخادعهن أو من وراء ستار » .

أما مؤيدو تعليم المرأة فقد ذكروا أن انحطاط المرأة المصرية يعتبر دليلا علي انحطاط الرجل ، وأن المرأة خلقت مساوية للرجل في كل شيء وأنه يجب أن تنال من الحقوق ما يناله الرجال تماما .

وعلي كل حال فقد أدي احتجاج المعارضين لحركة التجديد وكانوا في ذلك الوقت قوة لا يستهان بها ، إلي ايقاف التدريس بالفرع النسائي بالجامعة خلال العام الدراسي ١٩١٢ - ١٩١٣ (١) ظل الحال علي هذا المنوال فترة طالت إلي ما بعد أن أصبحت الجامعة المصرية تابعة للحكومة فعلي الرغم من حصول بعض الفتيات علي البكالوريا التي تؤهلهن للالتحاق بالجامعة فإن الطريق كان شائكا وأبواب الجامعة كانت مغلقة في وجوههن ولولا مساندة بعض قادة الفكر من الرجال في ذلك الوقت أمثال أحمد لطفي السيد وطه حسين لما تحققت للمرأة فرصة التعليم الجامعي وتفاصيل ذلك أن بعض الفتيات لجأن إلي لطفي السيد مدير الجامعة يطلبن مساواتهن بالرجال في التعليم الجامعي ، وأن بعض عمداء الكليات وأساتذتها طلبوا أن تقبل الفتيات الحائزات علي البكالوريا في كلياتهم ، وكان طه حسين هو أول من عرض علي لطفي السيد قبول الطالبات في الجامعة ، وحين سأله لطفي السيد هل قانون الجامعة يمنع دخول البنات أجابه بأن القانون يقول ان الجامعة للمصريين ولم يحدد النوع . يضاف إلي ذلك أن بعض الصحف

(١) الجامعة المصرية : تقرير مجلس الادارة في ٢٩ ابريل ١٩١٣ ، ص ١٣ .

طالبت بضرورة أن يشمل التعليم الجامعي الفتيات ولكن الموقف لم يكن سهلا فقد كانت هذه المسألة شائكة خصوصا وأن أنصار هذا الرأي بالنسبة للرأي العام ككل كانوا قلة وكان الأمر يستلزم التريث والتزام التكتم وعدم مناقشته أو عرضه علي الرأي العام حتي لا يثور المتزمتون ويتعقد الموقف ، وفي غفلة من هؤلاء وضعت الجامعة الرأي العام والحكومة أمام الأمر الواقع عندما فتحت كلية الآداب أبوابها للطالبات ودخلتها أربعة هن سهير القلماوي وفاطمة سالم سيف ، وفاطمة فهمي خليل ، وزهيره عبد العزيز .

ويتضح ذلك فيما كتبه لطفي السيد في مذكراته إذ يقول لا أخفي أننا قبلنا الطالبات أعضاء في الأسرة الجامعية في غفلة من الذين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشباب باخواتهن في الدرس [١] .

وعلي كل حال فإن هذا الاجراء كان بمثابة ثورة فكرية وتعليمية أحدثت ضجة شديدة في أوساط المحافظين ولكن سنة التطور الاجتماعي كانت فوق هذه الضجة التي كانت سحابة صيف لم تلبث أن ذهب بها الزمان وأصبحت في خبر كان .

فسارت كليات الحقوق والعلوم والطب - وكانت هذه الكليات التي تضمها الجامعة في ذلك الوقت - علي منوال كلية الآداب فوافقت كل منها علي قبول الطالبات فدخلت الحقوق الطالبة نعيمة الأيوبي أما كلية العلوم فقد التحقت بها ثمانية طالبات منهن نفيسة سماحة وعايدة انطون والتحقت بكلية الطب أربع طالبات هن نفيسة محمد ، وفاطمة حسن ، وزينب ابراهيم ، وحكمت البدري ومع أن التحاق الطالبات بهذه الكليات كان أمرا طبيعيا إلا أنه أثار الكثير من النقاش والجدل داخل الجامعة وخارجها وقد فقدت المرأة معضديها داخل الجامعة نتيجة لاقالة الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب في عهد وزارة صدقي [٢] ثم تقديم لطفي السيد

(١) أحمد لطفي السيد : قصة حياتي ، القاهرة ، كتاب الهلال ، مايو ١٩٨٢ ،ص ١٨٣.
(٢) للتفاصيل أنظر كتابنا : ط حسين والجامعة المصرية .

استقالته من منصبه كمدير للجامعة عام ١٩٣٢ احتجاجا علي تدخل السلطات في شئون الجامعة بنقلها طه حسين إلي وظيفة خارج الجامعة علي غير ارادتها وقد يعزي إلي ذلك تأخر دخول الفتيات للكليات الأخري بعض الوقت فقد ظلت كلية الهندسة والزراعة ممتنعين عن قبول الفتيات فترة وسارت علي هذا المنوال كلية التجارة ولكن لم تلبث اليقظة الزاحفة أن طغت علي الأفكار القديمة فغزت المرأة تلك الحصون التي كان يحتكرها الرجل ففتحت أبواب هذه الكليات للطالبات ، فدخلنها واستطعن أن يحصلن علي نتائج تبعث علي التفاؤل وتدريجيا ضمت كليات الجامعة الفتيات ، ولم يتأخر في ذلك سوي كلية دار العلوم التي لم تفتح أبوابها للفتيات إلا في العام الدراسي ١٩٥٣ - ١٩٥٤ أي بعد ضمها إلي جامعة القاهرة .

وإلي جانب اتاحة التعليم العالي للفتاة بجميع صوره وتخصصاته رؤي ضرورة توافر نوعية معينة من التعليم الجامعي تفي باحتياجات الأسر المحافظة التي لا ترغب في اختلاط بناتها مع الشبان ومن هنا أنشئت كلية البنات عام ١٩٥٠ وأصبحت احدي كليات جامعة عين شمس عام ١٩٥٦ وكانت قبلا معهد التربية للمعلمات وفي العام الدراسي ١٩٦٢ / ١٩٦٣ أنشئت كلية البنات الاسلامية جامعة الأزهر وبذلك دخلت المرأة مجالا جديدا من التعليم العالي والتعليم الديني [١] .

وأخذ عدد الطالبات اللائي يلتحقن بالجامعة في التزايد فبعد أن كان عددهن في عام ١٩٢٩ وهي السنة التي قدر لهن فيها السماح بدخول الجامعة سبعة عشر طالبة تجاوز الآن ١٣٨ ألف طالبة .

وبعد أن كان عدد الملتحقات بالجامعة في عام ١٩٢٩ ثمانية بكلية العلوم وأربعة بكلية الآداب ، وأربعة بكلية الطب وطالبة واحدة بكلية

(١) وزارة التعليم العالي : المرأة المصرية والتعليم العالي ، ص ٤٤ .

الحقــوق أصبح عددهن في كليات الآداب فقط حتي عام ١٩٧٩ ٢٤ ألف طالبة [(١)] .

وعن اختلاط الطالبات بالطلبة داخل الجامعة فقد تحاشت الطالبات في أول دخـولهن الجـامـعـة أي صلة تربطهن بـالطلبـة ، ودخلن قـاعـات المحاضرات مغطيات الرءوس وأمتنعن عن الاقتراب من الأماكن التي يتواجد فـيـهـا الطلاب وتجـاهلن التـحـيـات الموجـهـة إليـهـن ، ورفـضـن الاشـتـراك في مناقشة الأساتذة خلال الدرس ، وقد حاول الدكتور طه حسين أثناء عمادته لكلية الآداب تشجيع الاختلاط بين الطالبات والطلبة ففي الحفل الذي أقامته الكلية في نادي الجامعة بمناسبة النجاح الذي أحرزه مشروع القرش في فبراير ١٩٣٢ نشرت جريدة الأهرام صورة تظهر طلبة الكلية حول عميدهم طه حسين وقد جلست كل طالبة بجانب طالب [(٢)] مما أثار الرأي العـام وتوتر موقفه من الجامعة أكثر مما كان فحمل أحد أعضاء مجلس النواب حملة شديدة في البرلمان ضد د. طه حسين وموقفه من هذا الاختلاط وعلي كل حال فإن رهبة الطالبات من الاختلاط بزملائهم الطلاب لم تستمر طويلا ففي أول محنة تعرض لها استقلال الجامعة بفصل الدكتور طه حسين علي غير ارادته من الجامعة خرجت الطالبات من عزلتهن وثرن مع الثائرين ، وارتفعت أصـواتهن لأول مـرة تخطب وتحـمس وتدعـو إلي النضـال انقـاذا لاستـقلال الجـامعة من تلاعب الأهواء [(٣)] وكان اشـتـراكهن في المظاهرات دافعا لزيادة حماس الطلاب ، كما ظهرت لدي بعض الطالبات القدرة علي اقناع زملائهن الطلبة للعدول عن بعض المواقف ويكفي للتدليل علي ذلك أنه في أثناء الاضراب نادي عميد الحقوق الطالبة نعيمـة الأيوبي ودعاها إلي اقناع زملائها بوقف الاضراب والعمل علي اعادة النظام فعادت الأمور إلي نصابها .

---

(١) المركز القومـي للبحوث التربوية : المرأة والتعليم في جمهورية مصر العربية ، ص ٤٩ .
(٢) الأهرام : العدد ١٦٩٥٩ في ٢٣ فبراير ١٩٣٢ .
(٣) مضابط مجلس النواب : الجلسة التاسعة عشرة في ٧ مارس ١٩٣٢ ، ص ٢٥٨ .

وبدأت طالبات الجامعة يتطلعن إلي المزيد من الحرية فمارسن الألعاب الرياضية خصوصا لعبة التنس وبدأ ذلك في كلية الآداب عندما ظهرت طالبة في ملعب التنس .

ورغم ثورة الرأي العام علي هذه الحرية التي اتيحت لفتاة الجامعة ، ورغم الاحتجاجات الشديدة التي وصل مداها إلي القصر الملكي بخصوص ممارسة الطالبات للألعاب الرياضية في الجامعة فقد استمرت المسيرة النسائية نحو المزيد من الحرية فأخذت ملاعب الجامعة تكتظ بالطالبات من مختلف الكليات ، ولم يقتصر ذلك علي التنس بل تطرق إلي كرة السلة وغيرها من الألعاب .

ورغم كل ذلك فقد كانت بعض الطالبات يحسبن ألف حساب لمعارضي تحررهن داخل الجامعة ويتضح ذلك في تأخر دخولهن اتحاد الطلاب بالجامعة ، فالبرغم من أن هذا الاتحاد منح حق العضوية للطالبات إلا أنهن لم يرشحن أنفسهن في عام ١٩٣١ رغم تشجيع البعض لهن ، وقد أعربت احدي الطالبات عن سبب ذلك بقولها « اني أجد في ذلك مجازفة كبري لما تكنه قلوب المعارضين من تهكم وسخرية »[١] .

ولكن هذه الرهبة لم تستمر طويلا فقد شاركت الطالبات الطلاب في أنشطتهم الاجتماعية فعندما انشئت جماعة النهضة الاجتماعية في كلية العلوم عام ١٩٣٧ بهدف جمع التبرعات من الطلاب الأغنياء وتوزيعها علي زملائهم الفقراء وأقيمت سوق خيرية في الجامعة من أجل هذا الغرض قامت الطالبات بعرض أشغال من صنعهن في هذه السوق وساهمن في جمع التبرعات من الآخرين .

يضاف إلي ذلك قيام الفتيات بالاشتراك في المناظرات والمحاضرات التي أقيمت داخل وخارج الجامعة .

(١) صحيفة الجامعة المصرية : العدد الرابع ابريل ١٩٣١ ، ص ٥٦ - ٥٨ .

وعلي كل حال فقد أدي دخول الفتاة المصرية الجامعة إلي اثبات وجودها ، وبانها لا تقل قدرة وكفاءة عن الفتاة الأوربية ، كما أنها لا تقل ذكاء ومقدرة عن الرجل .

وفي عام ١٩٣٣ تخرجت أول دفعة من طالبات الجامعة المصرية وكانت مكونة من نعيمة الأيوبي من كلية الحقوق وسهير القلماوي ، وفاطمة سالم ، وفاطمةخليل من كلية الآداب ولم يقتصر الأمر علي ذلك بل أن كلية الآداب ضمت ثلاثة منهن نواة لأعضاء هيئة التدريس بها وهن سهير القلماوي في اللغة العربية ودرية فهمي للانجليزية وفاطمة سالم للدراسات القديمة (١) .

وقد أثبتت خريجات الجامعة من الفتيات القدرة علي منافسة الرجال في الحصول علي الدرجات العالية وتولي المناصب الأكاديمية في الجامعة نفسها ، وإذا نظرنا إلي المكانة التي تحتلها المرأة في الجامعة حاليا يتضح أنها تشغل جميع المناصب الأكاديمية فيها علي اختلاف أنواعها ابتداء من وظيفة معيد إلي رئيس قسم وعميد .

ولم يقتصر الأمر علي ذلك بل واكبه ايفاد الفتيات المصريات في بعثات الي الخارج للتأهيل في التخصصات غير المتوافرة في الجامعات ، وكذلك التخصصات العالية التي تؤهلهن للتدريس في الجامعات الي جانب التأهيل اللغوي في اللغات الانجليزية والفرنسية لاعداد مدرسات وطنيات يحللن محل الأجنبيات .

وبعد أن أثبتت الفتاة الجامعية مقدرتها علي المساواة بالرجل كان عليها أن تواجه معركة أخري وهي الحصول علي وظيفة والخروج إلي معترك الحياة العملية ولكن بعض العائلات استنكرت ذلك ورأت أنه من الخير للفتاة الجامعية ألا تزج بنفسها في ميدان العمل من غير تسلح

(١) المقتطف : أول يناير ١٩٣٧ ، ص ٢٤ .

ولا استعداد وأنه من الأفضل بعد تخرجها الاستفادة بها بتزويجها لتكون نواة صالحة للبيت المصري الحديث خصوصا وأن مشاكل المتعلمين المتعطلين ستزداد سوءا إذا ما شاركت الفتاة الرجل في الحياة العامة [١] .

يضاف إلي ذلك أن المعارضين لسفور المرأة وخروجها إلي مجال العمل قاموا بحملة شديدة لوقف تيار حصول المرأة علي وظيفة واتبع بعضهم في ذلك الاسلوب اللاذع الذي يستنهض همم الرجال ويدفعهم إلي معارضة تشغيل النساء ونقتطف في هذا المقام بعض ما جاء في مجلة كل شيء والدنيا في يوليو ١٩٣٢ فأعلا توقيع فضولي ذكرت هذه الأبيات :

حلقت رجالكم اللحي ... لما علا أمر النساء
والآن ترتزق النساء ... وتأكلون بلا عناء
فليلحق الموسي الشوارب ... انها منكم براء [٢]

وبالرغم من كل ذلك فقد كان هناك رأي آخر يري أنه لا مانع من اشتغال الفتاة بعد تخرجها لتجاهد بجانب الرجل فيستفيد منها المجتمع أكثر من ركونها إلي الحياة المنزلية لأنه لا معني أن تعد الفتاة للحياة ، ثم تحرم من العمل بعد هذا الاعداد .

وتحفظ البعض نحو هذا الموضوع فرأي توجيه الفتيات بعد تخرجهن إلي الأعمال التي تتناسب مع قدراتهن والتي يختلفن فيها عن الرجال . وأخيرا رجحت كفة المؤيدين لدخول المرأة مجال العمل فعندما رغبت نعيمة الأيوبي أولي خريجات كلية الحقوق في العمل بالمحاماة ترددت لجنة قبول المحامين في الموافقة علي قيد اسمها في أول الأمر ، ثم انتهي الخلاف بين أعضائها بانتصار جبهة المؤيدين لقبولها وعلي كل حال فالملاحظ أن الذي

---

(١) الدستور : العدد ٣٩٣ في ١٦ ابريل ١٩٣٩ .
(٢) كل شيء والدنيا : عدد ٩ يوليو ١٩٣٢ .

دافع عن المرأة المصرية وتعليمها الجامعي ثم خروجها إلي مجال العمل ومساواتها بالرجل كان الرجال لا النساء أصحاب الشأن في هذا الموضوع ويبدو ذلك واضحا من الالتماسات التي قدمت الي القصر الملكي والتي يعرب فيها أصحابها عن استيائهم من المحاضرات التي يلقيها بعض الرجال مثل محمود عزمي أفندي والدكتور ميخائيل فرج ومحمد توفيق دياب ، داخل الحرم الجامعي ، ودعوتهم للمساواة بين المرأة والرجل وعلي كل حال فإنه بمضي الوقت دخلت المرأة مجال العمل ، وعملت في جميع الوظائف العامة وأصبحنا نسمع عن أسماء مصريات برزن في كافة ميادين الحياة حتي وصلن إلي منصب الوزارة .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل خروج المرأة إلي مجال العمل بحكم حركة التطور والانتقال التي يمر بها المجتمع قد أثر علي شخصيتها الاجتماعية ايجابا أم سلبا ؟

لقد أظهرت دراسة نفسية اجتماعية حديثة أن خروج المرأة إلي مجال العمل برغم ما قد يترتب عليه من آثار سلبية علي أدائها كزوجة وكأم أي علي أدوارها التقليدية كأنثي فإنه قد أضاف أدوارا جديدة إلي أدوارها السابقة فأدي الي انضاج شخصيتها ، وزاد من ثقتها في نفسها واكسبها قدرا من المرونة وحسن التصرف في المواقف الاجتماعية التي تتعرض لها يضاف إلي ذلك أنه كلما زاد مستوي التعليم عند المرأة زادت قدرتها علي التخلص من الآثار السلبية لخروجها إلي العمل ومكنها من التخلص من آثار الصراع الذي ينشأ لديها نتيجة لأدوارها المتعددة خاصة في ظل ظروف مجتمع يمر بمرحلة انتقالية كمجتمعنا [1]

(١) د. محمد سلامة آدم : المرأة بين البيت والعمل ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٢ ، ص ٨٥ .

وهكذا أسهم التعليم الجامعي في اعداد المرأة المصرية اعدادا أتاح لها الخوض في كافة مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر والتجاوب مع حركة تجديد المجتمع والتفاعل معها ، ولكن يجب أن يعترف النساء بأن وراء ذلك كانت جهود بذلها بعض الرجال الذين وقفوا بجانب المرأة ودافعوا عن حقوقها .

وكذلك استطاعت الجامعة تحويل النصف الآخر من المجتمع إلي قوة مثقفة عاملة ومنتجة في كافة ميادين الحياة ، تساهم فيما يصبو إليه الوطن من مراقي التقدم بين الأمم الناهضة .

* * * * *



قاسم أمين



احمد لطفى السيد



حفنى ناصف



Hoda Sha'rawi





Nabaweia Moussa



الفتاة المصرية في الجامعة







الأميرة فاطمة إسماعيل قدمت المال والأرض والمجوهرات لترجمة حلم الجامعة المصرية



فاطمة اليوسف كنموذج لإبداع المرأة العربية في الفن والصحافة



يزخر التاريخ الإنساني على مدار عصوره بعطاء وافر من الإبداعات الرفيعه ، وإن كان يستحق الإعجاب من يبدع والظروف له مواتية فيساعده غنى أسرته واستقرارها على التعلم ، وعلى شق طريق المجد والشهرة . فأولى بالإعجاب من يبدع والظروف له معاكسة ، لا حسب ولا نسب ولا غنى ولا جاه بل يُتم وفقر وتشرد وشقاء ، وظروف قاهرة لا تمكن صاحبها من أن يجد له فرصة يثقف فيها نفسه أو يظهر قدراته بل تعاكسه الطبيعة فيكافحها ويتغلب عليها ثم يتجلى إبداعه في نهاية الأمر وتتعدد قدراته وخبراته في مجالات مختلفة . لقد كانت فاطمة اليوسف من النوع الثاني فكل الدلائل كانت تشير إلى أنها بعد فقدها لوالديها وهى صغيرة ستكون خادمة في أحد المنازل أو بائعة في إحدى المحال التجارية أو عاملة في مصنع أما أن تكون "سارة برنارد الشرق"[(1)] ملكة المسرح المتوجة[(2)] . أو صاحبة قلم أو مالكة لمؤسسة صحفية ضخمة كروز اليوسف فهذا كان لا يدور في خيال أحد حتى فاتح الرمل ، أو قارىء الفنجان أو الضارب بالحصى .

ألقى هذا البحث فى مؤتمر المرأه العربية والإبداع الذى عقده المجلس الأعلى للثقافه فى أكتوبر ٢٠٠٢

(١) الوطن : ٢٣ مارس ١٩١٦ .

(٢) محمد السيد شوشه : رواد ورائدات السينما المصرية

لقد انحصرت معايير الإبداع عند فاطمة اليوسف فيما يلى :

١- أنها كانت تتمتع بذكاء فطرى أخاذ مكنها من القدرة علـــى تعلـــم القراءة والكتابة دون أن تدخل مدرسة ، ودون أن يضطرها أحد إلى تعلمهـــا كما تعلمت الفرنسية عن طريق السماع حيث كان يلقنها لها الفنان عزيز عيد أثناء تعاملها معه على المسرح ، يضاف إلى ذلك أنه كان لديها القدرة على أن تفهم ما يدور حولها ، فبعد أن هيأ لها القدر أن تعيش في وسط فنى بعـــد أن اصطحبها "فرح أنطون"[١] اليه وهى طفلة لم تتجاوز الســـابعة مـــن عمرهـــا إستطاعت أن تلتقط من هذا الوسط كل ما استطاعت استيعابه حتى تمكنت من أن تضع قدمها على بداية الطريق ، فعملت في بداية حياتهـــا كومبـــارس[٢] وكانت أحيانا تترك مكانها في خشبة المسرح أثنـــاء التمثيـــل لتتســـلل إلـــى الكواليس وتنظر في الممثلين والممثلات وهم يروحون ويجيئون وتحـــاول أن تتعلم طريقتهم في الإلقاء وتنغيم الكلمات رغبة منها في أن تكون مـــثلهم[٣] ، وبذلك سارت في أولى خطواتها نحو الفن ، وهى ترسم في نفسها لوحات كان لها أكبر الأثر في حياتها الفنية والأدبية ، فتجاوبت مع كل هؤلاء في فـــنهم ، وأدركت بوعى أنها خلقت لهذا اللون من الحياة .

٢- إذا كان يتحتم على المبدع أن يكون موفقا في اختيار الآخر الـــذى يأخذ بيده نحو المجد فقد كان أمام هذه الفتاة الشابة أن تحكم بين عقلها وقلبها وأن تختار بين يوسف وهبى ابن البكوات وفارس أحلام أى فتاة ترغب فـــي الغنى والعيش في القصور وبين الفقر المتمثل في عزيز عيـــد ذلـــك الفنـــان القصير القامة المحدوب الظهر والمفلس دائما والذى كان يقتات قوتـــه يومـــا

---

(١) صاحب فرقة ومسرحية مشهورة في ذلك الوقت .

(٢) عبد التواب عبد الحى : عصير حياتى ص ٩٢ .

(٣) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ٢٣ .

... ولكن في قسمات وجهه الإخلاص للفن والعمل من أجله ، فحكمت عقلها واختارت عزيز عيد ذلك الأستاذ الذى كان يرضى بالفقر والجوع إلا أن يخرج رواية تمثيلية واحدة بطريقة لا يرضى عنها(١) • والذى كان الممولون وأصحاب الفرق يطلقون عليه "الرجل النحس" لأن مشروعاته الفنية كانت لا تدر عليهم الأرباح ولكنهم كانوا يعرفون في الوقت نفسه قدراته كأستاذ(٢) • فأولاها بالرعاية ، وصقلها بالرأى ، وأخلص لها وتبنى مواهبها ، وكان نموذجا يحتذى في العطاء وإنكار الذات والقدرة في تكوين نجمة جديدة منها تجيد الوقوف على المسرح(٣) • وإيصال الفن للجمهور وخلال ذلك أخذت فاطمة اليوسف تتبع أستاذها كظله لا تتحرك إلا بمشورته وتصغى دائما لآرائه وانتقاداته بكل حماس حتى نهلت من موارده الفنية •

٣- وإذا كان من أسباب ظهور إبداع المبدع وجود بيئة تهيئ له الفرصة لا أن تقتل روح الإبداع فيه فإن البيئة التى تواجدت فيها فاطمة اليوسف قد قدمت لها الفرصة الملائمة ، وعرفت قدرها وإمكاناتها وساعدتها على السير في طريق النجاح فبيئة الفنان عزيز عيد أزالت عنها ما أحاط بحياتها من الوحدة والألم وملأت نفسها بالثقة وبثت فيها الشجاعة حتى صنعت مجدها الفنى ، يضاف إلى ذلك أن البيئة المصرية في ذلك الوقت بما فيها من تأثيرات وتطورات كانت حبلى بالموهوبين مما ساعدها على إبراز مواهبها ، وأعطيت لها الفرصة لتعمل وتنتج بطاقاتها الكاملة • فكم من مبدع لم يأخذ فرصته لأنه ظهر في مكان وزمان لم يتح له الفرصة فيهما فماتت مواهبه

---

(١) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ١٦ •

(٢) نفسه ص ٤٤ •

(٣) أمير أبو الفتوح : إحسان عبد القدوس يتذكر ص ١٤ •

وقتلت عبقريته وكم من مبدع قدمت له البيئة الملائمة الفرصة وعرفت قدر، وإمكاناته فسار في طريق النجاح ٠

٤- وإذا كان يتحتم على المبدع الإصرار على الوصول إلى الهدف المراد تحقيقة والاستعداد الفكرى[1] ٠ وبذل كل الجهود لتذليل الصعاب التى تواجهه فقد بذلت فاطمة اليوسف كل جهودها للبروز في مهنة الفن والصحافة والتعمق في أسرارهما لا يدفعها في ذلك سوى الحرص البالغ على المستوى الرفيع والحماس الخالص لتقديم عصارة خبرتها ومهارتها فيهما حتى استطاعت أن تصنع مجدها ، وأن تمضى إلى غايتها صُعُدا فوق أشلاء المصاعب والمتاعب ، فوقفت على خشبة المسرح تعتصر الفن من دمها وأعصابها لتكون فنانة راسخة القدم والبطلة الأولى في المسرح والملكة المتوجة على عرشه[2] فقد برعت وأجادت واستطاعت أن تؤثر في قلوب الجماهير فأطلق عليها النقاد "سارة برنارد الشرق"[3] ٠

وإذا كان القلق على المستقبل من سمات المبدع فإنه بالرغم من الشهرة الواسعة ، وصعود فاطمة اليوسف إلى عرش الفن فقد دفعها قلقها على المستقبل ، وخشيتها أن تتراجع ولو خطوة واحدة إلى الوراء إلى التفكير في اعتزال المسرح خاصة وأنها لم تعد راضية عن أدوارها التى كان يكلفها بها يوسف وهبى ، والتى أحست من خلالها أن مجدها الفنى يختنق ، وأن جدران المسرح تهتز ، وأن الأرض تميد تحت أقدامها[4] ٠ مما جعلها تخرج محتفظة

---

(١) الكسندروا روشكا : الإبداع العام والخاص - ترجمة غسان عبد الحى ، ص ٣٣ ٠

(٢) محمد السيد شوشه : رواد ورائدات السينما المصرية ص ٣٨ ٠

(٣) كان ذلك اسم الممثلة الفرنسية نجمة "الكوميدى فرنسيز" التى كانت تعرض مسرحياتها بالفرنسية في مواسم الأوبرا المصرية ، وكانت شهرتها تملأ دنيا الفن في ذلك الوقت ٠ كامل زهيرى : مائة إمرأة وإمرأة ص ٧١ ٠

(٤) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ٧٧ ٠

بالشهرة التى وصلت إليها ، وأن تترك المسرح قبل أن يتركها ، وأن تختار الوقت المناسب للاعتزال وهى في قمة مجدها [١] .

٦- وإذا كانت الرغبة في إصلاح المعوج من الأمور من سمات المبدع الحقيقى فإن ولوج فاطمة اليوسف ميدان الصحافة كان دافعه إحساسها بأن الوسط الفنى في حاجة إلى مجلة فنية هادفه تساهم في النهوض بالحياة الفنية بلا إسفاف أو تجريح ، تقوم بالنقد الفنى السليم الذى يساهم في النهوض بالحياة الفنية ، ويقف في وجه المجاملات التى تعيش على حساب الفن كالنباتات الطفيلية فتهاجم من لا يدفع لها نقدا لاذعا ، وترفع من أسهم من يزودها بالهبات والأموال مما أساء إلى المسرح المصرى وإلى العاملين فيه ومن هنا برزت أمامها فكرة إصدار مجلة فنية . وعلى الرغم من المعوقات الكثيرة التى اعترضتها خاصة وأنها أنثى ، ولم يكن من حق المرأة أن تدخل في ميدان الحياة العامة في ذلك الوقت بل كان يجب عليها أن تضع الحجاب على وجهها فما بالنا باقتحامها ميدان الصحافة ، وفي أن تسمى مجلتها باسمها ، وأن تتحمل وحدها مسئولية إصدارها ، وأن تترأس صحيفة كل من يعمل فيها رجال . ومع ذلك وعلى الرغم من قسوة الموقف والحملات الهجومية التى تعرضت لها ، ودعوة المخلصين لها بالتريث في الأمر [٢] . فقد استطاعت أن تجتاز التجربة ، رغم قلة ما معها من مال وأن تخرج منها بدروس مستفادة وأن تصدر مجلة للفن الرفيع والأدب الراقى الذى كانت لا تعرفه سوق الصحافة في هذه الأيام فكانت لا تتعرض بالتجريح لأحد ولا تنال بالشتائم من إنسان حتى لو هاجمها بل تقف مرفوعة الرأس ترد على الهجوم بالحجج المنطقية ، وعلى الرغم من مطالبة البعض منها أن تبحث

---

(١) كامل زهيرى : مرجع سابق ص ٣٣٩ .

(٢) روز اليوسف : العدد الأول في ٢٦ أكتوبر ١٩٢٥ .

روز اليوسف عما يدور خلف الكواليس ، وداخل الأبواب الخلفية فإن فاطمة اليوسف أصرت على أن تحتفظ المجلة بكبرائها • وبالرغم من ضيق ذات يدها فإنها لم تطلب معونات مادية من أحد ، بل أدارت أمور مجلتها عن طريق دفاتر الاشتراكات التى طبعتها وساهم في شرائها هدى شعراوى وأم كلثوم[١] •

وعلى الرغم من مهاجمة عبد القادر المازنى لفكرة إنشاء هذه المجلة واعتبارها نزوة عابرة • فقد كان رد فاطمة اليوسف أن كل عمل مجيد في أوله يكون نزوة طارئه ثم يتحول إلى فكرة فإذا رسخت أصبحت يقينا •

وفي الحقيقة أن إصدار هذه المجلة لم يكن نزوة عابرة بل عزيمة إمرأة حديدية[٢] • أثبتت قدرتها على التصميم والإصرار والصبر ، والقدرة على استشعار المستقبل ، وتخيل الجديد والقادم والنظرة التى لا تقف عند حدود ، والإصرار والعزيمة المتقدة التى هيأتها للوصول إلى قمة النجاح فقد نالت موهبتها عن السير في ركاب الصحافة التقليدية ، وأخذت تبتكر أساليب جديدة • وكان من أهمها شخصية "المصرى أفندى" وكاريكاتير صاروخان وكانت تضم بين جنبات جريدتها أبرز الكتاب ، وأنضج الآراء •

٧- وإذا كان على المبدع أن يكون من أصحاب المواقف والمبادئ السامية والمدافع عن وطنه وقت المحن فقد وقفت فاطمة اليوسف في مجلتها بجانب السياسيين الذين ارتدوا رداء الوطنية والشرف وتخلت عن كل من خلع منهم ذلك الرداء فسعت إلى سعد زغلول الذى كانت شديدة الأعجاب بوطنيته[٣] • وكانت تسير على قدميها إلى المكان الذى كان يخطب فيه

---

(١) روز اليوسف : في ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥ •

(٢) كامل زهيرى : مائة إمرأة وإمرأة ص ٦٧ •

(٣) Gamal M, Ahmed : The Intellectual Origins of the Egyptian Nationalism, pp. 52-53

للاستماع إليه ، وكانت تقرأ تطورات الحركة الوطنية ، وتتحمس لكل مظاهرة تهتف بخروج الإنجليز والاستقلال التام ، وتثور ثائرتها لمحاولات الإنجليز النيل من كبرياء المصريين ، وتدافع عن الدستور ، وتتحدى كل السلطات : الانجليز ، والملك ، والأحزاب الذين تألبوا عليها ، وحاولوا هدمها وإغلاق صحيفتها[١] ٠ واعتقال كلماتها ، وفرض حظر التجول على أفكارها ٠ وإلى جانب ذلك كانت تضع القضية الوطنية أحد أهدافها الرئيسية داعية إلى توحيد الصفوف حول الهدف الأول وهو الاستقلال وليس الوصول إلى كرسى الحكم ، وأن يتجاهل الناس كونهم وفديون أو سعديون أو دستوريون أو مستقلون بل يكونوا مصريين فقط ٠ وعلى الرغم من اهتزاز الأرض من تحت قدميها فإنها لم تهتز ، وبالرغم من مصادرة أعداد مجلتها ، وتعطيل الحكومة لها مرات عدة فإنها كانت تقاوم هذا التحدى بإصرار وترفض أى تدخل من أى جهة في شئون مجلتها فكلما عطت الحكومة المجلة أصدرت مجلة أخرى باسم جديد[٢] ٠ وزاد من إصرارها تفكيرها في إصدار جريدة يومية بجانب الأسبوعية وكان لها ما أرادت وأصبح لها منذ عام ١٩٣٥ جريدة ومجلة فظهرت روز اليوسف كأقوى جريدة يومية وأقوى مجلة أسبوعية حيث كتب فيها عباس العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى ، ومحمد التابعى ومحمود عزمى وغيرهم من مشاهير الكتاب ، وإلى جانب ذلك فقد كانت فاطمة اليوسف أول سيدة تدخل السجن في قضية من قضايا الرأى في عمل لم يسبق له مثيل رافضة الخضوع لأسلوب القهر أو وسائل الإغراء المادى والأدبى ٠

---

(١) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ٣ ٠

(٢) من هذه الأسماء الصرخة والرقيب ٠

لقد ناصرت فاطمة اليوسف الوفد خاصة أيام سعد زغلول وتحملت من أجل ذلك العديد من ألوان الاضطهاد من الحكومات المعارضة له لقناعتها أنه يعمل لمصلحة البلاد ، وبصفته العدو الأول للإنجليز والمنادى بحقوق مصر في الجلاء والاستقلال ثم انقلبت عليه رغم وجود مصطفى النحاس على رأس الوزارة مما عرَّضها للعديد من المشاكل .

وفي روز اليوسف نادت فاطمة اليوسف بمقاطعة البضائع الإنجليزية ، وكانت شخصية المصرى أفندى هى الرمز الذى يعبر عن رجـل الشـارع المصرى الذى يظهر نفوره من مصافحة المحتل[1] . ويعد نجاح ثـورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ساندت مجلتها الثورة وأهدافها وعندما سـجن الـرئيس عبـد الناصر ابنها إحسان لخلافه معه في بداية الثورة لم تهتز بل كتبت إليه رسالة في ١١ مايو ١٩٥٣ تقول فيها "إنك في حاجة إلى الخلاف تماما كحاجتك إلى الاتحاد" [2] كما ذكّرته بأن الحرية هى "الرئة الوحيدة التى يتنفس بها المجتمع ويعيش .. والانسان لا يتنفس في وقت دون آخر ... إنه يتنفسَ حين يأكل وحين ينام وحين يحارب أيضا" .

وإلى جانب ذلك فلم يهتز لها جفن بل ردت الإهانة بمثلها وكان ذلك عن طريق تجاهل مجلتها الكتابة عن الثورة والثوار لفترة ، وعندما طلـب منهـا عبد الناصر مقابلته كان ردها "إن كان يطلبنى كحاكم فروز اليوسف لا تسعى إلى الحكام لا عن رغبة ولا عن رَهبة .. وإن كان يطلبنى لنتحدث حـديث الأصدقاء فعلى أصغر الأصدقاء سنا أن يسعى لأكبرهم" .

وإذا كان المبدع لا يعتز بشئ قدر اعتزازه بفنه وكرامته ، ولا يتغيـر بتغير الظروف والأحوال ، ولا يساير إلا ما هو مقتنع به فإن فاطمة اليوسف

---

(١) روز اليوسف في ٢٣ ديسمبر ١٩٣٥ .

(٢) أمير أبو الفتوح : مرجع سابق ص ١٩٥ .

كانت تتمسك دائما بمواقفها وآرائها رغم المخاطر ، فكانت لا تداهن ولا تتملق أحدا بل كان رأيها أن من يبنى مجده درجة درجة يجب ألا يفرط فيه ، ولا يترك نفسه يهبط السلم الذى صعده ، مهما كان الثمن باهظا ويكفى أن نذكر أن روز اليوسف في السنتين الثالثة والرابعة من عمرها من أكتوبر ١٩٢٧ إلى أكتوبر ١٩٢٩ صودر منها أكثر مما صدر ، فقد صدر منها ٤٢ عددا ، وصودر ٦٢ ، كما أن فاطمة اليوسف تعرضت لتحقيقات ورفع عليها قضايا ووقفت في ساحات المحاكم ، وكانت لها رحلات شبه يومية إلى مبنى النيابة(١) ، كما أنها أودعت السجن الذى لم يستقبل سيدة واحدة في قضايا الرأى في ذلك الوقت ٠

وهكذا وقفت فاطمة اليوسف بشجاعة يندر وجودها في العديد من الرجال أمام أعتى التحديات تتبنى الكلمة الشريفة التى تستهدف الدفاع عن الحقيقة مهما كانت التضحيات ٠

وظلت روز اليوسف كما بدأت مجلة تعتمد على النقد في الفن والسياسة وكان سلاحها المقال اللاذع والكاريكاتير كما كانت شخصية المصرى أفندى هى الرمز الذى يعبر عن رجل الشارع المصرى ٠ وكانت عشا طبيعيا للموهوبين الذين فتحت لهم فاطمة اليوسف بيتها لعقد الندوات الثقافية والسياسية التى اشترك فيها كبار رجال الأدب والسياسة والفن(٢) ٠

وهكذا كانت السنين الأولى من طفولة فاطمة اليوسف وصباها هى التى حددت ملامح شخصيتها وبينت ذكاءها ٠ فقد مشت الطريق كله على ساقيها حتى صعدت من أعماق السفح ، وبعد أن استوعبت وتفجرت فيها كوامن

---

(١) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ١٣٠ ٠

(٢) أميرة أبو الفتوح : مرجع سابق ص ١١ ٠

العبقرية ، وتربعت على القمة أفرزت فنا جميلا وفكـرا رائعـا ، وقضـايا صحفية وسياسية ساخنة لدرجة أن البعض لقبها بأبرز صحفية في عصـرها، كما خرَّجت جيلا من الكتاب والسياسيين الصحفيين الذين أرشدتهم ، ووجهت أقلامهم التى ساهمت في صياغة مستقبل مصر الحديثة الفكرى والسياسى .. وهكذا مثلت فاطمة اليوسف جيلا بأكمله ، وعانـت الكثيـر مـن المتاعـب والمصاعب لدرجة أن زُجَّ بها إلى السجن حتى تتزحزح عن مواقفها ، ومـع ذلك رفضت تبعية مجلتها لأى حزب من الأحزاب التى كانت تسيطر علـى الحياة السياسية في مصر في الأربعينيات مما جعل مجلة روز اليوسف منبرا يلتف حوله كافة القيادات الثورية في مصر في ذلك الحين . وظلت فاطمـة اليوسف شاهرة قلمها تدير مجلتها بجسارة حتى سلمت أمورها لابنها إحسـان عبد القدوس الذى دربته واطمأنت لقدرته على تولى مهام المجلة التى كونتها بدمها وأعصابها خلال سنين طويلة .

وأخيرا يمكن القول أنه يكفى هذه السيدة فخرا أنها بالرغم من كونها لم تكن تحمل شهادة مدرسية ، ولا مؤهلا علميا فإنها أخرجت جيلا كاملا مـن الكتاب السياسيين ، ومن الصحفيين ، وهى التى أرشدت أقلامهم ووجهـتهم ، وهى التى بثت فيهم الروح الصحفية بعد أن انتقتهم ورشحتهم لمستقبلهم وكان من هؤلاء مصطفى وعلى أمين ، وإحسان عبد القدوس ويكفيها فخـرا أنهـا جعلت من مجلة روز اليوسف التى كانت لا تملك شيئا من مقومات الصحف الكبيرة المجلة الأولى في ميدان السياسة .

القى هذا البحث فى مؤتمر المرأة العربية والإبداع الذى عقده المجلس الأعلى للثقافة فى أكتوبر ٢٠٠٢

* *

مكتبة البحث

١- المراجع العربية والمعربة :

- **الكسندرو روشكا :** الإبداع العام والخاص - ترجمة غسان عبد الحى - الكويت دار المعرفة ، ديسمبر ١٩٨٩ .
- **أميرة أبو الفتوح :** إحسان عبد القدوس يتذكر ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢ .
- **عبد التواب عبد الحى :** عصير حياتى ، القاهرة ، د.ت .
- **فاطمة اليوسف :** ذكريات ، القاهرة ، كتاب روز اليوسف ، العدد الأول ، ديسمبر ١٩٥٣ .
- **كامل زهيرى :** مائة امرأة وإمرأة ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ .
- **محمد السيد شوشه :** رواد ورائدات السينما المصرية ، القاهرة روز اليوسف ١٩٧٨ .

٢- المراجع الأجنبية :

- Gamal M, Ahmed : The Intellectual Origins of the Egyptian Nationalism .

٣- الدوريات :

روز اليوسف : أكتوبر ١٩٢٥ ، ديسمبر ١٩٣٥ ، أكتوبر ١٩٤٥ .

الوطن : مارس ١٩١٦ .

* * *

٧ – منيرة المهدية وأم كلثوم بين الأصالة والمعاصرة(*)

منيرة المهدية مطربة التخت الشرقاوية (١٨٨٨ – ١٩٦٥) التي تربعت على عرش الطرب لفترة بعد أن عرفها جمهور القاهرة مطربة وراقصة في مقاهي ومسارح الأزبكية، كانت أغانيها معبرة عن قيم مرحلة معينة تساير الذوق السائد وتتملق الغرائز التي عاشها المجتمع المصري في ذلك الوقت حيث كان المغنون والمستمعون يتبعون طريقة "الهنك والرنك"، و "يا سيدي آه"، و"أمان أمان" ويظل المطرب طوال الليل يتوجع ويتثنى ويتمدد والسميعة حوله يمارسون نفس الطقوس.(١)

وأم كلثوم الفلاحة المصرية إبنه "طماي الزهايرة" بمركز السنبلاوين دقهلية (١٩٠٤-١٩٧٥) التي ارتدت ملابس الفتيان ولبست البالطو والكوفيه والعقال على الطريقة البدوية، والتي لم تغني في البداية سوى الأغاني الدينية، وكانت الموالد بمثابة المدرسة الأولى التي تربت وترعرعت فيها، ثم صعدت إلى قمة المنافسة مع منيرة المهدية واستطاعت أن تترك مسافة غير قصيرة بينهما.

لماذا انطفأ نجم منيرة التي كانت كلمتها لدى كبار رجال الحكومة لا ترد، وكان الوزراء يتقربون إليها لدرجة قيل معها ان "حسين رشدي باشا" كان يعقد جلسات مجلس الوزراء في عوامتها ، وأن "عبد الخالق ثروت" "واسماعيل صدقي" كانا من عشاق صوتها، وبرز نجم الفلاحة المصرية الموهوبة التي كان لا حول لها ولا قوة سوى حنجرتها وابتعادها عن كل ما يسئ إلى فن الغناء؟ قد يقول البعض ان صوت أم كلثوم كان جميلا وهذه حقيقة، ولكن لا ينكر أحد أن صوت منيرة المهدية كان جميلا ايضا، فقد كانت سيدة الليالي الملاح بصوتها وبحته المثيرة وأغانيها التي كانت تدور حول ذوق السميعة ورغباتهم وتهز أوتار قلوبهم، ولكن الفرق بينهما أن صوت منيرة كان صوتا جميلا بلا فن، بينما كان صوت أم كلثوم صوتا مرهفا ذواقا، فقد كانت أم كلثوم تعيش النغم بكل وجدانها بل وكيانها خاصة وأنها كانت لا تغني اللحن فحسب بل كانت تعيشه وتحياه كما انها كانت تحترم فنها ونفسها وهذا هو الفرق بينها وبين منيرة، يضاف إلى ذلك أنها كانت شديدة الميل إلى التجديد، كما كان صوتها العبقري وأداؤها الذكي أول درجتين في صعود نجمها على نجم منيرة المهدية، وفيما يلي نعرض لكل منهما.

أولا: رحلة منيرة المهدية مع الغناء:

بدأت زكية حسن منصور التي أطلق عليها منيرة المهدية بعد أن احترفت فن الغناء بدأت رحلتها مع الطرب كمغنية في مقاهي الرقص وحفلات الأفراح ولم تبرز شهرتها إلا في عام ١٩١٥ بعد أن حضرت إلى القاهرة وغنت ورقصت في ملاهيها، ثم ازدادت هذه الشهرة بعد انضمامها لفرقة "عزيز عيد" الكوميدية لتغني أغاني "الشيخ سلامة حجازي"، وكان نجاحها يرتكز على جمالها الفتان فقد كانت – كما يذكر الدكتور عبد الحميد زكي– مضيئة الملامح، وضاءة الجبين، زرقاء العينين، كستنائية الشعر فارعة الجسم وهبها الله صوتا عذبا جميلا يهز أوتار القلوب، وقد تعاونت كل هذه الصفات في نجاحها، واجتذاب جمهور المستعمين نحوها خاصة وان بحه صوتها المثيرة وأغانيها المكشوفة التي تتعرض لما يدور وراء الستارة وفي المندرة كانت تساير متطلباتهم والتي كان أبرزها أغاني "عصفور أهشه وانكش له عشه" وعصفوري يامه عصفوري" و"ايه اللي جرى في المندرة شئ ما اعلموش ساعتها.. ساعة ما جرى أنا كنت لسه صغيرة" و "ارخي الستار اللي في ريحنا.. أحسن جيرانا تجرحنا" و"تعالى بقى يا شاطر نروح القناطر" و "هات القزازة واقعد لاعبني.. دا المزة طازه والحال عاجبني" وقد استطاعت منيرة المهدية بهذه الأغاني ان تشجي الجمهور وتطربه وتحوز رضاه واعجابه حتى اطلق عليها "سلطانه الطرب" والمطربة التي كان الذهب ينثر تحت قدميها، ثم ازداد

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة الشرطة في عدد نوفمبر ٢٠٠٦.

اسمها لمعانا بعد عملها بالمسرح خاصة بعد أن اتفق معها "عزيز عيد" لتقوم بالغناء فى لياليه التمثيلية بمسرح "برنتانيا"[٢]، وظلت منيرة تطرب جمهور المسرح بقصائد الشيخ سلامة حجازى وغيرها حتى كونت فرقة خاصة بها واستمر نجمها ساطعا حتى ظهرت أم كلثوم، وبدأ جمهور هواة الطرب ينصرف عن الاستماع إلى الغناء القديم، وتسيطر عليه روح الفن الجديد، وبينما تمكست منيرة بالمحافظة على أصول فنها الذى تشكلت أوتار حنجرتها عليه حتى جاءت أم كلثوم بحنجرة جديدة حافلة بكل ألوان التجديد مما أدى إلى لمعان اسمها بينما خفت بريق منيرة المهدية، وجعل عرش الغناء تهتز من تحتها رغم ما أحيط به من صولجان وأبهة خاصة وانها لم تستطع التخلص من عدوى الغناء العثمانى والغجرى[٣]، ومن جلسات الغناء فى الصالات والمسارح التى كان يغرق فيها المستمعون فى بحار الخمر والعربدة والكلمات غير اللائقة.

ثانيا: رحلة أم كلثوم مع الغناء:

بدأت رحلة أم كلثوم مع الغناء بداية متواضعة طافت خلالها مع أبيها "ابراهيم البلتاجى" المنشد فى الموالد وأفراح القرى، وهى ترتدى الشال والعقال وملابس الصبيان، وغنت شوامخ التراث الدينى الصوفى الذى قام والدها بتحفيظه إياها، ثم التقت الفنانة الناشئة أم كلثوم بالشيخ "أبو العلا محمد" احد أعمدة الغناء العربى والذى تصادف وأن سمعها فى القطار وهى تردد ألحانه دون أن تعرف انه موجود فى القطار، وبتوجيه منه وصلت أم كلثوم إلى القاهرة فى عام ١٩٢٢م وأخذت تغنى فى "مقهى سانتى" بالأزبكية وفى "مسرح البوسفور" فى ميدان باب الحديد بدون فرقة موسيقية كما غنت كذلك على مسرح حديقة الأزبكية وخلال هذه الفترة كان الشيخ "أبو العلا" بمثابة الأب الروحى والمدرسة الحقيقية التى تلقت فيها أم كلثوم فن غناء القصائد من شيخها الفنان الذى اكتشف حقيقة قدرتها وموهبتها، ونقل ذوقه الفنى إليها، ودرب حنجرتها على الألحان العربية الصميمة، وبدأ بتحفيظها قصائد "عبده الحامولى" ويدربها على ألحانه، ولم يكن "أبو العلا محمد" مجرد موسيقار فحسب بل كان صاحب رسالة هدفها تلخيص الغناء المصرى من رنة الغناء العثمانى والغجرى، وتبنى المواهب الجديدة التى تستطيع أن تقدم فنا رقيا يبعث الغناء العربى الأصيل من مرقده وينطلق بالموسيقى العربية فى آفاق جديدة تتخلص فيها من الاعتماد على الارتجال والتقليد، وتقوم على أسس علمية تستطيع من خلالها التعبير الصادق العميق عن روح الشعب المصرى، وعن همومه وأفراحه.[٤]

وقد وجد الشيخ أبو العلا فى أم كلثوم ضالته المنشودة بعد أن أحس بقيمة موهبتها وبصوتها الجميل القوى الذى يمتلك مساحات واسعة يخاطب بها القلب والعقل معا فأخذ على عاتقه تبنى هذه الموهبة، وعلى يد هذا الشيخ الفنان بدأت أم كلثوم أولى مراحلها الفنية فظهرت أمام الجمهور فى القاهرة ، وكان ذلك خلال حفل للكشافة المصرية فى عام ١٩٢٣ بأغنية "مولاى كتبت رحمة الناس عليك فضلا وكرما". ولم تكد تبدأ الغناء حتى ظهرت ملامح الرفض عليها بين المستمعين فتنهد أحدهم قائلا "كتب علينا الغلب يا أختى" وانفجرت موجه عالية من الضحك بين الناس مما أدى إلى بكاء المطربة الناشئة وتطرق اليأس إلى نفسها، ولكنها استطاعت أن تسترد ثقتها بنفسها بفضل أستاذها الشيخ أبو العلا الذى أوضح لها أن جمهور المستمعين مادة خام يمكن تطويعها تدريجيا.

وعلى الرغم من تمسك جمهور المستمعين بمطالبة ام كلثوم بغناء الأغانى السائدة، فقد رفضت ان تساير الموجة، وعبرت عن أصالة الفنان مدركة أن جوهر دوره هو أن يهذب الأذواق ويرتفع بمستوى جمهوره ويسمو بمشاعره.

وظل الشيخ أبو العلا بجانب أم كلثوم حتى وقفت على قدميها فغنت له عشرة الحان منها تحفته الغنائية "وحقك أنت المنى والطلب"[٥]، وتشاء الظروف ان يبتسم الحظ لأم كلثوم فيستمع إلى غنائها أسرتان كانتا بمثابة مفتاح بزوغ نجمها وهما أسرة آل عبد

الرازق وأسرة آل المهدى وهما من الأسر المعروفة برعايتها للعلم والفن. ومن خلال هاتان الأسرتان استطاعت أم كلثوم ان تتعرف على النخبة المثقفة فى مصر. وأثناء ذلك بدأ الناس يستمعون من خلال صوت أم كلثوم إلى غناء يتوافق كلامه مع لحنه.

وهكذا افتتحت أم كلثوم عهدا جديدا فى غناء القصيدة العربية، ونجحت أن تعود آذان الناس على أغنيات جديدة، وعلى ألحان جديدة كما ارتبط ظهورها بثروة قومية فى الموسيقى والطرب.(٦)

ثالثا: موقف منيرة المهدية من أم كلثوم:

بعد أن جاءت أم كلثوم من قرية "طماى الزهايرة" إلى القاهرة تاركة من خلفها عيدان الذرة وسنابل القمح وغطت شهرتها على مطربات عصرها أمثال منيرة المهدية، وتوحيدة، ونعيمة المصرى، وفتحية احمد وغيرها.

بدأت منيرة المهدية تعلن عليها الحرب، وتحاول الاساءة إليها خاصة بعد أن سمعت أن جماهير الطرب تحولوا إليها، فحاولت ان تعرف سر ذلك، حتى يمكنها مواجهته. وفى أحد الليالى ارتدت منيرة المهدية ملاية لف ووضعت على وجهها برقعا وذهبت إلى مسرح رمسيس حيث كانت تغنى أم كلثوم، واشترت منيرة تذكره فى أعلى التياترو وهى أرخص مقعد فى المسرح، وجلست تسمع ام كلثوم وسط تهليل المستمعين وهتافاتهم بحياتها. ولم تحتمل منيرة المهدية ان تحضر أكثر من الوصلة الأولى من غناء أم كلثوم فتركت المسرح غاضبة ساخطة، وعادت إلى عوامتها فى النيل وهى تكاد تجن غضبا وسخطا، وأخذت تفكر كيف تقضى على هذه الفلاحة التى أصبحت تهدد سلطانها وهداها تفكيرها إلى اللجوء للصحافة وشراء ذمم بعض كتابها، فأصبحت مجلة المسرح هى مجلة منيرة التى تهاجم أم كلثوم وتحاول الإساءة إليها فى عفتها وشرفها. (٧) مما دفع والدها إلى التفكير فى مغادرة القاهرة، والعودة بابنته إلى "طماى الزهايرة".

يضاف إلى ذلك أن أم كلثوم تعرضت للعديد من الافتراءات والاتهامات بهدف اشغالها عن فنها، فادعى رجل من ذوى الأملاك بقنا يدعى "عبد الستار الهلالى" زورا بأنها زوجته، ولم تعرف أم كلثوم بقصة هذا الزواج إلا عن طريق إعلان على يد محضر يطالبها فيه هذا الرجل أمام محكمة عابدين بالعودة إلى عصمته، ولما لم تتضح صحة دعواه نال نصيبه من العدالة وإلى جانب ذلك فإنه نتيجة لنجاحها الكبير تعرضت للكثير من المضايقات التلفونية التى كانت ترهق أعصابها، كما حاولت سلطانة الطرب منيرة المهدية الإطاحة بأم كلثوم التى اعتبرتها المنافسة الأولى لها، وكانت وسيلتها إلى ذلك محاولتها اصطناع نسخة أخرى من أم كلثوم فتنزل إحدى الفتيات مرتدية الكوفية والعقال على رأسها كما كانت تفعل أم كلثوم فى بداية حياتها الفنية، ويقف من خلفها التخت، وتردد بعض الأغانى الدينية والطقاطيق متحدية بذلك أم كلثوم الحقيقية. وإزاء ذلك اضطرت أم كلثوم إلى توزيع إعلانات باليد، نشرتها الصحف بعد ذلك تحذر جمهورها من المقلدة لها. كما كانت تكتب فى اعلانات حفلاتها أم كلثوم الأصلية على أن هذه الحرب لم تستمر طويلا فقد شقت أم كلثوم طريقها بخطى قوية دون أن تلتفت وراءها، واختفت الفتاة الأخرى خاصة وأن أم كلثوم استطاعت الصمود، ووقفت كالطود الشامخ تتكسر الأمواج تحت قدميها، وصمدت لكل الدعاوى لتتساقط كأوراق الخريف. لا تهتم إلا بفنها حتى انقشعت كل سحابات الصيف تحت حرارة فنها، وصوتها الجميل. وقبل ان تستسلم منيرة لفشلها النهائى حيال مواجهة صوت أم كلثوم طلبت من الملحن رياض القصبجى– الذى قدم لأم كلثوم فى أوائل العشرينيات أكثر ثلاثين لحنا كانت تعد أعلى صيحة فى التجديد الغنائى – أن يلحن لها أغنية على غرار أغانى أم كلثوم، واستجاب القصبجى لنداء منيرة، فلحن لها أغنية حافلة بالوان التجديد ولكنها – كما يقول كمال النجمى – لم تستطع أن تكسب شيئا من هذه الأغنية لأن صوتها العثمانى الغجرى ونطقها العاجز أفسدا الأغنية، وطمسا معالم التجديد فيها.

منيرة المهدية وأم كلثوم كشهود عيان لفترات مهمة من تاريخ مصر:

منيرة المهدية وام كلثوم من الشخصيات التى يمكن من خلالها معرفة الكثير عن حيـاة الشعب المصرى، خاصة وأن كل منهما تحمل فى حياتها قصة هذا الشعب، وقصة العصر الذى عاشته فقد عاصرت كل منهما عهد الخديو عباس الثانى والحماية البريطانية على مصر، وعهد السلطان فؤاد وتحويل مصر إلى ملكية، وعاصرت فترة ابنه فاروق كما عاصرت قيـام ثـورة يوليو، وتوقيع اتفاقية الجلاء، وتأميم قناة السويس والسد العالى والصحوة السياسية المصرية على المستويين العربى والعالمى والتى عبرت عنها أم كلثوم فى أغانيها، وعاشتها منيرة المهدية ولكن بعد انطفاء نجمها لذلك فان حياة كل منهما تذكرنا بجزء منهم من حياة المصريين، ومن تـاريخ مصر الحديث وبفترة المخاض التى عاشتها خلال ظهور الرواد الذين نجحوا فى العبور بمصر فى تحقيق حلم النهضة خلال القرن العشرين. فقد عاشت كل منهما عصر الكفاح الوطنى ضـد الانجليز فى كافة مناحيه السياسية والاقتصادية والفكرية فشهدا عصر مصطفى كامـل ومحمـد فريد وسعد زغلول وطلعت حرب ومصطفى عبد الرازق واحمد شوقى وطه حسين، والعقـاد، وتوفيق الحكيم، وغيرهم، وشاركا بفنهما فى تفجير طاقات الانسان المصرى، وكانتا أحد العوامل المؤثرة فى بعث الشعور الوطنى خاصة وأن مصر كانت تئن تحت وطأة الاحتلال الانجليـزى الذى فرض وصاياه على كل مقدرات المجتمع تقريبا، فغنت أم كلثوم لسعد زغلـول وانشـدت لفلسطين ولابطال الفالوجا ولأعياد مصر الوطنية جميعها[٨]، كما غنت منيـرة المهديـة لسـعد زغلول ولثورة ١٩١٩[٩]، يضاف إلى ذلك أن الحكومة التركية برئاسة كمال اتـاتورك دعتهـا للغناء، واستقبلت هناك استقبالا حافلا.

ومما سبق يتضح أن منيرة المهدية كانت ذات صوت لامع عريض يرتفـع بقـوة حيث تنفجر منه تلك البحة المشهورة التى زادته إثاره وتفردا، ومع ذلك فقد كانت محدودة المقدرة على الأداء أما أم كلثوم فقد استطاعت أن ترتقى بفن الغناء وفق تخطيط مدروس وثقافة عالية ونغمة صافية للحب والسعادة حتى لقبت بقيثاره السماء، وكوكب الشرق.

وهذا كان السبب فى أن منيرة المهدية انزعجت من ظهور ام كلثوم ولـم تصـمد أمامها، بل انسحبت من الميدان بعد منافسة حامية.[١٠]

الهوامش

١- زكريا هاشم: أم كلثوم تحفة العصر ومعجزة الدهر، القـاهرة، مطبعـة التقـدم ١٩٨٣، ص ٩.

٢- الأخبار فى ١٩١٥/٨/١٨ ومجلة المسرح فى ١٩٣٧/٥/٣٠.

٣- سيد على اسماعيل: مسيرة المسرح فى مصر ١٩٠٠- ١٩٣٥، جـــ١، فـرق المسرح الغنائى، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣، ص ٣٨٥.

٤- رجاء النقاش: لغز أم كلثوم، القاهرة، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠، ص ١٠٧.

٥- سهير عبد الفتاح: حياة صوت أم كلثوم، القـاهرة، مكتبـة الأسـرة ٢٠٠٢، ص ١٧-٢٠.

٦- كمال النجمى: الغناء المصرى، القاهرة، كتاب الهلال سبتمبر ١٩٦٦، ص ٥٥

٧- مجلة المسرح فى يناير ١٩٢٧، واشرف توفيق: اشهر قصص الغرام، القـاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٩٦، ص ١٠٠- ١٠٢.

٨- للتفاصيل انظر حنفى المحلاوى: سيدتان من مصر، خفايا الصراع بين ام كلثـوم وجيهان السادات، القاهرة، دار الشباب العربى، ١٩٩٤، ص ٢٨-٢٩.

٩- اشرف توفيق: أشهر قصص الغرام، ص ٩٨.

١٠- كمال النجمى: الغناء المصرى، ص ١٠٢.

٨ – أم كلثوم وتطور فن الغناء العربى

قدم التخت الشرقى بعد سيد درويش عبقريات غنائية فذه استطاعت تقديم الفن الراقى المتميز أمثال فاطمة البلتاجى[١] (١٨٩٩–١٩٧٥) الشهيرة بأم كلثوم[٢] صاحبة الموهبة الفذة ، وابنه الشعب الكادح من الفلاحين الفقراء والتى استطاعت بموهبتها المقترنة بثقافتها التى كونتها بجهدها وإصرارها ومثابرتها مواجهة الصعوبات التى وقفت في طريقها [٣] . وتمكنت بجمال صوتها ، وروعة أدائها ، وبذكائها في إختيار كلمات وألحان أغانيها وبقوة شخصيتها من أن تستولى على قلوب معظم المتحدثين بالعربية سواء في العالم العربى أو في غيره كما أسهم صوت أم كلثوم بمساحته الخصبة ، ومقاماته المصقولة ، وذبذباته السحرية ونبراته الوضيئه التى يتمثل فيها الجمال كله في تكوين أساليب جديدة في التلحين العربى أتاح للملحنين أن يجوبوا آفاقا جديدة ما كانت تتاح لهم لولا وجود هذا الصوت الذى غير وجه الغناء في مصر وفيما يلى نعرض لذلك .

رحلة أم كلثوم مع الغناء :

أم كلثوم من الشخصيات التى يمكن من خلالها معرفة الكثير عن حياة الشعب المصرى ، خاصة وأنها تحمل في حياتها قصة هذا الشعب الذى خرجت منه ، وقصة العصر الذى عاشت فيه فقد عاصرت عهد السلطان فؤاد وتحويل مصر إلى ملكية وعاصرت فترة حكم ابنه فاروق كما عاصرت قيام الثورة وتوقيع اتفاقية الجلاء وتأميم قناة السويس والسد العالى ، والصحوة السياسية المصرية على المستويين العربى والعالمى والذى عبرت عنها في أغانيها لذلك فإن قصة حياتها لا تعنى حياة فنانة مطربة موهوبة

(١) ولدت في ٣٠ ديسمبر ١٨٩٩ في قرية طماى "الزهايرة" التابعة لمركز السنبلاوين دقهلية ، وارتوت علم النغم من نبع الشيخ أبو العلا محمد وارتفع صيتها عندما انتقلت إلى القاهرة في عام ١٩٢٢ ، وكان رحيلها في الثالث من فبراير ١٩٧٥ .

(٢) الكلثوم في بعض معانيه اللغوية الراية الحريرية التى يرفعها الجندى فوق رأسه .

(٣) لم تدخل أم كلثوم مدرسة ولا جامعة ، ولم تتعلم سوى فترة قليلة في الكتاب تعليما بسيطا لا يتجاوز معرفة القراءة والكتابة ، ولكنها بذلت جهودا ذاتية لتثقيف نفسها ثقافة عالية ، وتمكنت من ذلك حتى أصبحت سيدة مثقفة ، لغتها العربية ممتازة قراءة وكتابة ، واستطاعت أن تحفر لنفسها هرما شامخا بين العظماء .

فحسب بل تذكرنا بجزء مهم من حياة المصريين ، ومن تاريخ مصر الحديث ، وبفترة المخاض التى عاشتها خلال ظهور الرواد الذين نجحوا في العبور بمصر في تحقيق حلم النهضة خلال القرن العشرين[1] ، وتركيز الجهود والإمكانات من أجل الارتقاء ، والخروج من دائرة التخلف والسلبيات التى عاشتها مصر في فترة الاحتلال البريطانى ، والمحاولات المستمرة للتخلص منه ونفض غباره عنها ٠ وكانت أم كلثوم من أولى الفنانات المصريات اللاتى فرضن احترامهن الفنى والاجتماعى على مختلف طبقات المجتمع المصرى ٠

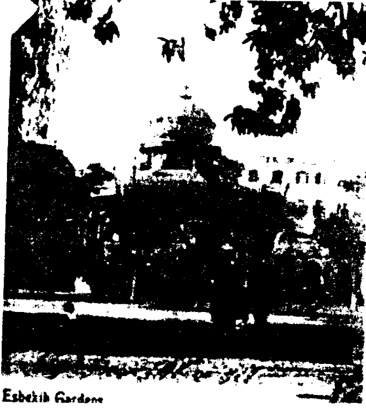
وقد بدأت رحلة أم كلثوم مع الغناء بداية متواضعة طافت خلالها مع أبيها إبراهيم البلتاجى المنشد في الموالد وأفراح القرى ومع أخيها في قرى السنبلاوين ، وبعض أنحاء الريف المصرى طوافا شاقا استغرق بضع سنوات من طفولتها وصباها المبكر الذى ارتدت خلاله الشال والعقال وملابس الصبيان ، وغنت شوامخ التراث الدينى الصوفى التى قام والدها بتحفيظها أياه ٠ وقد أتيح لأم كلثوم وهى في نحو السادسة عشرة من عمرها أن تغنى لأول مرة في مكان قريب من القاهرة ، إذ دعيت مع والدها وشقيقها لإحياء ليلة المولد بإلقاء بعض التواشيح الدينية والإنشاد الدينى في دار أحد عليه القوم في المجتمع القاهرى بضاحية حلوان ، وكان من الممكن أن تستمر حياة أم كلثوم الفنية كذلك لولا أن القدر وضع في طريقها من أتاح لها رسم ملامح المنعطف الكبير في حياتها ٠ فقد إلتقت الفنانة الناشئة أم كلثوم بالشيخ أبو العلا محمد [2] الذى تصادف أن سمعها في القطار وهى تردد ألحانه دون أن تعرف أنه موجود في القطار ، ومن يومها توثقت العلاقة بينهما ، وبتوجيه منه وصلت أم كلثوم إلى القاهرة في عام ١٩٢٢م ، وأخذت تغنى في "مقهى سانتى" بالأزبكية وفى "مسرح البوسفور" في ميدان باب الحديد بدون فرقة

---

(١) عاشت أم كلثوم عصر طلعت حرب وسعد زغلول ومصطفى عبد الرازق وأحمد شوقى وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وغيرهم ٠

(٢) ولد في بلدة بنى عدى بمديرية أسيوط في عام ١٨٧٨ ، وتعلم في الأزهر ، وتحول إلى فن الغناء ، وكان متأثرا بطريقة عبده الحامولى في الغناء وبأسلوبه في التلحين ، وظهر ذلك جليا خلال تلحينه لأم كلثوم ٠ قام بتلحين عيون الشعر الرفيع ، كما لحن القصائد الصوفية ، وقد ارتبطت به أم كلثوم ارتباط التلميذ بالأستاذ ٠ وظل الشيخ أبو العلا من أعمدة الغناء العربى حتى وافاه الأجل في الخامس من يناير ١٩٢٧ ٠

حديقة الأزبكية فى القرن ١٩



Esbekih Gardens





أم كلثوم أثناء إحدى بروفات أغنياتها مع فرقتها الموسيقية



موسيقية كما غنت كذلك على مسرح حديقة الأزبكية ، وخلال هذه الفترة كان الشيخ أبــو العلا بمثابة الأب الروحى والمدرسة الحقيقية التى تلقت فيها أم كلثوم فن غناء القصائد من شيخها الفنان الذى اكتشف حقيقة قدرتها وموهبتها ، ونقل ذوقه الفنى إليها ودرب حنجرتها على الألحان العربية الصميمة ، وبدأ بتحفيظها قصائد عبده الحامولى ، ويــدربها علـــى ألحانه ولم يكن "أبو العلا محمد" مجرد موسيقار فحسب بل كان صاحب رســالة هــدفها تخليص الغناء المصرى من رنة الغناء العثمانى والغجرى ، وتبنى المواهب الجديدة التى تستطيع أن تقدم فنا راقيا يبعث الغناء العربى الأصيل من مرقــده وينطلــق بالموســيقى العربية في آفاق جديدة تتخلص فيها من الاعتماد على الارتجال والتقليد ، وتقــوم علـــى أسس علمية تستطيع من خلالها التعبير الصادق العميق عن روح الشعب المصرى وعــن همومه وأفراحه[١] ٠

وقد وجد الشيخ أبو العلا في أم كلثوم ضالته المنشودة بعد أن أحس بقيمــة موهبتهــا وبصوتها الجميل القوى الذى يمتلك مساحات واسعة يخاطب بها القلب والعقل معا فأخــذ على عاتقه أن يتبنى هذه الموهبة ، وأن يحطيها بكل الظروف المناسبة ليقدم من خلالهــا فنه الراقى المتميز فتولى صوت أم كلثوم بالتدريب واستطاع صقله إلى أعلى مســتوى ، وعلى يد هذا الشيخ الفنان بدأت أم كلثوم أولى مراحلها الفنية التى شربت خلالها كل قطرة فن وثقافة من أستاذها ، فظهرت أمام الجمهور لأول مرة فى خريف عــام ١٩٢٣ علـــى مسرح "بيلوت باسك" فى شارع الألفى وهى مرتدية ملابسها الريفية تصاحبها مجموعــة تنشد دون مصاحبة أى آله موسيقية اللحن الدينى المشهور ٠

"مولاى كتبت رحمة الناس عليك"

وكادت هذه المرة تضعف من معنوياتها وتثبط من همتها خاصة عندما لــم يعجــب أحد المستمعين منظر ملابسها ولا طريقتها فى الغناء فصاح قائلا (كتب علينا الغلــب يــا أختى) وضج الجمهور بالضحك وانفجرت المطربة الناشئة بالبكاء ، ولكن الشيخ أبو العلا لم يتركها لليأس بل وقف بجانبها يساعدها على تثبيت أقدامها موضحا لهــا أن الجمهــور مادة خام والفنان هو الذى يشكلها بيديه ، وأنه على المطربة أن تتفهم الجمهور الذى تغنى له لتتمكن من السيطرة عليه وتوجيهه ٠ وظل هذا الشيخ الفنان بجانبها حتى وقفت علـــى

---

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ ص ١٠٧ ٠

قدميها ، فغنت أم كلثوم للشيخ أبو العلا عشرة ألحان[١] ، منها تحفته الغنائية "وحقك أنت المنى والطلب" [٢] (عام ١٩٢٦) التى غناها الشيخ أبو العلا من قبل ناسجا فيهـا علـى منوال طريقة عبده الحامولى فى تلحين القصائد ، وهى من تأليف الشيخ عبد الله الشبراوى الذى كان شيخا للأزهر ، وتشاء الظروف أن يبتسم الحظ لأم كلثوم فيستمع إلى غنائهـا أسرتان كانتا بمثابة مفتاح بزوغ نجمها وهما أسـرة آل عبـد الـرازق[٣] وأسـرة آل المهدى[٤] ومن خلال هاتان الأسرتان استطاعت أم كلثوم أن تتعرف على النخبة المثقفـة فى مصر ، كما استمدت منهما زادا وطنيا ساعدها على تفهـم مجريـات مـا حولهـا ، وأثناء ذلك استمر الشيخ أبو العلا فى وضع بصماته الفنية لإبراز صوت أم كلثوم فبعد أن غنت قصيدة "وحقك أنت المنى والطلب" غنت له "أفديه إن حفظ الهوى أو ضـيَّعا" (عـام ١٩٢٨) من نظم شاعر العصر الأيوبى "ابن النبيه" بعد أن غناها الشيخ أبو العلا وسجلها على أسطوانة فكانت من أجمل الألحان التى تكامل فيها التوافق بين الشعر والغناء ، حيث وضع الشيخ اللحن والكلام فى وعاء واحد وأتاح لصوت أم كلثوم أن يستعرض كل جماله واقتداره وعذوبته وجذالته فى هذه الأغنية .

وهكذا أكمل الشيخ أبو العلا من خلال صوت أم كلثوم مهمته فى تخلـيص الغنـاء العربى من العجمة العثمانية ، والرطانة الفارسية ، والألفاظ الغجرية التى عبثت بحنـاجر المطربين والمطربات لفترات طويلة[٥] .

وبدأ الناس يستمعون من خلال صوت أم كلثوم إلى غناء يتوافق كلامه مع لحنه كما كان الشأن فى الغناء العربى أثناء ازدهاره وهكذا افتتحت أم كلثوم عهدا جديدا فى غنـاء القصيدة العربية ، ونجحت فى أن تعود آذان الناس على أغنيات جديدة وعلى ألحان جديدة وعلى يد الشيخ أبو العلا توسعت أم كلثوم فى استخدام المقامات الغنائية التـى لـم يكـن

---

(١) سهير عبد الفتاح : حياة صوت أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ ص ١٧-١٨ .

(٢) غنت أم كلثوم مقطوعات من هذه الأغانى فى فرقة عكاشة خلال عرضها رواية "محمد على وفـتح السودان" بمسرح الأزبكية حيث كان يتخللها مقطوعات غنائية .
انظر البلاغ فى ١٩٢٦/٣/١٧ والأهرام فى ١٩٢٦/٥/٩ .

(٣) كان بيت آل عبد الرازق من بيوت العلم والاستناره فى ذلك الوقت فهو الـذى خـرج منـه علـى ومصطفى عبد الرازق .

(٤) تبنى أمين المهدى رائد هذه الأسرة تعليم أم كلثوم أصول الموسيقى والعزف على العود .

(٥) كمال النجمى : تراث الغناء العربى ص ٧٢ .

يعرفها رجال الموالد وحلقات الذكر والأناشيد الدينية ، وبجهوده نضج صـوت أم كلثـوم وتمت رعايته فنيا بالتدريب والتثقيف [١] ، لدرجة أنها جعلت "القوم سكارى من الطرب" ودفعهم إلى طلب الإعادة وتصفيق الاستحسان[٢] وإلى جانب ذلك فقد لحن الشيخ أبو العلا لأم كلثوم قصيدة "الصب تفضحه عيونه" التى ألفها أحمد رامى ونشرها فى جريدة السفور ومطلعها :

الصـــب تفضــــحه عيونـــه

وتــــنم عــــن وجــــد شــــئونه

إن تكتمنـــــــا الهـــــــوى

والـــــداء أقتلــــه دفينــــه

ونتيجة لذلك ظلت أم كلثوم متعلقة بأستاذها ، ولم تنس أبدا فضله عليها بـل ظلـت تذكر دوره فى حياتها الفنية ، وبأنه أفسح أمامها آفاقا موسيقية واسعة وغرس فى نفسـها غرسا غنائيا طيبا ، وطبعها بطبعه[٣] . ويتمثل إخلاص أم كلثوم للشيخ أبو العلا ووفائها له أنها سارت فى جنازته وراء نعشه فى الخامس من يناير ١٩٢٧ فى الوقت الذى لم يكن مألوفا أن تسير إمرأة وسط الرجال فى جنازة تسير فى شوارع وأزقة المدينة ، كما يتمثل إخلاصها له مسايرتها للتقاليد الموسيقية الشرقية التى عملها لها فقد استطاعت أن تحفـظ عن طريق الشيخ أبو العلا أدوارا كثيرة لمحمد عثمان ، وعبـده الحـامولى ، ويوسـف المنيلاوى وللشيخ أبو العلا نفسه الذى كان يلحن لها العديد من أغانيه فـى البدايـة ، وأن تساير هذه الأدوار لفترة .

ونتيجة لذلك ارتبط ظهور أم كلثوم بثورة فنية قومية فى الموسيقى والطرب وكانـت قدرات صوتها ، وما فى أغانيها من ألحان من أبرز عوامـل النجـاح لهـذه الثـورة[٤] يضاف إلى ذلك أنها جمعت فى داخلها أرشيفا يعتبر ثروة فنية وتاريخية رائعـة خاصـة وأنها كانت تحفظ من الألحان والأغانى القديمة ما كان قد اندثر من أسماع الناس

---

(١) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ٥٥-٥٦ .

(٢) الأهرام فى ١٩٢٦/٥/٩ .

(٣) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ١٩ .

(٤) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ٥٥-٥٦ .



محمد الموجى



كمال الطويل



رياض السنباطى



القصبجى



زكريا أحمد



بليغ حمدى



محمد عبد الوهاب

وأفواههم[١] • وظلت أم كلثوم ساحرة فى بساطتها وعقالها ولباسها العربى ونضارتها التى لا تنفد ، وجلس حولها والدها وإخوتها وأبناء عمومتها يرددون وراءها ما يحفظ للسلم الموسيقى سلامته ، والناس ينصتون إليها مشدوهين • ولما كان ينقص أم كلثوم لكى تنطلق إنطلاقتها الكبرى عنصرًا آخر مهما وهو الشاعر الذى يفهم صوتها ويكتب لها نصوص أغانيها فقد وجدت ضالتها فى الشاعر أحمد رامى[٢] الذى عاد من بعثته فى فرنسا فى ٢١ يوليو ١٩٢٤ وبدأ يكتب لها بلغة جديدة تتسم بقدر أكبر من الوحدة اللغوية ، وبمستوى أسمى فى التعبير ، وقد ساعده على ذلك أن صوتها كان أحد المؤثرات التى استفزته لكتابة شعره ، واستثارت إلهامه فنظم لها العديد من الأغانى التى يفهم معانيها كل الناس حتى يرددها الجاهل والمثقف والفلاح وابن المدينة وغيره ، وقد بدأت أم كلثوم موسمها الغنائى الثانى فى عام ١٩٢٤ فى صالة "سانتى" واستهلته بمونولوج من تأليف رامى عنوانه (خايف يكون حبك ليَّه) من تلحين صبرى النحريرى وظلت علاقة أم كلثوم ورامى تزداد وثوقا ولم يفترقا منذ ذلك الوقت ، فكتب لها أكثر من ٢٥٠ قصيدة غنائية اختارت منها ما راق لها • وكان لاتصال رامى بأم كلثوم أكبر الأثر فى النهوض بالأغنية المصرية ، فبعد أن كانت تتميز بالإباحية فى التعبير بدأ رامى بشعره يحبب القصيدة الفصحى إلى قلوب العامة معتمدا فى ذلك على جمال صوت أم كلثوم وبديع نظمه وحلاوة عباراته • ونتيجة لذلك أخذت شخصية أم كلثوم الفنية فى التبلور ، كما أخذ صوتها يجذب جمهور المستمعين ، وعباقرة الملحنين الذين اكتشفوا قدراته واستطاعوا من خلاله أن يقدموا أجمل وأرقى ما عرفته الموسيقى العربية من ألحان هذا العصر[٣] والذى كانت حنجرة أم كلثوم ناطقة بإبداعاتهم وكان من أبرز هؤلاء محمد القصبجى[٤]

---

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، مرجع سابق ص ٢٤ •

(٢) ولد فى ١٩ أغسطس ١٨٩٢ بحى السيدة زينب بالقاهرة ، وتخرج فى مدرسة المعلمين العليا ، والتحق بوظيفة فى قسم الفهارس بدار الكتب ، وصدر له أول دواوينه فى عام ١٩١٨ ، سافر فى بعثة إلى باريس لدراسة الفارسية ، وفى عام ١٩٢٤ عين مستشارا فنيا بالإذاعة وعضوا بلجنتى الشعر والفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب •

(٣) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٢٢ •

(٤) ولد مع سيد درويش فى عام واحد (١٨٩٢) ودرس فى كتاتيب الأزهر ثم درس أصول الموسيقى العربية والعزف على العود ، والتحق بمدرسة المعلمين الأولية ، وكان ظهور أم كلثوم بمثابة نقطة تحول فى حياته الفنية ، كما كان تطعيمه للموسيقى العربية بالموسيقى الغربية أثرا فى إبراز طبقات أم كلثوم الصوتية •

الذى خلع عمامته وجبته ولبس البدلة وكان فى مقدمة المجددين فى فن الغناء وقد قدم لأم كلثوم فى أوائل العشرينيات أكثر من ثلاثين لحنا ، كانت عبارة عن محاولات وتجارب استفاد فيها من أساليب الفنون الغربية والشرقية بما فيها الأساليب التركيه ، ويعتبر مونولوج "إن كنت أسامح" الذى لحنه لأم كلثوم أعلى صيحة فى التجديد الغنائى ، وقد سار على منواله كل من رياض السنباطى(١) وزكريا أحمد(٢) وداود حسنى(٣) ، والدكتور أحمد صبرى النحريرى٤ ومحمد عبد الوهاب ومحمد الموجى وكمال الطويل وسيد مكاوى وبليغ حمدى وغيره . وكانت ألحان كل منهم لأم كلثوم لا ينازعهم فيها أحد ، خاصة وأنها كانت كالنحلة التى تأخذ من كل وردة رحيقها . وقد كانت علاقة أم كلثوم بملحنيها علاقة من نوع خاص فهى لا تغنى اللحن فقط ، بل تلهم الملحن وتنشر ألحانه فى الآفاق . ولم تكن شريكة عادية فى الأغنية بل كانت الطرف الأقوى نظرا لأنها قارئة ذكية تستطيع أن تستوعب معانى الكلمات على أعلى درجات الثقافة الفكرية لذلك ، كانت تختار الكلمات وتعدلها أحيانا مهما كان الشاعر الذى يؤلف أغانيها ، يضاف إلى ذلك أنه كان لها رؤيتها فى اختيار الكلمات دون مجاملة لأحد على حساب فنها الأصيل ، فلم يعرف عن أم كلثوم أنه كان لها شلة من مؤلفى الأغانى الذين يحاصرونها بأعمالهم بل كانت تختار من دواوين الشعر التى كانت تقتنيها فى مكتبتها الخاصة ما يتلاءم مع رغبتها سواء كانت على صلة بهذا الشاعر أو ذاك وأبرز الأمثلة على ذلك ما ذكره الشاعر السودانى " الهادى آدم" عن قصة اختيار أم كلثوم لإحدى قصائده وهى قصيدة "أغدا ألقاك . ياخوف فؤادى من غدى" أنه فوجئ بوصول خطاب من سيدة الغناء باسمه تدعوه فيه للحضور إلى القاهرة للاستماع إلى إحدى قصائده التى اختارتها من

---

(١) كان أول لقاء للسنباطى بأم كلثوم فى عام ١٩٢٢ على رصيف محطة (درين) دقهلية خلال اشتراكها مع والدها فى سهراته ولياليه بإنشاد المدائح النبوية والقصائد الدينية ، ولم يكن يدرى أحد منهما أنه سيلتقى بالآخر مرة ثانية ، وستكون ثمار لقائهما تلك الروائع والبدائع اللحنية التى تزخر بها المكتبة الغنائية . أنظر . بريزم للموسيقى . التاريخ الفنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٠ .

(٢) كان زكريا أحمد صاحب نصيب وافر فى رسم الحنجرة الذهبية لأم كلثوم ، وفى تشجيع والدها على العمل بالقاهرة .

(٣) لحن داود حسنى لأم كلثوم مجموعة من الأدوار والطقاطيق ذات القيمة الفنية العالية .

(٤) طبيب أسنان وملحن وتعاملت معه أم كلثوم فى بدايه حياتها الفنية وقبل احترافها الغناء .

ديوانه الذى لم يرسله إليها بل كانت قد اشترته رغم أن أغلى أمنياته التى لم يكن قد تمكن من تحقيقها قبل ذلك هو الاستماع إلى أم كلثوم فى أى من حفلاتها[١] .

وإلى جانب ذلك فقد كانت أم كلثوم تختار لحن أغانيها وتتصــرف فيــه وتفــرض صوتها عليه [٢] وليس أدل على ذلك من أنها كانت تتحكم فى ألحان أغانيهــا ، فكــان يمكنها وهى تغنى أن تطيل فيه أو تختصره إذا أرادت ، وكانت الآلات الموسيقية غالبــا تخفت أصواتها عندما يرتفع صوت أم كلثوم بالغناء ٠ لقد كان دور أم كلثوم فى الارتقــاء بالغناء المصرى إلى مستوى شاعرى أكثر نبلا ، ويتضح ذلك فى أنها جعلت الجمهــور ينتقل من مستوى الأغانى المبتذلــة ذات الــدلالات والإيحــاءات الهابطــة ، والميوعــة والتأوهات مثل :

"هات القزازه واقعد لاعبنى" و"ارخى الستارة اللى فى ريحنا أحسن جيراننا تجرحنا"

و"عصفورى يا أمه عصفورى لا ألعــب وأورى له أمورى"

و "يوم مــا عضتنى العضــة وجابولى طاســة الخضــــة"

و "أبيع هدومى علشـــان بوسه من خــدك القشــدة يا ملبن

يا حلوة زى البسبوسه يا مهلبية كمان وأحسن "

و"اشبكها واحبكها بدبوس وانزل على صورتك واعض وأبوس

حتتك بتتك وتعاليلى يا بطه ، وتعال يا شاطر نروح القناطر ، وغير ذلــك مــن الأغانى الرخيصة التى تعبر عن تفسخ المجتمع وتفشى روح الانحلال فيه والتــى كانــت تجد شهرة ورواجا لا قبل لأحد بمقاومتها إلى مستوى القصائد ، والشعر الراقــى ودنيــا الطرب الأصيل مثل "إن حالى فى هواها عجب" أو رباعيات الخيام[٣] .

وعلى الرغم من أن هذا الطريق لم يكن سهلا ، خاصة وأن الاتجاه السائد لدى الفن فى ذلك الوقت كان يميل إلى أن يسود الذوق الرخيص ، وانحدار القيم ، فإن الحرب بدأت تشتعل ضد أم كلثوم من جهات عديدة ومع ذلك فقد حرصت على أن تبدأ عصرا جديدا

---

(١) مصطفى الضمرانى : قضايا ثقافية معاصرة ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٦٦ .

(٣) المصور : تصريح لأم كلثوم فى ١٩٧٥/٢/٧ ص ٢ .

من الغناء ، وأن تتمسك بما تؤمن به وأن تبتعد عن الأغانى منخفضة المستوى والتــى كانــت شائعة فى الأربعينيات وعلى الرغم من مطالبة البعض لها أن تغنى أغانى من اللون الذى كــان سائدا فى ذلك الوقت ومحاولتهم المستمرة للضغط عليها[١] فقد استطاعت أم كلثوم أن تنتصــر على تيار الأغانى المبتذلة ، ورفضت تماما أن تستسلم لهذا النوع من الأغانى ، وظلت تبحــث عن نصوص غنائية نقية رفيعة مهذبة ، فغنت لأمير الشعراء أحمد شوقى[٢] الذى وجدت فــى شعره معينا سلسبيلا ولشاعر النيل حافظ إبراهيم [٣] ولأبى فراس الحمدانى وغيــرهم ونتيجــة لبروز أم كلثوم فى مسرح الغناء ، ومنافستها لمعاصريها فقد تعرضت للعديد مــن الافتــراءات والإتهامات فى محاولة من بعض منافسيها للإساءة إليها فى شخصها وإشغالها عن فنها ، فادعى رجل من ذوى الأملاك بقنا يدعى "عبد الستار الهلالى" زورا أنها زوجته ، ولم تعرف أم كلثوم بقصة هذا الزواج إلا عن طريق إعلان على يد محضر يطالبها فيه هذا الرجل أمــام محكمــة عابدين بالعودة إلى عصمته ، ولما لم تتضح صحة دعواه نال نصيبه من العدالة ، وإلى جانــب ذلك فإنه نتيجة لنجاحها الكبير تعرضت للكثير من المضايقات التلفونيــة التــى كانــت ترهــق أعصابها ، كما حاولت منيرة المهدية سلطانه الطرب وقتذاك الإطاحة بأم كلثوم التى اعتبرتهــا المنافسة الأولى لها وكانت وسيلتها إلى ذلك محاولتها اصطناع نسخة أخرى من أم كلثوم فتنزل إحدى الفتيات مرتدية الكوفية والعقال على رأسها كما كانت تفعل أم كلثوم فى بداية حياتها الفنية ويقف من خلفهــا التخــت وتــردد بعــض الأغــانى الدينيــة والطقــاطيق متحديــة بــذلك أم كلثوم الحقيقية ، وإزاء ذلك اضطرت أم كلثــوم إلــى توزيــع إعلانات باليد ، نشرتها

---

(١) يؤكد ذلك أن أم كلثوم جاءت فى المرتبة الثالثة فى الاستفتاء الذى جرى فى عام ١٩٢٦ عن أحب المطربات فكانت الأولى منيرة المهدية ، والثانية فتحية أحمد ، وكانت الثالثة أم كلثوم .

أحمد زكى عبد الحليم : نساء فوق القمة ، القاهرة ، دار الفيصل ١٩٨٧ ص ١١٨ .

(٢) بادر شوقى بكتابة قصيدته الوجدانية البارعة "سلو كئوس الطلا" فكانت أول قصــيدة مــن شــعره حفظتها أم كلثوم فى عام ١٩٣١ ثم غنت له" الملك بين يديك فى إقباله" وقصيدة "ريم على القاع بين البان والعلم" والتى سماها شوقى "نهج البردة" لأنه نسج فيها على منوال قصيدة البردة للبوصــيرى ، وإلى جانب ذلك فقد اختارت أم كلثوم من ديوان شوقى ما يطابق الأحداث التى مــرت بهــا مصــر لغنائها ومنها قصيدة النيل ، وقصيدة إلى عرفات الله ، والاشتراكيون أنت إمامهم .

(٣) يروى أن أم كلثوم كانت على صلة بحافظ إبراهيم وعبد العزيز البشرى وكان لهــا معهمــا ومــع أصدقائهما جولات وحكايات ، وتعلمت منهما فنون الأدب وفنون النكتة أيضا .

للتفاصيل أنظر عبد العاطى كيوان : الفكاهة والسخرية عند حافظ إبراهيم القاهرة ، النهضــة المصرية ١٩٩٧ ص ٦٣ .

الصحف بعد ذلك تحذر جمهورها من المقلدة لها ، كما كانت تكتب فى إعلانات حفلاتها أم كلثوم الأصلية ، على أن هذه الحرب لم تستمر طويلا ، فقد شقت أم كلثوم طريقها بخطى قوية دون أن تلتف وراءها واختفت الفتاة الأخرى ، حيث لا يصح إلا الصحيح خاصة وأن أم كلثوم استطاعت الصمود ، ووقفت كالطود الشامخ تتكسر الأمواج عند قدميها ، وصمدت أمام كل الدعاوى لتتساقط كأوراق الخريف ، لا تهتم إلا بفنها حتى انقشعت كل سحابات الصيف تحت حرارة فنها وصوتها الجميل ٠

٢- أم كلثوم والسينما :

عندما بدأ العصر الذهبى للسينما المصرية بافتتاح ستوديو مصر ١٢ أكتوبر ١٩٣٥ بدأ استخدام الموسيقى والغناء كعنصر فنى فى التأثير على المتفرجين ، فاستهل إنتاجه الأول بفيلم تاريخى غنائى قامت أم كلثوم ببطولته وعنوانه "وداد" الذى عرض فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦ وكانت قصته من تأليف "أحمد رامى" وسيناريو أحمد بدرخان وقد مثلت فيه أم كلثوم دور الجارية "وداد" المغنية فى عصر المماليك ٠ وكان هذا الفيلم بمثابة فرصة للتجارب المتحفظة فى التلحين الجديد ، وفيه وقفت أم كلثوم لأول مرة ليشكل صوتها بداية الأغنية السينمائية الخفيفة ، وأدت دورها بفطرتها السليمة بكل إبداع واقتناع ، وغنت فيه خمس أغنيات تبارى فى تلحينها زكريا أحمد ومحمد القصبجى ورياض السنباطى وكانت كلها من نظم أحمد رامى ، وهى "يا طير يا عايش أسير" ،"ياللى ودادى صفالك" من تلحين القصبجى و"يا بشير الأنس" و"يا ليل نجومك شهود" لزكريا أحمد و"البحر زاد يا فرحنا" و"حيوا الربيع عيد الزهور" لرياض السنباطى" ٠

كما تضمن الفيلم مقطوعة موسيقية أطلق عليها فيما بعد "رقصة شانغهاى" وطقطوقة مشهورة لحنها رياض السنباطى بعنوان : "على بلد المحبوب ودينى" (1) وكان فيلمها الثانى "نشيد الأمل" الذى عرض فى ١١ يناير ١٩٣٧ وهو من إنتاج شركة "أفلام الشرق" ومثلت فيه أم كلثوم دور سيدة عصرية اسمها "آمال" كانت تتمتع بصوت جميل واتجهت للعمل بالسينما وغنت فيه سبع أغنيات كانت كلها من نظم أحمد رامى قام القصبجى بتلحين أربع أغنيات منها :

وهى "يا مجد ياما اشتهيتك" و"ياللى صنعت الجميل" و "منيت شبابى" "وأغنية الطفل" وقام السنباطى بتلحين الأغنيات الثلاث الباقية ، هى مونولوج "قضيت حياتى

---

(١) بريزم للموسيقى : التاريخ الفنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٢ ٠

حيرى عليك" و"نشيد الجامعة" وطقطوقه "إفرح يا قلبى" وقام الفنان عزيز صادق بالتوزيع الموسيقى للأغانى فكانت هذه هى أول مرة تغنى أم كلثوم ألحانا موزعة موسيقيا .

وكان الفيلم الثالث هو فيلم "دنانير" الذى عرض فى ٢٩ سبتمبر ١٩٤٠ وكان من إنتاج ستوديو مصر وهو عن قصة وحوار وأغانى أحمد رامى وإخراج أحمد بدرخان وقد مثلت فيه أم كلثوم دور "دنانير" الجارية العباسية" التى عاشت فى عصر الرشيد ، واستطاعت تأديته بإبداع وغنت فيه عدة أغنيات ذات ألوان متعددة كأغنية الشريف الرضى "قولى لطيفك ينثنى" التى غنتها فى مقامات مختلفة ، متدرجة فيها من نغمة إلى أخرى بكل روعة واقتدار وكانت هذه الأغنية إحدى ثلاث أغنيات لزكريا أحمد ، وكانت الثانية "القصر المهجور" والثالثة "بكره السفر" وتضمن الفيلم أغنيتى "ياليلة العيد" و"أنشودة بغداد" للسنباطى وثلاثة ألحان أخرى للقصبجى وهى "الزهر فى الروض تبسم" و"يا فؤادى غنى" و"أنشودة النبع" .

وجاء بعد ذلك الفيلم الرابع "عايدة" الذى عرض فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٢ وكان من إنتاج "شركة أفلام الشرق" عن قصة لعبد الوارث عسر وإخراج أحمد بدرخان ، وفيه ظهرت محاولة جريئة وهى استغلال صوت أم كلثوم القوى الرنان فى الغناء الأوبرالى ، لحن الفصل الأول منه محمد القصبجى ، وقام السنباطى بتلحين الفصل الثانى وقد مثلت أم كلثوم فى هذا الفيلم دور فتاه ريفية اسمها "عايدة" يقع فى غرامها ابن أحد الأغنياء ، وتقف الفوارق الطبقية عقبة أمام إتمام الزواج . وقد غنت أم كلثوم في هذا الفيلم عدا ألحان الأوبرا مجموعة من ألحان السنباطى والقصبجى وزكريا أحمد منها "يا فرحة الأحباب" و"القطن" .

وكان الفيلم الخامس "سلاَّمة" الذى عرض يوم ٩ إبريل ١٩٤٥ وهو من إنتاج وسيناريو "توجو مزراحى" عن قصة من تأليف "على أحمد باكثير" والحوار والأغانى لبيرم التونسى وقد قامت فيه أم كلثوم بدور الجارية الأموية "سلاَّمة" التى اشتهرت منذ حداثة سنها بجمال الصوت . وقد اشتمل الفيلم على تسع أغنيات كلها من نظم بيرم ما عدا قصيدتين هما "قالوا أحب القس " التى لحنها السنباطى وتنسب إلى الشعر القديم والثانية "يا بعيد الدار" لعباس بن الأحنف . أما باقى الأغنيات فهى "غنى لى شوى شوى" و"قوللى ولا تخبيش يا زين" و"سلام الله على الأغنام" و"عينى يا عينى" و"برضاك" و"لغة الزهور" و"نور محياك" . وإذا كان بيرم التونسى قد استأثر بنظم معظم أغانى الفيلم

فإن زكريا أحمد كان له نصيب الأسد فى التلحين إذ قام بتلحين ثمانى أغنيات بينما لحن الأغنية التاسعة رياض السنباطى وهى قصيدة "قالوا أحب القس" ٠

وفي هذا الفيلم ارتفعت أم كلثوم بفنها التمثيلى والغنائى إلى أرفع الدرجات فى الأداء والتعبير ولم تغن فيه تلك الأغنيات التسع فحسب ، بل قرأت أيضا ولأول مرة على الشاشة آية قرآنية من "سورة إبراهيم" اهتزت لها القلوب بالخشوع والإيمان ٠

أما الفيلم السادس والأخير فكان "فاطمة" الذى عرض فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٧ ومثلته وهى فى سن الثالثة والأربعين وهو الفيلم الذى اعتزلت بعده السينما وكان من إنتاج ستوديو مصر ومن إخراج "أحمد بدرخان" وتأليف "مصطفى أمين" وقد مثلت فيه دور "فاطمة" الممرضة الفقيرة التى تزوجت بعقد عرفى من ابن أحد الأثرياء ٠ وقد غنت أم كلثوم فى هذا الفيلم تسع أغنيات اتجهت فى ثلاث منها إلى الأغنية الجماعية التى اشترك معها فى غنائها أفراد "الكورال" وهى "نورك يا ست الكل" لبيرم التونسى والقصبجى و"نصرة قوية" لبيرم وزكريا أحمد و"ظلمونى الناس" لبيرم والسنباطى ٠

وتضمنت الأغنيات الأخرى ثلاث أغنيات تفيض بالبهجة والمرح وحب الحياة لبيرم أيضا وهى "يا صباح الخير" للقصبجى ، و"لغة الزهور" و"جمال الدنيا" لزكريا أحمد بجانب أغنيتين حزينتين هما "أصون كرامتى" لرامى والسنباطى و"اليتيم" لرامى والقصبجى ٠ أما الموسيقى التصويرية فى جميع أفلام أم كلثوم فقد وضعها "محمد حسن الشجاعى[(١)] " ما عدا موسيقى فيلم نشيد الأمل التى كانت من وضع عزيز صادق[(٢)] ٠

والجدير بالذكر أن إعجاب الناس بهذه الأفلام ، واقتناع الجماهير بأدوار أم كلثوم ، لا يرجع إلى قصة الفيلم أو الأداء التمثيلى أو بمدى التحام الغناء بقصة الفيلم أو الأداء التمثيلى بمقدار ما يعود إلى سحر شخصية أم كلثوم والأغانى الرائعة التى قدمتها ٠

---

(١) ولد في إحدى قرى كفر الزيات فى عام ١٨٩٩ ، وعشق الموسيقى التصويرية ، وعين مستشارا فنيا للموسيقى والغناء فى الإذاعة المصرية ، وبدأ فى التأليف الموسيقى للموسيقى التصويرية للكثير من الأفلام السينمائية كما وزع بعض أوبريتات سيد درويش مثل شهر زاد والعشرة الطيبة ورحل عن دنيانا فى العاشر من يونيو ١٩٦٣ ٠

أنظر : التأليف الموسيقى المصرى المعاصر جـ١ ص ١٣٤-١٣٨ ٠

(٢) محمد السيد شوشة : رواد ورائدات السينما المصرية ، القاهرة ، روز اليوسف ١٩٧٨ ص ٥٤-٦٠ ٠

وقد ظل الفيلم الغنائى يحتل المقدمة طوال الأربعينيات والخمسينيات ، واستطاع أن يؤثر تأثيرا قويا فى الأغنية العربية سواء من ناحية الكلمات أو اللحن أو الأداء الغنائى أو الموسيقى . ومع ذلك فإن أم كلثوم لم تربط مستقبلها بفن السينما بل سخرت فن السـينما لشخصيتها الفنية المستقلة(١) واستطاعت أن تنسحب من الميدان فى الوقت المناسب لتعيش وتخلد على الستار الفضى فى أدوارها الخالدة (٢) .

٣- حفلات أم كلثوم الشهرية :

فى الثلاثينيات من القرن الماضى وبعد أن أصبح الثمر يانعا فى بستان الغناء العربـى كان صوت أم كلثوم هو أول صوت سجلته "الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية(٣)" فى حفل خارجى عام ١٩٣٤ بعد أن تعاقدت معها على مشروع الحفل الشهرى المذاع مباشرة علـى الهواء(٤) ومن خلاله عرف المستمعون أم كلثوم على نطاق مصر كلها ، وانعقـدت الألفـة والمودة بين المستمع وأم كلثوم من خلال الراديو ، وأصبحت أغانيها متاحة لجموع الشـعب بعد أن كانت مقتصرة على طبقة معينة منه . وإلى جانب ذلك فإن حفلات أم كلثوم الشهرية كان لها أكبر الأثر فى تقديم فنها المتجدد فى كل حفلة من هذه الحفلات التى كانت تعد بمثابة حفلات قومية ، فالجميع ينتظرون الخميس الأول من كل شهر(٥) .

حيث يلتف حول صوتها ملايين المستمعين ليس المصريين الذين يتجمعـون فـى المقـاهى والبيوت لقضاء السهرة كلها معها فحسب بل والعرب أيضا الذين جمعتهم أم كلثوم على الحب والفن ، ووضعت رؤوسهم على أيديهم ليقولوا فى نفس واحد "الله الله يا ست" فشوارع القاهرة المزدحمة دائما كان يهدأ فيها الضجيج فجأة وتخلو من المارة فى انتظار سماع أم كلثوم على موجات الأثير التى تتفرغ لها ، وتذيع أغانيها بما فيها من ضوضاء وتصفيق . والناس فـى العالم العربى على مختلف أعمارهم ومستوياتهم يتوقفون عن أسمارهم وأعمـالهم فيضـطر الشيوح إلى الكف عن لعب الطاولة فى مقاهى الدار البيضاء وفى بغـداد ودمشـق وعمـان وغيرهـا ويحولـون موجـات محطـات إذاعـة بلادهـم

---

(١) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٥٤ .

(٢) شوشه : مرجع سابق ص ٦٠ .

(٣) فى عام ١٩٣٤ حلت الإذاعة الحكومية محل الإذاعات الأهلية ، وكان الأستاذ سعيد لطفى أول مدير لها ، وكانت مدة الإذاعة اليومية ١٢ ساعة .

(٤) إلياس سحاب : أم كلثوم وملحنوها دراسة بوجهات نظر فى مارس ٢٠٠١ ص ٥٥ .

(٥) كانت أم كلثوم تبدأ السنة الغنائية بحفلتها فى الخميس الأول من أكتوبر وتتوقف فى الصـيف مـع الراحة والاصطياف .

إلى موجات إذاعة القاهرة للاستماع إلى نجمة وفيثارة الشرق أم كلثوم فى برنامج مدته خمس ساعات أو يزيد [١] ، يضاف إلى ذلك أن حفلات أم كلثوم كانت الفرصة الأنيقة لكل سيدات المجتمع فيرتدين أشيك وأجمل ما عندهن ، حفلات تؤدى ليس فقط إلـى رواج الكـوافيرات والتاكسيات والترزية والمطاعم والفنادق ، بل كانت تؤدى أيضا إلى رواج شركات السـياحة وشركات الطيران التى تحمل من كل العالم عشاقا لصوتها مرة كل شهر[٢] يحضرون إلـى القاهرة لمشاهدة أم كلثوم وهى تتحرك فوق المسرح وتهتز بمنديلها الأبيض ، وكل حركـة منه ومن يدها عبارة عن إشارة بدء وتجويد لمن يجلس خلفها من أعضاء فرقتها الموسـيقية الذين حفظوا هذه الإشارات وكأنها قائد لفرقة موسيقية من النوع النادر ، ولكى ينسوا الـدنيا كلها مع سحر غنائها الرائع ، وصوتها الساحر وحنجرتها القديرة التى تفوق الوصف ، والتى تنبض بالحب والأسى بحس عاطفى يجعل الكثير من مستمعيها يبكون فى كثير من الأحيان ، ويطالبونها بإعادة كوبليهات معينة ٠ وبعد أن ظهر التلفزيون فى مصر عام ١٩٦٠ نجحـت حفلات أم كلثوم التى قدمها التلفزيون نجاحا باهرا ، وظل صوتها قويا خفاقا فصيحا نقيـا ، وكان الإعجاب بصوتها ظاهرة شملت العالم العربى كله بمختلف بيئاته وظروفه الاجتماعيـة والتاريخية ٠ كما أن أغانيها ساهمت بشكل كبير فى تدعيم اللغة العربية الفصحى خاصة وأن أداءها للحروف والكلمات كان أداء سليما يتميز بالوضوح والصفاء الكامل حتى قـال عبـد الوهاب فى حديث له عنها : إنها كانت فصيحة النطق بمعنى أنها حين تنطق جملة فإن الجملة تبلغ أذنك حرفا حرفا كل حرف قائم بذاته وله موسيقاه الخاصة كما أن أغانيها العامية كانـت أقرب إلى العربية الفصحى ، ومعنى ذلك أنها لم تكن مطربه المثقفين فحسـب بـل كانـت مطربة كل الناطقين بلغة الضاد ، وإلى جانب ذلك فقد كان صوتها من الأصـوات الخصـبة الذكية التى تزغرد ، ولا نظن أن أحدا خدم الفصحى من المطربين كما فعلت أم كلثوم سواء فى قصائد العشرينيات ذات الألحان العالية التى غنتها أو فى قصائد السـتينيات ذات القراءة الموسيقية ولا أحدا كانت رقعة التسابيح الدينية واسعة عنده مثل أم كلثوم التى غنت "نهج البردة" و"سلو قلبى" و"إلى عرفات الله" و"ولد الهـدى[٣] " ، ولا أحد غنى

---

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ص ١١ – ١٢ ٠

(٢) أنيس منصور : عاشوا فى حياتى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ ص ٦٥٦ ٠

(٣) لحن السنباطى هذه الأغانى لأم كلثوم بدءا من عام ١٩٤٦ ٠

انظر : التاريخ الفنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٧ ٠

للحركة الوطنية سواء فى مصر أو لعالم العربى مثل أم كلثوم التى غنت لوطنها سـواء فـى أفراحه أو أتراحه ٠

٤- **أغانى أم كلثوم الوطنية :**

لقد استطاعت أم كلثوم بشخصيتها وقوة إرادتها وصوتها الجميل ونشاطها أن ترتقى بفن الغناء العربى وفق تخطيط مدروس وثقافة عالية ، وكان لها شخصية اجتماعية بارزة لها مكانتها ، تختار اللحن والكلمة دون مجاملة لأحد على فنها الأصيل ٠ كما كانت علما على أمة بأسرها من المحيط إلى الخليج ونغمة صافية للحب والسعادة بالنسـبة للشـعب العربى على مدى نصف قرن أو يزيد حتى لقبت بقيثارة السماء ، وبهدية السـماء إلـى العواطف والوجدان ٠

وقد ظهر معدن أم كلثوم الأصيل خلال الأزمات التى تعرضت لها مصـر والأمـة العربية ويظهر ذلك جليا فى أغانيها الوطنية ، فقد واكبت أم كلثوم الحركة الوطنية وكـان لها فيها نصيب كبير فغنت لذكرى سعد زغلول وأنشدت لفلسطين ولأبطال الفالوجا (١) ، ولأعياد مصر الوطنية جميعا قبل وبعد الثورة وكان "نشيد الجامعة" الـذى كتبـه رامـى ولحنه السنباطى وغنته أم كلثوم فى فيلم "نشيد الأمل" عام ١٩٣٦ من أوائل هذه الأناشـيد وكان مطلعه يا شباب النبيل ، يا عماد الجيل ، هذه مصر تناديكم فلبوا دعوة الداعى إلـى القصد النبيل ، ثم جاء فن صناعة السينما ليضيف بعدا هاما فى حياة أم كلثوم الفنية ، ففى فيلم "دنانير" غنت أم كلثوم نشيدا عن بغداد ولم تقتصر أم كلثـوم علـى غنـاء الأناشـيد الحماسية فى أفلامها فغنت فى فيلم "عايدة" عن القطن المصرى أغنية مطلعها :

أبيض ومنور على عوده

يحيى الأمل عند وجوده

وعند تأسيس الجامعة العربية فى عام ١٩٤٥ غنت أم كلثوم أغنية بهذه المناسبة كان من أبياتها أن العروبة فيما بيننا نسب ٠ وبعد انتهاء الحرب العالميـة الثانيـة ومطالبـة المصريين بجلاء الإنجليز الكامل عن مصر غنت أم كلثوم ٠

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

---

(١) أقامت أم كلثوم حفلة فى منزلها لأبطال الفالوجا الذين حوصروا خـلال حـرب فلسـطين ١٩٤٨ وكان عبد الناصر أحدهم ٠

وعندما طالب المصريون بإلغاء معاهدة ٣٦ وبرزت العمليات الفدائية فــى منطقــة القنال غنت أم كلثوم أبياتا من قصيدة حافظ إبراهيم ، وتلحين السنباطى منها ٠

وقف الخلق ينظرون جميعًا   كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ غنت أم كلثوم قصيدة من شعر أحمد رامى وألحــان رياض السنباطى مطلعها ٠

مصر التى فى خاطرى وفى فمى   أحبها مــن كل روحــى ودمــى

ثم تدفقت أغانى أم كلثوم الوطنية ويظهر ذلك جليا مع تطورات الأحــداث ، ففــى حادث المنشية غنت أم كلثوم "يا جمال يا مثال الوطنية" وعند وقوع العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ غنت نشيد "والله زمان يا سلاحى" على أضواء الشــموع وأثنــاء دوى صفارات الإنذار المنذرة بغارة جديدة على القاهرة ، وتمكنت من تسجيل هذا النشيد الذى أصبح النشيد الوطنى لمصر قبل تغييره بنشيد "بلادى بلادى" وإلى جانب ذلك غنــت أم كلثوم محلاك يا مصرى ، وثوار ، وطوف وشوف ، وعلــى بــاب مصــر ، والحــب الكبير[١]، وأصبح عندى الآن بندقية ، وكلها أغانى رصدت تاريخنا الوطنى وجعلت العديد من الشباب عندما يستمعون إلى مثل هذه الأغانى يستفسرون عن كتب التاريخ عن حقيقة ما حدث وحينما وقعت نكسة ١٩٦٧ أعلنت أم كلثوم اعتزالها الغناء بحجــة أنهــا فقــدت شهيتها للغناء بعد الهزيمة ثم عدلت عن ذلك القرار تحت إلحاح الكثيرين وعادت من أجل أن تضع صوتها فى خدمة المعركة فظهر معدنها الأصيل عندما طلبت من عشاق فنها أن يتبرعوا بالذهب ٠٠ بالدبل والأساور والأقراط من أجل المجهود الحربى وتبــرع النــاس بأغلى ما يملكون كما قامت أم كلثوم بجولات فنية متنوعه داخل مصر وخارجهــا لجمــع الأموال والمعادن النفيسة من أجل دعم المجهود الحربى فغنت فى دمنهور وجمعت ٢٨٣ ألف جنيه ، وغنت فى المنصورة وجمعت ١٢٠ ألف جنيه وغنت فى الإسكندرية وجمعت ١٠٠ ألف جنيه بخلاف السبائك الذهبية التى كان يتبرع بها الناس ، كما جابت أم كلثــوم العديد من البلدان العربية لهذا الغرض فزارت المغرب وتونس والكويت ولبنان والسودان وليبيا لجمع الملايين للمجهود الحربى ، كما سافرت إلى باريس لتغنى من أجــل إيقــاظ النخوة العربية وأودعت كل ما جمعته للمجهود الحربى ٠

---

(١) حنفى المحلاوى : سيدتان من مصــر ، خفايــا الصــراع بــين أم كلثــوم وجيهــان الســادات ، القاهرة ، دار الشباب العربى ١٩٩٤ ص ٢٨-٢٩ ٠

وخلال ذلك لاقت أم كلثوم استقبالا رائعا من شعوب هذه البلاد وحكوماتهـا ، كمـا لقيت حُبًّا وترحيبا وتكريما فاق الوصف والتصور ٠ فأم كلثوم تحمل الفن الجميل الجـاد الأصيل إلى الوجدان والثقافة فى مجتمعنا العربى ٠ وإلى جانب ذلـك قامـت أم كلثـوم بزيارة الجنود الجرحى فى المستشفيات أثناء وبعد الحملات العسكرية تبث فـيهم الأمـل وتوزع عليهم الهدايا ٠ ولم تتوقف جهود أم كلثوم على ذلك فبعـد انتصـارات أكتـوبر ١٩٧٣ وكانت الشيخوخة قد بدأت تزحف عليها حاولت حصـر جهودهـا فـى التبـرع بالأموال لمشروع يحمل اسمها وهو "مشروع أم كلثوم للخير" لخدمة جرحى الحرب ولكنه لم ير النور لمنافسة "مشروع الوفاء والأمل" له والذى نجحت السيدة جيهان السادات فـى إقامته ، وهكذا خدمت أم كلثوم وطنها ، ووقفت بجانبه خلال المحن وقدمت له العون كل العون من خلال فنها ، وكان عطاؤها بلا حدود ٠

٥- أم كلثوم ملحنا :

لقد غنت أم كلثوم فى حياتها الفنية حوالى ٧٠٠ أغنية قدمت من خلالها لجمهورها قيما دينية ووطنية عبرت فيها عن صورة متكاملة من الحب الإلهى ، وحب الوطن وحب الحبيب وكان حبها فى كل الحالات شامخا قويا يبشر بأنبل القيم وأغلاها ، كما يبشر بالرغبة فى خلق بيئة ثقافية وفنية وأخلاقية راقية ، وفى ازدهار الآمال المتفتحة فى القلوب حتـى أصـبحت جزءا من وجدان هذا الشعب الذى أطلق عليها اسم "سومة" تدليلا لها وتحببا فيها ، ولحنً لها كبار الملحنين ٠ والسؤال المطروح هو هل فكرت أم كلثوم فى التلحين كما فعل عبد الوهاب وغيره ؟ والواقع أن هذا السؤال سأله لها الصحفى المعروف فكرى أباظه بقوله ألم تفكـرى مرة فى أن تضربى بأناملك الرقيقة على العود أو القانون أو تلحنى ؟ فكان جوابها "إننى من المعتنقين مبدأ "ما لقيصر لقيصر وما لله لله " فضلا عن أننى مهما تـدربت علـى العـود أو القانون فلن أطاول أفذاذ الملحنين ٠ فهل هذا يعنى أنها لم تفكر فى التلحين لقناعتها أن هناك من هو أقدر منها على ذلك[١] ؟ الواقع أن لأم كلثوم محاولات فى التلحين كانت قـد بـدأتها مبكرة ففى عام ١٩٢٨ لحنت طقطوقه "على عينى الهجر" من كلمات أحمد رامى وفى عـام ١٩٣٦ لحنت مونولوج" يا نسيم الفجر" وإلى جانب ذلك يذكر عبد الوهاب أن محمد القصبجى الملحن الكبير كان يدرب أم كلثوم على العود حتى فترة قريبة قبل وفاته[٢] .

---

(١) رجاء القاش : مرجع سابق ص ٣٠-٣١ ٠

(٢) ضمن حوار سعد الدين وهبة مع محمد عبد الوهاب ٠ أنظر النهر الخالد ، الكويـت ، دار سـعاد الصباح ، ١٩٩٢ ، ص ٤١ ٠

٦- أم كلثوم والمسرح الغنائى :

أخذ البعض على أم كلثوم ابتعادها عن المشاركة فى المسرح الغنائى ، ومحاولة بناء أوبرا مصرية ٠ وكان رد أم كلثوم هو أن المسرح الغنائى فى مصر لم يكن أوبرا ولا أوبريتا ولا غناء مسرحيا بالمعنى المفهوم بل كان مجرد أغانى فوق المسرح لا تنسجم مع القصه المسرحية ، فكانت الأغنية تسير فى جانب والموسيقى فى جانب والقصة نفسها فى جانب ثالث ولا يربط بين هذه العناصر الثلاثة أى صلة ، وأنها لا تقبل هذا الأسلوب فى الغناء ٠ وقد حددت أم كلثوم النموذج الأوبرالى الواجب تقديمه فى مصر فقالت "نحن نستطيع بالموسيقى الشرقية والآلات الشرقية أن نقدم أوبرا صادرة عن تراثنا وحياتنا تبهر العالم كله" ولخصت ذلك فى النقاط التالية :

١- إستلهام روح التراث الموسيقى القديم وربطه بواقع الحياة المصرية ٠

٢- إعداد أصوات مختلفة لتشترك فى الغناء وإعداد كورس غنائى مدرب ٠

٣- المحافظة على الآلات الشرقية والمقامات الموجودة فى الموسيقى الشرقية ولا توجد فى الغربية ٠

وإذا تحققت هذه الظروف كلها سيظهر مولد أوبرا مصرية كفن حقيقى[١] ٠

٧- أم كلثوم فى ميزان النقد :

ترددت الأقوال عن منع أم كلثوم من الغناء ، ومنع أغانيها من الإذاعة فى بداية الثورة لأنها من العهد البائد كما ترددت أقوال أخرى حول اختيار أم كلثوم لكلمات أغانيها المليئة بالذل والهوان والاستسلام ٠

وحول ما تردد من منعها من الغناء بعد قيام الثورة نظرا لعلاقتها بالقصر الملكى ومنحها وسام الكمال لمشاركتها فى الاحتفالات الخاصة بميلاد الملك وعيد الجلوس وإعدادها الأغانى الخاصة بمثل هذه المناسبات الملكية مثل (يا مليك النيل ١٩٣٧) و(عيد الدهر ١٩٣٧) و(يا ربوع النيل ١٩٣٨) و(يا بهجة الروح ١٩٤٠) و(يا مليكى ١٩٤٣) و(مولد الفاروق ١٩٤٦) الخ ٠

هذا إلى جانب قيام الملك فاروق بتكريمها فى عام ١٩٤٥ بعد أن غنت له أغنية "فى أوان الورد" والتى اختتمتها بكلمات :

---

(١) خيرى شلبى : مرجع سابق ص ٩٨-٩٩ ٠

أعيـــــاد فــــى كــــل مكــــــان

بيــــك يــــا فـــاروق تــــزدان

متجمعـــــــة فـــــــى أوان

فيـــــه الوجـــــود فرحـــــان

فـــــــى أوان الـــــــورد(١)

وأنه نتيجة لذلك وعلى الرغم من محاولات أم كلثوم إعلان تأييدها للثورة عند قيامها وذهابها إلى الإذاعة لتشرف بنفسها على حذف بعض الفقرات الخاصة بالعهد الملكى من أغانيها ، ولا نتزاع كل ما يتصل بفاروق وعهده من كلمات ، وقيامها بغناء قصيدة صوت الوطن فى أكتوبر ١٩٥٢ (٢) فإن كل ذلك لم يشفع لها ، فقد تم بأمر من وزير الإرشاد فى حكومة الثورة منع أغانيها من محطات الإذاعة المصرية باعتبارها أحد رموز النظام الملكى السابق حتى تدخل جمال عبد الناصر فور علمه بالقرار ، وأمر بإلغاء قرار المقاطعة فورا ، وإعادة إذاعة أغنيات أم كلثوم وإعادة حقوقها المادية عن إذاعة بعض أغانيها التى صاحبت بيانات الثورة(٣) قائلا إذا كنتم تريدون منع أم كلثوم من الغناء اهدموا الهرم الأكبر(٤) .

هذا حول ما تردد عن منع أم كلثوم من الغناء عند قيام الثورة . أما عن تعرض البعض لنقد أغانى أم كلثوم فقد قال البعض أنها كانت تختار الأغنيات المليئة بالذل والهوان والحزن والتى تدعو إلى الاستسلام الجماعى من نوع (حتى الجفا محروم منه) وغيرها من الأغانى التى تذرف الدمع حزنا على فراق الحبيب ، وتذكر كمية ساعات الليل التى لم تر فيها العيون نوما شوقا إلى لقائه ، وقال آخرون أن خيالاتها الغنائية الطويلة جعلت الناس يتعاطون المخدرات وأنها تدعو إلى التعصب الدينى عن طريق أغانيها الدينية وأنها حجبت المواهب الغنائية عن الظهور ، والحقيقة غير ذلك فقد استطاعت أم كلثوم أن ترتقى بمستوى الفن الغنائى وحماية الذوق العام فى الوقت الذى

---

(١) نبيل حنفى : أم كلثوم بين عهدين . مقال بهلال فبراير ٢٠٠٢ ص ١٤٨-١٥١ .

(٢) مجلة الإذاعة المصرية . العدد ٩١٨ فى ١٩٥٢/١٠/١٨ .

(٣) حنفى المحلاوى : سيدتان من مصر ص ١٥٠-١٥١ .

(٤) وحول الروايات التى تناولت ذلك الموضوع أنظر سعيد عكاشة . عبد الناصر وأم كلثوم مقال فى هلال نوفمبر ٢٠٠١ ص ١٢٥-١٢٧ .

كانت فيه مطربات القاهرة المشهورات مجرد عوالم أو أسطوات يسطعن فـــى الأفـــراح والليالى الملاح، ويخلطن غنائهن البدائى برش الملح والزغاريد والرقص ، وأنه بـــالرغم من غياب أم كلثوم وانفتاح الأبواب أمام كل الأصوات ، فقد ظل مكانها شاغرا لا يستطيع أحد أن يملأه، وظلت أم كلثوم سيدة الغناء العربى بلا منازع ، فهى وإن كانت روحها قد ذهبت إلى دار البقاء ، فإنها لم تمت فنيا بل سوف تبقى ما دام الجمال متعه وهدفا

٨- قصة أم كلثوم مع زكريا أحمد :

يحتل زكريا أحمد فى التسلسل التاريخى لملحنى أم كلثوم المركز الرابع بعد الشـــيخ أبو العلا ، والدكتور النحريرى ، ومحمد القصبجى ، ومع ذلك فـــإن دوره فـــى إبـــراز عبقريتها الغنائية كان أساسيا ويرجع أول لقاء بينهما إلى الثانى من يونيو ١٩١٩ فى بلدة السنبلاوين دقهلية حيث غنت له مع أخيها خالد . وبعد ذلك بثمانية أيام قام بزيارتها فـــى قريتها "طماى الزهايرة" وأقنع والدها الشيخ إبراهيم بأهمية انتقالها إلى القاهرة ، واحتراف الغناء ، والانتقال من الإنشاد الدينى إلى الإنشاد الدنيوى .

وقد لحن زكريا أحمد لأم كلثوم ٦٠ أغنية من الصيغ والقوالب الغنائية المختلفة كان أولها طقطوقة "اللى حبك يا هناه" فى مطلع الثلاثينيات و"جمالك ربنا يزيده" ثم لحن لهـــا "أهل الهوى ياليل" و"أنا فى انتظارك" و"كل الأحبة إثنين إثنين[١] " كما تبارى فى تلحـــين معظم أفلامها مع القصبجى والسنباطى .

وعما أحدثته أم كلثوم من تأثير عليه كتب الشيخ زكريا يقول "أصبحت مفتونا بها ، لأننى أحببتها حب الفنان للحن الخالد" وذلك الاعتراف بافتتانه بها يفسر ما أودعـــه مـــن روحه الحية فى الحانه لها[٢] .

لقد كان زكريا أحمد يقدر أم كلثوم تقديرا شخصيا كبيرا ، ويتغزل فى عبقرية صوتها معتبرا إياه هبة استثنائية من السماء كما كان يشيد بشخصيتها الفنية المؤثرة ، ويعتبرهـــا خير من يؤدى ألحانه وبالرغم من ذلك فقد حدثت قطيعة بينهما استمرت عشـــر ســـنوات بسبب الأجر المادى وإصراره على الندية فى التعامل معهـــا [٣] ولعـــب الـــبعض دورا مقصودا فى إساءة العلاقة بينهما حتى توترت الأمور ووصلت إلى أبواب المحـــاكم ممـــا

---

(١) عبد الحميد زكى : مرجع سابق ص ٤٨ .

(٢) هشام فاروق : شيخ الملحنين وهواه الغلاب ، مقال بهلال أكتوبر ٢٠٠٠ ص ١٦٤ .

(٣) الياس سحاب : مقال فى وجهات نظر سبق ذكره ص ٥٤ .

أوقف ثمار التعاون بينهما حتى تدخل الرئيس عبد الناصر فى الأمر ، وأبدى أسفه ذات يوم لأم كلثوم من حرمان عشاق فنها وفن زكريا من تعاونهما معها ، فسعت لتصفية الخلاف إحتراما لرغبة عبد الناصر ٠ وأمام المحكمة أبدى زكريا أحمد أمام القاضى إستعداده للتنازل عن القضية والتعاون مع أم كلثوم بلا شروط ، وبلا مقابل أيضا ٠ كما رحبت أم كلثوم بالتعاون مع الشيخ زكريا وبكل الشروط التى يطلبها ٠ وبعد أسابيع قدم زكريا أحمد لحنه لأغنية "هوّه صحيح الهوى غلاب" لأم كلثوم التى استقبلته فى بيتها بعد سنوات الفراق الطويلة ، وجلس زكريا أمامها وأمسك بعوده ، وراح يغنى كلمات اللحن :

هو صحيح ٠٠ الهوى غلاب ما عرفش أنا

وانتهى من أداء الأغنية التى تدور معانيها حول ما وراء الحب من أشجان وألم وندم لا يفيد ، وتحول نهار العشاق إلى ليل ، ولما سألته أم كلثوم ألم تلحن شيئا آخر ؟ وكان زكريا - الذى يعرف أم كلثوم جيدا - مستعدا للسؤال ، فأجابها على الفور : بلى ٠٠ وقد فعلت ! ثم غناها نفس الأغنية بلحن آخر ، مختلف تماما عن الأول وسمعته أم كلثوم فحارت بين اللحنين ، أيهما أجمل ٠ ولم يدعها زكريا لحيرتها طويلا ، وإنما قال لها بلهجة معبرة ٠ لن تغنى هذا اللحن ولا ذاك ، ولكن ستغنين هذا اللحن ! ثم أسمعها نفس الأغنية بلحن ثالث مختلف تماما عن اللحنين السابقين ، وهو اللحن الذى غنته للجماهير بعد ذلك ٠ وكان قد استعد به لمواجهة طبيعة أم كلثوم الفنية التى يعرفها عن ظهر قلب ٠ ويعرف عنها أنها لا تقنع أبدا بأول محاولة فنية ، فاستعد لها بتلحين الأغنية بثلاثة ألحان مختلفة حتى لا تطلب أى تعديل ٠ وشدت أم كلثوم بالنغم الأصيل بعد طول انقطاع٠ وطرب الناس له ٠٠ وتذكروا الأيام الجميلة التى كانت أم كلثوم لا تغنى فيها إلا من ألحان زكريا أحمد ٠ وتذكروا إفتتان زكريا أحمد بصوت أم كلثوم الذى لا يغيب عن باله ولكن العمر لم يمهل زكريا أحمد لكى يقدم لأم كلثوم مزيدا من هذا النغم الأصيل[١] ٠ ففى ١٤ فبراير ١٩٦١ صعدت روح زكريا أحمد إلى بارئها بعد قدم العديد من الألحان الخالدة التى خلفها من عصارة قلبه واحساساته الفياضة التى لن تموت أبدا[٢] ٠

---

(١) عبد الوهاب مطاوع : عاشوا فى خيالى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ١٩٩٩ ص ٩١ - ٩٢ ٠

(٢) عبد الحميد زكى : مرجع سابق ص ٤٨-٥٠ ٠



ليلى مراد



محمد فوزى



نجيب الريحانى



أسمهان



شكوكو

٩- مقلدات أم كلثوم ومطربات عصرها

بعد رسوخ أسلوب أم كلثوم فى الغناء ، وتمكنها من فتح مغـاليق الحـس والتـذوق الغنائى للمستمعين ، وانفرادها بين كافة معاصريها بالإعجاب ، وفد إلى الساحة الغنائيـة مطربات جديدات فظهرت "آمال الأطرش" شقيقه الموسيقار "فريد الأطرش" ذات الصوت الشجى الرائع الحساس المعبر والمسيطر على الوجدان لتغنى أغانى أم كلثوم التى كانـت من أحب المطربات إلى قلبها ، والتى كانت من أكثر المعجبات بصوتها خاصـة وأنهـا كانت أسبق من غيرها من المطربين والمطربات من تبيان ما فى صوت أم كلثـوم مـن ألوان وطبقات لم يهبها الله لصوت مطربة سواها (١) وبعد أن استمع الملحن "داود حسنى" إلى صوتها فى عام ١٩٣١ تعهدها بالرعاية وأسماها "أسـمهان" وعنـدما اسـتمع إليهـا الموسيقار "مدحت عاصم" دهش لصوتها الساحر المنطلق من الأسـس المحافظـة إلـى آفاق الكلاسيكية العربية الحديثة بما يتجاوز الحدود التى أصرت أم كلثوم علـى التوقـف عندها (٢) فأخذ يتعهدها بالرعاية وإتاح لها الغناء بالإذاعة حتى خرجت على المسـتمعين بلون جديد من الغناء واتسعت شهرتها ، وبدأت السينما تتجه إليها ، وكان أول فيلم تغنـى فيه هو مجنون ليلى ثم زاد من نجاحها وشهرتها فيلم "إنتصار الشباب" الذى عرض فـى عام ١٩٤٠ وقامت ببطولته مع أخيها فريد الأطرش ونجح نجاحا باهرا (٣) . أما عن أمتع أغانيها فكانت "ليالى الأنس فى فينا" ضحكتك حلوة يا حبيبى" إمتى حا تعرف إمتى" " يـا بدع الورد يا جمال الورد" وعلى الرغم من قيام النقاد بترشيحها للمكان الثانى فى عـالم الغناء بعد أم كلثوم ، فقد اختفت لفترة ثم عادت مـرة أخـرى فـى عـام ١٩٤٤ حيـث شاركت فى فيلم "غرام وانتقام" الذى تقاسمت بطولته مع يوسف وهبـى وانشـغلت فـى تسجيل أغانيه ثم إنتهت حياتها فى عمر الزهور عن اثنتين وثلاثين عاما حيث اختفت إلى الأبد بعد حادث مريب لقيت فيه مصرعها غرقا أثناء ركوبها سيارة إنقلبت بها فى ترعـة الساحل بالقرب من المنصورة خلال سفرها إلى "رأس البر" للاصطياف فـى ١٤ يوليـو ١٩٤٤ .

---

(١) سعيد أبو العينين : أسمهان لعبة الحب والمخـابرات ، القـاهرة كتـاب اليـوم ، سـبتمبر ١٩٩٦ ص ١٢-١٣ .

(٢) إلياس سحاب : أم كلثوم وملحنوها ، ص ٥٢ .

(٣) سمير فريد : فريد الأطرش لحن الخلود ، القاهرة ، أمادو للنشر ١٩٦٦ ص ٣٨ .

وعلى الرغم من أن أصابع الاتهام فى تدبير مصرع "أسمهان" تشير إلـى أجهـزة المخابرات البريطانية التى لعبت معها ولحسابها ثم إنقلبت عليها ولعبت ضدها ، فقد سرت شائعة فى معظم أنحاء مصر غداة مصرعها بأن أم كلثوم هى التى دبرت لهـا الحـادث خشية منها على مكانتها[١] .

والحقيقة أن أم كلثوم كانت بعيدة تماما عن هذا الادعاء ، وأن المخابرات البريطانية كانت وراء هذه الشائعة لتخفى دورها فى اغتيالها بعد أن ثبت دورها المزدوج وعلاقتهـا بالمخابرات الألمانية والإنجليزية . وظهرت ليلى مراد [٢] تلك المطربـة ذات الصـوت العذب البديع الذى أعطى للغناء العربى مذاقا خاصا والتى استطاعت أن تربط بين الحب والجمال في أذهان مستمعيها . فقد نشأت على تقليد أم كلثوم ثم انفردت بطريقتها المستقلة خاصة بعد أن شعرت أن الغناء على المسرح أمام التخت ساعات طوالا كما كانت تفعل أم كلثوم من الصعب تكراره ، فالتزمت حدودها كمطربة سينمائية الصـوت والأداء ، لقـد برزت ليلى مراد فى عصر الأصوات الجميلة القوية المدربة ، واسـتحقت لقـب ملكـة الأغنية السينمائية بجدارة حيث أتاحت لها السينما غناء العديد من أجمل الأغانى التى تألق فيها صوتها الجميل ذو البحة الخفيفة النادرة التى تنتاب نبراته بين الفينة والأخـرى فـى النغمات ، فاشتركت فى مجموعة من الأغانى الفكاهية التى ما زال الناس يطربـون لهـا مثل ديالوج "الشحات" مع المطرب محمد فوزى وديالوجات أخرى مـع إسـماعيل يسـن وشكوكو ونجيب الريحانى وغيره ، وقد لحن لها عبد الوهـاب العديـد مـن أغانيهـا ، واستخدم أعلى طبقات صوتها فى فيلم "يحيا الحب" كما لحن لها القصبجى لحنه المـدهش (أنا قلبى دليلى عام ١٩٤٧) ولحنين جميلين فى فيلم شاطئ الغرام[٣] .

وبعد أن أعطت ليلى مراد أجمل ما عندها ، واقتربت من سن الشيخوخة انسحبت من مسرح الغناء فى هدوء ورأت أن تبقى حلما جميلا فى نفوس مستمعيها . كمـا ظهـرت المطربة اللبنانية "ألكسندرا بدران" التى اسماها يوسف وهبى "نور الهدى" ولكن نجاحها لم يستمر طويلا .

---

(١) أبو العينين : مرجع سابق ص ٢٢٦ .

(٢) نشأت فى أسرة فنية فوالدها المطرب زكى مراد ، وشقيقها الملحن منير مراد وقد أحبت الغناء مـن أبيها الذى ورثت عنه جمال الصوت .

(٣) القاهرة ، العدد ١٥٨ فى يناير ١٩٩٦ مقال للأستاذ كمال النجمى تحت عنوان "ليلى مـراد ملكـة الأفلام الغنائية" .

وظهرت نجاة على مقلدة لصوت أم كلثوم مستغلة فى ذلك معدن صـــوتها الجميـــل ، وعاشت أسيرة هذا التقليد ثم تزوجت واعتزلت الغناء بعد ذلك ولم يثر اعتزالها تساؤلا أو دهشة ، وكذلك فعلت رجاء عبده وفتحية أحمد ، وسعاد محمد ، ونادرة وفيروز ، ومـــن المؤكد أن مطربات مثل لطيفة وعليا التونسية أو سميرة سعيد المغربية وغيرها توصـــلن إلى الشهرة عن طريق ترديدهن لأغانى أم كلثوم ، ولكن قوة صوت أم كلثوم ومســـاحته الواسعة دفعهن إلى التحرك بتلقائية نحو مجالات أخرى من الغناء وهكذا فشلت الكثيرات ممن أردن تقليد أم كلثوم ، والجلوس على عرشها خاصة وأن صوتها كان جزءا منهـــا لا ينفصل عنها ، صوت ليس ككل الأصوات ، كانت تغنى للغناء وحين تشاء لا كما يشـــاء الآخرون[١] ، لذلك فإن مقارنة صوتها بغيره من الأصوات يضره أكثر ممـــا ينفعـــه . وعلى كل حال فالسؤال الذى يطرح نفسه هو . هل كان يجب على أم كلثوم أن تتوقـــف عن الغناء فى سنواتها الأخيرة كما توقفت عن التمثيل عندما اقترب سنها مـــن الخمســـين خاصة وأن ما قدمته للطرب العربى يكفيها عظمه وأبهة ، وبعد أن ظهر فى آخر حفلاتها أن صوتها تقطع ، وأنها أخذت تعثر على السلم الموسيقى حتى تدحرجت الـــدموع مـــن العيون ، يقول أنيس منصور أنه كتب مقالا وجهه بصورة غير مباشرة لأم كلثوم أملا أن تكف عن الغناء فى سنواتها الأخيرة وطلب إليها أن تقرأه وموضوع المقال ماذا يحدث لو أن أم كلثوم توقفت عن الغناء منذ سنوات ؟ فالذى قدمته للغناء كثير ، وهذا الكثير يجعلها تنفرد بالعظمة فى الأداء والغناء ولكن أم كلثوم لم تع هذا المعنى ، ولـــم تكـــن تريـــد أن تتوقف[٢] بل أرادت أن يستمر عطاؤها طالما بقيت على قيد الحياة .

أم كلثوم يندر تكرارها :

وهكذا كانت أم كلثوم ذلك النبع الصافى من الفن الرقيق العذب الصادق الذى أســـهم إسهاما جوهريا فى خلق الأساليب المتطورة للتلحين والعزف والإيقـــاع ، وذلـــك الـــنغم الجميل الذى اخترق الآفاق والذى رفع قدر المطربة وفرض احترامها على الناس فواجهها الناس بسلوك محترم حتى رحلـــت فى الخامس من فبرايـــر ١٩٧٥ [٣] بعـــد أن أعطت

---

(١) لمعى المطيعى : نساء ورجال من مصر ، مرجع سابق ص ١١-١٢ .

(٢) أنيس منصور : عاشوا فى حياتى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٠ ص ٣٩٠ .

(٣) في الساعة الحادية عشرة من اليوم المذكور بدأ سير الجنازة وكان من المقرر أن تنتهى عند جـــامع جركس ، ولكن المشيعين لم يأبهوا لذلك ، بل توجهوا إلى مسجد الإمام الحسين حيث صـــلوا علـــى جثمانها هناك وسط حشد هائل من محبيها ، لمعى المطيعى : مرجع سابق ص ١٨ .

لمصر والعالم العربى فنا رفيعا راقيا ، وكان حب الناس لها من حب الوطن وكانت حديث الناس فى العالم العربى كله ، وفى العواصم العالمية التى يعيش بها الآلاف من العرب .

إنها ظاهرة ومعجزة فنية وثقافية من النادر تكرارها ، فقد ظلت حوالى نصف قرن تبشر بأنبل القيم وأغلاها وهو الحب ، وكلما انقضت الأيام ثبت أن صوتها خالد خلود الزمن ، وأن أغانيها ما زالت قبلة الشباب والشيوخ معا .

لقد امتلكت كوكب الشرق القلوب وملكت نفوذا هائلا ، وحصلت على أرفع الأوسمة من أغلب الحكومات العربية ، وظلت مكانتها فى قلوب الملايين خالدة حتى رحلت أم كلثوم بجسدها وإن ظلت باقية بفنها الأصيل ، وتراثها الغنائى الجميل الذى تزخر به مكتبات الإذاعة والتليفزيون فى كافة أنحاء الوطن العربى ، ولا يزال صوتها العبقرى يملأ الأسماع بأحلى ما صاغته عقول شعرائنا من أغنيات تحمل أسمى المعانى وأجمل الأفكار لتصوغها لحنا من إبداعات عمالقة الملحنين[١] .

والسؤال الذى يتردد على ألسنة الناس غالبا هل تتكرر ظاهرة أم كلثوم ؟

الواقع أنه إذا تغير المناخ الذى يعيشه فن الموسيقى والطرب الحالى ، وتناسى المطربون الجدد فكرة الكسب السريع ووقفت الدولة بالمرصاد لمفسدى الذوق المصرى ، وتنافس الشعراء والملحنون فى إبداع أحلى ما تجود به قرائحهم كما كان يحدث أيام أم كلثوم يمكن أن يبرز على الساحة الغنائية أمثال أم كلثوم التى صبرت فى بداية حياتها كثيرا حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ، فمصر دائما ولادة والأمل لا يزال قائما فى الأصوات الواعدة التى يمكن أن تتكرر منها مثل هذه الظاهرة الفريدة .

ما بين أم كلثوم وعبد الوهاب

لقاء القمة بين أم كلثوم وعبد الوهاب ما هو أسباب تأخره طوال هذه السنين ، وكيف تعرف عبد الوهاب على أم كلثوم وهل ما كان بينهما منافسة أم جفاء وما هو الوسيط الذى جمع بينهما أخيرا ؟ كل هذه أسئلة طرحها البعض واختلفوا فى تفسيرها وفيما يلى نعرض لذلك .

لقد روجت صحافة الثلاثينيات والأربعينيات لما بين أم كلثوم وعبد الوهاب من تنافس وصل إلى حد القطيعة وانقسم الرأى العام فى الإشادة بفن كل منهما لدرجة أنه بعد أن نشرت إحدى المجلات فى عام ١٩٣٣ أن عبد الوهاب سيقوم بتمثيل فيلم "الوردة البيضاء" ترددت شائعة تقول إن أم كلثوم ستمثل فيلما اسمه "الوردة الحمراء"

---

(١) الضمرانى : مرجع سابق ص ٦٦ .


أم كلثوم


محمد عبد الوهاب

ولما قامت أم كلثوم بالتمثيل فى فيلم "وداد" دبت روح الغيرة فى عبد الوهاب ، فأسند بطولة فيلمه الثانى "دموع الحب" إلى أشهر مطربة بعدها حينذاك وهى "نجاة على" ونتيجة لذلك حدثت محاولات عديدة تهدف للجمع بينهما فى عمل مشترك فبذل طلعت حرب جهودا من أجل ذلك ولكنه لم يوفق واستمر التنافس على عرش الغناء بينهما ، وكل منهما يحاول أن يجذب إليه جمهور الآخر حتى نجح الرئيس عبد الناصر فى تحقيق اللقاء بينهما فى لحن واحد ، ففى الاحتفال السنوى بثورة يوليو عام ١٩٦٣ أقام نادى الضباط حفلا ساهراً حضره الرئيس عبد الناصر وكانت أم كلثوم وعبد الوهاب من المدعوّين فى الحفل ٠ وفى أثناء تقديمهما التهانى بالعيد للرئيس طلب عبد الناصر منهما تقديم عمل فنى مشترك ، وكانت "إنت عمرى" التى غنتها أم كلثوم فى ١٢ فبراير ١٩٦٤ بداية هذا العمل الذى حقق نجاحا جماهيريا كاسحا ، وكانت مزيجا براقا من الجمل العذبة والإيقاعات الراقصة فى مقدمة موسيقية طويلة استغرقت ربع ساعة إستمع إليها أكثر من مئة مليون عربى عبر الأثير[١] ٠ وقبل أن تبدأ أم كلثوم فى الغناء ، وحرصا من عبد الوهاب على نجاح هذه التجربة وقف خلف الستار يقرأ القرآن الكريم وهو يجرى البروفات الأخيرة خاصة على مقدمته الموسيقية ، كما شاركته أم كلثوم فى البروفات الأخيرة ٠

---

(١) رتيبه الحفنى : مرجع سابق ص ٩٢-٩٨ ٠

وعندما بدأت أم كلثوم فى الغناء وقف عبد الوهاب وهو يرتجف خشية الفشل يستمع لقيثارة السماء تشدو بألحانه لهذه الأغنية الرفيعة المعانى التى وضع كلماتها الشاعر أحمد شفيق كامل ، وظل عبد الوهاب يسمع من خلف الكواليس وقلبه يخفق وكانت يداه لا تكفان عن الحركة ، وشفتاه ترددان آيات من القرآن الكريم حتى صفق الناس لمقدمته الموسيقية وطالبوا بإعادتها أكثر من مرة والناس تصفق ، ثم بدأت أم كلثوم تغنى والنـــاس تتمايـــل طربا ٠

رجعونى عينيك لأيامى اللى راحـــوا — علمونى أندم علـــى الماضـــى وجراحــه

اللى شفته قبل ما تشــوفك عينيــه — عمـــر ضـــايع يحســـبوه إزاى عليـــه

انـــت عمـــرى اللـــى ابتـــدا بنـــورك صـــباحه

قد إيـــه مـــن عمـــرى راح وعـــدا — يا حبيبـــى قـــد إيـــه مـــن عمـــرى راح

ولا شاف القلب قبلك فرحة واحـــدة — ولا داق فى الدنيا غيـــر طعـــم الجـــراح

ابتديت دلوقت بـــس أحـــب عمـــرى — ابتديت دلوقت بس أخاف للعمـــر يجـــرى

كل فرحة إشتقها من قبلـــك خيـــالي — إلتقاها من نـــور عنيـــك قلبـــى وفكـــرى

يا حياة قلبى يا أغلى مـــن حيـــاتى — ليه ما قابلتنيش هواك يا حبيبـــى بـــدرى

واللى شفته قبل ما تشـــوفك عنيـــه — عمـــر ضـــايع يحســـبوه إزاى عليـــه

انـــت عمـــرى اللـــى ابتـــدا بنـــورك صـــباحه

الليالى الحلوة والشـــوق والمحبـــة — مـــن زمـــان والقلـــب شـــايلهم عشـــانك

دوق معايا الحب دوق حبـــه بحبـــه — من حنان قلبى اللى طال شـــوقه لحنانـــك

هات عنيك تسرح فى دنيتهم عنيـــةً — هـــات إديـــك ترتـــاح للمســـتهم إديِّـــه

يا حبيبى تعالى وكفايه اللـــى فاتنـــا — هـــو فاتنـــا يـــا حبيـــب الـــروح شـــويه

واللى شفته قبل ما تشـــوفك عنيـــه — عمـــر ضـــايع يحســـبوه إزاى عليـــه

إنـــت عمـــرى اللـــى ابتـــدا بنـــورك صـــباحه

يـــا أغلـــى مــــن أيـــامى ... يـــا أحلـــى مـــن أحلامـــى

خـــدنى بحنانـــك خـــدنى ... عـــن الوجـــود وابعـــدنى

بعيـــد بعيـــد أنـــا وانـــت ... بعيـــد بعيـــد وحـــدينا

ع الحـــب تصـــحى أيامنـــا ... علـــى الشـــوق تنـــام ليالينـــا

ســـامحت بيـــك أيـــامى ... صـــالحت بيـــك الـــزمن

نســـيت بيـــك آلامـــى ... ونســـيت معـــاك الشـــجن

رجعونى عنيك لأيامى اللـــى راحـــوا ... علمونى أندم علـــى الماضـــى وجراحـــه

اللى شفته قبل مـــا تشـــوفك عنيـــه ... عمـــر ضـــايع يحســـبوه إزاى عليـــه

انـــت عمـــرى اللـــى ابتـــدا بنـــورك صـــباحه

لقد بكى عبد الوهاب وهو يسمع الناس تستزيد أم كلثوم حتى أعادت المذهب ست مرات وهم يصفقون ويهللون بطريقة غريبة من الإعجاب ، ولما اطمأن عبد الوهاب لهذا النجاح عاد إلى بيته ليستمع إلى بقية الأغنية فيه ، وبعد أن انتهت الأغنية أرادت أم كلثوم أن يكون عبد الوهاب معها أثناء تحية الجمهور ولكنه اعتذر بلباقة بحجة أنه يخاف كثيرا من مواجهة الجماهير .

وهكذا كان هذا اللقاء التاريخى خطوة كبيرة إلى الأمام ، لحن عبد الوهاب كلماته حرفا حرفا ، فعندما شدت أم كلثوم الليالى الحلوة ، أو دوق معايا الحب يشعر الإنسان أن هناك دعوة للحب ، وفى لحن يا حبيبى تعالى وكفاية اللى فاتنا يحس المستمع إلى أن هناك تضرع وابتهال إلى الجالس فى معبد الحب ، وهكذا كانت كل كلمة من الأغنية تشعر من يسمعها أن الذى لحنها تفحص حروفها حرفا حرفا وعاش فيها أياما وليالى قبل أن تخرج إلى الناس . وهكذا ظلت الأغنية خالدة ترددها الأجيال المتعاقبة دون أن يخبو لمعانها [1] ثم تبع ذلك أعمال مشتركة بينهما وهى :إنت الحب" و"أمل حياتى" و"فكرونى"،

([1]) مصطفى الديوانى : قصة حياتى ، مرجع سابق ص ٢٦١-٢٦٨ .

و"هذه ليلتى" و"دارت الأيام" و"غداً ألقاك" و"ليلة حب" و"على باب مصر" و"أصبح عنـدى الآن بندقية" . لقد نجح عبد الوهاب بتقانينه وتقاليعه الموسيقية وأن يكون مختلفـا مـع أم كلثوم عمن سبقوه فوضع ألحانه فى إطار مبهر استطاع به تقريب أم كلثـوم مـن أذواق الشباب ، مما أوجد جمهورا من الجيل الجديد الذى إزدادت حماسته لأم كلثوم ، كمـا أن الحان عبد الوهاب استطاعت أن تقدم شيئا جديدا لهذا الصرح الشامخ[١] .

لقد نجح عبد الوهاب فى أن يفيد من أم كلثوم وتأثيرها على الجمهور ، كما استفادت أم كلثوم من عبقرية عبد الوهاب الموسيقية خاصة وأن كلا منهما أحدث إنقلابـا كبيـرا إنسابت فيه ألحان عبد الوهاب من شفتى أم كلثوم وانطلق صوت أم كلثوم من تجليات عبد الوهاب .

والسؤال كيف تواصل اللقاء بين عبد الوهاب وأم كلثوم وما هى أحلام كـل منهمـا التى لم تتحقق ، ولماذا لم تتحقق ؟ وهل تحول عبد الوهاب إلى كلثـومى أم أصـبحت أم كلثوم تعتنق موسيقى عبد الوهاب ؟ ومن منهم أثر فى الآخر وكيف استطاع عبد الوهـاب أن يقنع أم كلثوم بالجديد فى استخدام الآلات الموسيقية ؟

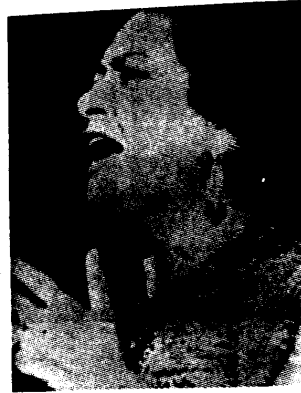
كل هذه التساؤلات أجاب عليها عبد الوهاب فى حواره مـع سـعد الـدين وهبـه والذى ذكر فيه أنه فكر مع أم كلثوم فى أن يشتركا معا فـى اختيـار قصـائد غنائيـة لشعراء عرب من كافة البلاد العربية ، بحيث يكون لكل بلد عربـى أغنيـة مـن نظـم أحد شعرائه وتم تنفيذ الفكرة بجورج جرداق فى "هذه ليلتى" ، بالهادى آدم مـن السـودان فى "أغدا ألقاك" وكانا فى الطريق إلى اختيار قصـيدة للشـاعر التونسـى أبـو القاسـم الشابى . كما فكرا فى تلحين وغناء "مجنون ليلى" ذلك الكنز العظيم الذى تركـه شـوقى ولكن القدر لم يمهل أم كلثوم المشاركة فى ذلك ، فقد وافتهـا المنيـة قبـل تحقيـق مـا إتفقا عليه[٢] .

---

(١) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ١٢٤ .

(٢) انظر النهر الخالد ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

وبالنسبة لأثر ألحان عبد الوهاب على غناء أم كلثوم فيتضح أن أم كلثوم كانت قبل عبد الوهاب تغنى للخاصة ، فلما لحن لها عبد الوهاب أخرجها عن سلوكها الفنى الكلاسيكى فاستمع إليها العامة وكان لموسيقاه ذات الايقاعات الراقصة المتحركة وإدخاله الآلات الكهربائية الحديثة مثل "الأورج" و"الجيتار" أكبر الأثر فى استماع العامة لها ، وكانت هذه بداية النقلة فى أم كلثوم من القديم إلى الجديد ، فقد غيرت فى طريقة التأدية لتتواءم مع اللحن . وفى الحقيقة أن أم كلثوم كانت تستطيع التلاؤم مع الظروف المتغيرة ، ومع الموجة الحديثة أيضا فقد قربت أم كلثوم الملحنين الشبان لإحساسها بالحاجة إلى دم جديد تجدد به فنها ورحب بذلك الملحنون الذين كانوا فى حاجة إلى صوتها المعجز ، بالتلحين لها وقد بدأت هذه المرحلة بلحن لبليغ حمدى "حب أيه" عام ١٩٥٩ وانتهت سنة ١٩٧٣ "بحكم علينا الهوى" لبليغ حمدى أيضا ، كما أنها قربت محمد الموجى منها وطالبته بالتلحين لها وقدمت له كلمات أغنية "اوقدوا الشموع" لتلحينها ولما نال اللحن إعجابها طالبته بأن يلحن "حانة الأقدار" و"محلاك يا مصرى" كما كلفته بأن يلحن لها "للصبر حدود" وإلى جانب ذلك قام سيد مكاوى بتلحين أغنية "يامسهرنى" لها .







٩ صالونات نسائية (مي زيادة – هدى شعراوي)

صالون مى زيادة:

وعن صالون "مى زيادة"[١] الأديبة الشاعرة القوية الحجة وصاحبة القلم[٢] التى اهتمت بتحرير المرأة واعطائها حقوقها السياسية والتى عاشت على ضفاف النيل وتالق نجمها، ونالت من الشهرة ما لم تنله أديبة مثلها فى عصرها خاصة وأنها اتقنت فن المقال والخطابة والنقد بالإضافة إلى تفتح مواهبها الشعرية لدرجة أن مجلسها كان متحفا لألوان مختلفة من الألحان والشعر والأحاديث الأدبية وقلما خلا من كبار الأدباء والمثقفين فقد تزاحم على الاقتراب منها أبناء جيلها من الأدباء والمثقفين، وكبار الشخصيات خاصة وأنهم من الجيل الذى لم يتعود على اختلاط امرأة تكشف عن وجهها وهى فى بهجة الصبا، وعذوبه الأنوثة تناقشهم وتبادلهم أطراف الحديث بأسلوب لبق، وجرأة مثيرة للدهشة تتحدث خلالها عن تحرير المرأة وأهمية افساح المجال أمامها فى العلم والعمل.[٣] وعن هذا الصالون نذكر أنه كان كعبة لرجال الفكر ومنارة للثقافة المعاصرة والفن والشعر والأدب قصده أناس عديدون منهم من يتحدث العربية بلهجة قاهرية، ومنهم من يتحدثها بلهجة حلبية، ومنهم من يتحدث الانجليزية، ومنهم من لا يحلو له الحديث إلا بالفرنسية فقد قصد هذا الصالون عدد غير قليل من الرجال وفيهم أكثر من أعزب عاش حياته بلا زوجة، وفيهم المتزوج ومنهم من هو من لبنان وسوريا كخليل مطران، وداود بركات وجرجى زيدان وانطون الجميل وشبلى شميل ويعقوب صروف ونجيب هواوينى، وبعضهم من مصر كلطفى السيد، وعباس العقاد، ومصطفى عبد الرازق ومصطفى صادق الرافعى وأمين واصف، وأحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، والشيخ عبد العزيز البشرى، ومصطفى صادق الرافعى، ومنصور فهمى، والدكتور على ابراهيم وطه حسين وغيرهم حيث كانوا يتبادلون كل عصر ثلاثاء اسبوعيا فى شقتها الملاصقة لجريدة الأهرام[٤] بشارع أبو السباع[٥] والقريب من سينما مترو وسينما ميامى أشهى الأحاديث الأدبية والفكرية، والأبيات العذبة من الشعر الرصين، والنوادر الطريفة والدعابات الحلوة، والسمر المؤنس فى منازع الفكر والأدب

---

(١)اسمها الحقيقى مارى الياس زيادة، وقد ولدت بالناصرة فى عام ١٨٨٦ من أب لبنانى وأم فلسطينية، ورحل والدها إلى القاهرة فى عام ١٩٠٨ حيث أسس مجلة المحروسة.

(٢)كتب عباس العقاد عن صالون مى زيادة بقوله "جعلت مى" مباحثها كلها سمرا مؤنسا، وصيرت الدنيا كلها غرفة استقبال لا يصادف فيها الحسن ما يصدمه ويزعجه، أو هى صورتها متحفا جميلا منضودا لا تخلو زاوية من زواياه من لباقة الفن، وجودة الصنعة، فان كان للمنظر من مناظر الدنيا حسنة وروائه ففيهما الكفاية، وعليهما مزيد من مهارة التنسيق، وبراعة الترتيب تجود به الأنسة من عندها وان لم يكن له هذا النصيب من الحسن والرواء فلن يحرم فى المتحف المكان الممهلة، ولا الإطار المحلى، ولكنه ينالهما وعليهما مزيد من مهارة التنسيق، وبراعة الترتيب أيضا: غطاء موشى سمين وكن من شئت... ثم اقرأ كتابة الآنسة مى لا تجد فيها ما يغضبك أو تظن أنه مناقضة مصوبة أليك فى هوى نفسك ومنزع فكرك، وليكن لك رأيك فى أسلوب الكتابة أو نمط التفكير أو صيغة التعبير، فما من كاتب إلا وللناس فى أسلوبه وتفكيره وصيغ تعبيره أراء لا تتفق. أما الانسان فى "مى" ذلك الكائن الشاعر الكامن وراء الكاتب منها والمفكر والمعبر- فلا يسع الأراء المتفرقة إلا أن تتفق فيه وتصافحه مصافحة السلام والكرامة".

(٣)عباس العقاد: أنا، ص ١٦.

(٤)محمد عبد الله عنان: ثلثا قرن من الزمان، ص ١١٨.

(٥)شارع عدلى حاليا.

والفن[١]، وكان الجميع يحاولون كسب ودها والظفر بمرضاتها فى تحفظ واحتياط[٢] وهى تستثير عواطفهم إذ تتلطف معهم وتقترب وتبتعد من الواحد منهم بعد الأخر كما كانت تفتح من خلال صالونها أبواب التحاور فى موضوعات فكرية شتى، وكانت "مى" كثيرا ما توجه هذا الحوار.ومما يذكر أن طه حسين سمع فى هذا الصالون ولأول مرة نقد "مى" لرسالته فى الدكتوراه عن أبى العلاء.[٣]

ولم يسمع أن أحدا تخلف عن موعد الثلاثاء فى صالون "مى" بل كان الكل يحاول أن يسبق الآخر فى الوصول إلى الصالون حتى يحظى بدقائق متفردة مع "مى" خاصة وأنها كانت تستطيع أن تشعر كل رجل حولها على اختلاف العمر والثقافة أنه رجلها وأنه اسعد حالا، وأطيب نفسا، ولعل بعضهم كان يخرج من ندوة صالونها وهو يحسب أنه ظفر من ودها والتفاتها بأكثر مما ظفر سواه ثم لا يجد بعد ذلك مما ظن وتوهم شيئا.[٤]

لقد أحبها مصطفى صادق الرافعي وكتب من وحيها أوراق الورد وقال فيها أمير الشعراء أحمد شوقى شعرا[٥] ووصف ملامحها كامل الشناوى وإلى جانب ذلك فقد ألهمت جبران خليل جبران التى خفق قلبها له وأحبها العقاد واحبته ثم وقعت الفجوة بينهما، وتغنى بها الشاعر اسماعيل صبرى وبمجلسها فقال:

روحى على دور بعض الحى هائمة كظامى الطير تواقـا إلى الماء

إن لم أمتع "بمى" نظرى غـــدا أنكرت صبحك يا يوم الثلاثـاء

وعلى الرغم من ذلك فإنه لشئ يثير الدهشة أن تكون "مى" قادرة على الزام محبيها حدودا لا يتجاوزونها وقيودا لا يكسرونها، فقد كانت تتلهى وتتسلى وتستعيض بالحب الصادق بهذه الباقة من العواطف التى كان يقدمها لها أكبر رجال الفكر الذين يحفون بها، ويسارعون إلى أهداء أرق العبارات إليها متنافسين على خطب ودها وكسب رضاها فى معركة صامته لا يشهر فيها أحد منهم سيفه إذ لا أمل فى الكسب.[٦]

وظل هذا الجو الفكرى المرح فى صالون "مى" وتلك المناقشات والمساجلات على حالها حتى قامت ثورة ١٩١٩ وشملت كافة طبقات الأمة، فتغيرت مناقشات الصالون واختفى أغلب رواده حيث شغلهم العمل الثورى بعد أن نزلت الثورة إلى الشارع، واجتاحت أفكارها المقاهى والمنتديات، وبدأ الناس يلوكون سمعه ساسة عابدين والأستانة، وقصر الدوبارة.[٧]

وبعد انتهاء الثورة عادت أمور صالون "مى" إلى حالها وشاركت "مى" ضيوف صالونها فى كل حديث ومناقشة.



(١) شوقى ضيف: مع العقاد.
(٢) فتحى رضوان: عصر ورجال، جـ١، ص ٣٢٠.
(٣) مذكرات طه حسين ص ٤٦.
(٤) فتحى رضوان: مرجع سابق، ص ٣٣٠.
(٥) كامل زهيرى: مائة امرأة وامرأة، ص ٢١٠- ٢١٣.
(٦) فتحى رضوان: مرجع سابق، ص ٣٣٤.
(٧) فتحى خليل: سلامة موسى، وعصر القلق، ص ٧٥.

وقد ظل هذا الصالون قبلة للأدباء ومكانا محببا لدى العديد من المثقفين حتى تعرضت صاحبته لمرض وبيل ، اضطرها إلى أن تغلق على نفسها باب بيتها، ولم تعد ترى أحدا من رواده الذين لم يسمعوا عنها بعد ذلك إلا مايتعلق بمرضها ثم استفحاله والذى توفيت على أثره فى اكتوبر من عام ١٩٤١

وأصبح صالونها ذكرى بعد أن كان أثرا[١] وبذلك انطوت صفحة كاتبه من ألمع كتاب العربية أمتازت عن غيرها فى كتاباتها بموسيقية وشاعرية. واستطاعت بأسلوبها الفريد أن تكون مصدر إلهام رجال كثيرين احبوها، وظنوا جميعا أنها احبتهم، فأسعدهم هذا، وحرك وجدانهم فأسدوا إلى الأدب العربى أيادى بيضاء.[٢]

وفى رثائه "لمى" أشار شاعر الأقطار العربية جبران خليل جبران إلى صالونها فقال:



قد تولى رفاقنا وبقينـــــــا ... يعلم الله بعدهم ما لقينـــا

أقفر البيت أين ناديك يا مى ... إليه الوفود يختلفونـــــا

صفوة المشرقين نبلا وفضلا ... فى ذراك الرحيب يعتمرونا

فتساق البحوث فيه ضروبـا ... ويدار الحديث فيه شجونـــا

وتصيب القلوب وهى غراث ... من ثمار القلوب ما يشتهينا



صالون هدى شعراوى:

وعن صالون هدى شعراوى فقد أسست فى بيتها صالونا نسائيا بحتا لم يتردد عليه من الرجال غير القليل منهم إبراهيم الهلباوى وكانت هدى تدعو إلى هذا الصالون مى زيادة ولبيبه هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق، وملك حفنى ناصف باحثة البادية[٣]. وكانت جلسات هذا الصالون تعقد فى الثلاثاء من كل أسبوع وقد نوقش فيه العديد من الأمور الأدبية والسياسية كما تبنى المواهب وهى لازالت فى براعمها.[٤]

---

(١) الرمادى: مرجع سابق، ص ٨١.
(٢) فتحى رضوان: مرجع سابق ، ص ٢٣٨. ويذكر أنيس الخورى المقدسى انه لو جمعت الأحاديث التى دارت فى ندوة "مى" لتألفت منها مكتبة تقابل العقد الفريد ومكتبة الأغانى فى الثقافتين الاندلسية والعباسية. أنظر : الفنون الأدبية وأعلامها، بيروت، ١٩٦٠، ص ٤٦٨.
(٣) كامل زهيرى: مرجع سابق، ص ٢٠٨.
(٤) أنظر: مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة هدى شعراوى، ص ٧-٨.





٩- الأفراح فى مصر الحديثة بين الاستمرارية والتغير

"صفحة من تاريخ مصر الاجتماعى فى القرنين التاسع عشر والعشرين"

على الرغم مما اتسمت به الحياة الاجتماعية فى مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين من ايقاع شرقى يتميز بالثبات والاستقرار والبطء فى التغيير. ومع أن الشعب المصرى يعد من أكثر شعوب العالم تمسكا بعاداته وتقاليده وتراثه فإن ما حدث فى السنوات الأخيرة من متغيرات حضارية مثل زيادة نسبة التعليم بين الإناث والذكور، ومثل ما أدخلته وسائل المدنية الحديثة من أجهزة ووسائل اتصالات وفضائيات قد هز الكثير من هذه الأوضاع واستطاع النفاذ خلف ستار التقاليد السميك مما أدى إلى ذبول بعض العادات القديمة المتوارثة، واستبدالها بعادات جديدة وافدة، ومن هذه العادات ما يحدث حاليا فى تقاليد الزواج والأفراح فبعد أن كان المصريون يزوجون أولادهم فى سن مبكرة، إذ لا يكاد الفتى يبلغ الحلم حتى تبحث له أسرته عن بنت الحلال، فإنه بعد انتشار التعليم بين الإناث والذكور لم تعد فكرة الزواج المبكر مطروحة إلا نادرا، وبعد أن كان المصريون يتمسكون بضرورة زواج الأقارب فقد توقفوا عن ذلك بعد أن ثبتت أضراره طبيا خاصة إنجاب الأطفال، وبعد أن كان الأهل يتحكمون فى اختيار زوجة الابن التى كانت تختار له أحيانا منذ الطفولة فقد أصبح هذا الاختيار من حق العروس والعريس معا، وبعد أن كان زواج أحد أبناء البلدة أو الحى أمر يخص أبناء الحى جميعا لا الأسرة وحدها، فقد اقتصر أمر عقد معظم حفلات الزفاف على الفنادق والأندية بعد أن ضاقت البيوت عن استقبال المدعوين.

وبعد أن كانت هناك ضرورة لحضور البلانة مع العروس فى ليلة زفافها فقد تلاشت مثل هذه العادة التقليدية، وبعد أن كانت الخياطة من الشخصيات التى يتردد قدومها على بيت العروس لاختيار تفصيله فستان الزفاف، فإن عادة شراء ثوب الزفاف جاهزا أصبح معروفا، وبعد أن كانت الصديقات والقريبات يقمن بدور تجميل العروس وتزويقها أصبح الكوافير الآن يؤدى نفس هذا الدور، وبعد أن كان توزيع علب الملبس وأكواب الشربات الأحمر القانى وسط هرج وضجيج الأطفال من العادات المألوفة

فى الأفراح فقد أندثرت هذه العادة، ولم يعد لها مكان خاصة ، خاصة فى الفنادق التى لا يدعى إليها الأطفال طبقا لأنظمتها المتبعة.

وفيما يلى نعرض لعادات وتقاليد المصريين فى الزواج ابتداء من الخطوبة وحتى الزفاف منذ أن شاهدها المستشرق الانجليزى إدوارد وليم لين[1]، وأخته صوفيا[2]، خلال عصر محمد على حيث كان القديم الموروث لا يزال قائما وكانت مصر لا تزال تنسب إلى مجتمعات العصور الوسطى فى الكثير من مناحى حياتها. ثم ما طرأ على ذلك من مستحدثات وتغييرات فى عهد خلفاء محمد على حتى نصل إلى ما هى عليه الآن.

أولا: مرحلة الخطوبة:

تحدث لين عن الخاطبة ودورها فى مهمة البحث عن العروس فذكر أنها كانت تحترف مهنة الدلالة التى تبيع الحلى والملابس النسائية حتى يسهل عليها الدخول إلى قلاع الحريم، ومساعدة الرجال فى اختيار العروس الملائمة نظير أجر معلوم، وكانت العادة أن تذهب أم الخاطب وبعض قريباته مع الخاطبة لزيارة عدة بيوت، باعتبارهن زائرات فقط، وقد لا يلبثن طويلا إذا لم يصادفن مرادهن، ويفهم الطرف الآخر طبعا القصد من الزيارة ولكن إذا سمعن أن من بين نساء المنزل فتاة تتحلى بالصفات المطلوبة يكشفن عن قصدهن ويستفهمن عن أحوال الفتاة التى يقع عليها الاختيار وعما تملكه من حال أو متاع.

ولما كان غير متبع خلال هذه الفترة رؤية أسرة الخاطب من النساء للعروس إلا بعد زفافها فقد كانت الخاطبة غالبا هى مصدرهم، فى وصف الفتيات، التى كثير ما تبالغ فى وصفهن، وإلى جانب ذلك فقد كانت الخاطبة تبالغ لدى أسرة الفتاة فى وصف الشاب الراغب فى الزواج بما ليس فيه أحيانا فتصفه بلطف المعاشرة والأناقة والثراء وحب الترف والكرم، والرغبة فى الملاطفة والدلال حتى تتمكن من الحصول على موافقة العروس وأسرتها، وبعد

([1]) زار لين مصر ثلاث مرات كانت الأولى فى أواخر عام ١٨٢٥م وكان وقتذاك شابا فى الرابعة والعشرين من عمره جاء ليدرس حضارة قدماء المصريين، ولكن القاهرة التى استولت على لبه وشعبها الذى شغف بالعيش معه جعله يرى أن دراسة الأحياء امتع له وألذ من دراسة تاريخ الأموات مما صرفه عن قدماء المصريين إلى الكتابة عن أحفادهم. واستمر لين بمصر ثلاث سنوات يدرس حياة الناس كما يدرس اللغة العربية حتى تملك ناصيتها كتابة ومحادثة وبعدها عاد إلى انجلترا فى أواخر عام ١٨٢٨ بعد أن درس الحياة فى القاهرة دراسة مستوفاة، وجمع فى مخطوطاته مسودة كتابه الذى صدر بعنوان The Manners and Customs of the Modern Egyptians. ورغبة من لين فى الاستزادة ببعض المعلومات عاد إلى مصر فى عام ١٨٣٣ حتى يسد بعض الثغرات فى كتابه، ولما رجع إلى انجلترا أصدر هذا الكتاب. أما الزيارة الثالثة فكانت فى عام ١٨٤٢ وكان هدفها الإعداد لمعجم عربى شامل. للتفاصيل انظر: نجيب العقيقى: المستشرقون ، جـ٢، ص ٤٨٠.

([2]) صحبت أخيها أدوارد خلال زيارته لمصر، ولها دراسة عن الجوانب والأسرار الخفية من أمور الحريم فى أسرة محمد على وغيرها تفوق فى غزارتها أى مصدر آخر ويتضح ذلك من كتابها الى ظهرت طبعته الأولى فى عام ١٨٤٤ تحت عنوان: The English Woman In Egypt قامت الدكتورة عزة كراره بترجمته فى عام ١٩٩٩: تحت عنوان حريم محمد على باشا.

أن تستعلم الزائرات عن أحوال العروس يقدمن تقريرهن إلى الراغب فى الزواج فإذا رضـــى بذلك البيان يقدم إلى الخاطبة هدية، ويرسلها ثانية إلى عائلة الفتاة لتعرفهن رغباته.(١)

واستمرت هذه الأمور على حالها حتى أوائل القرن العشرين تقريبا، حيث بدأ بعضها فى التغير فقد اتسع دور الخاطبة، وازدادت معرفتها بأخبار الفتيات الراغبات فى الزواج حيث كانت تزور البيوت تتصل بالأمهات وتسأل عن الشابات فى سن الزواج، وتتعــرف أخبارهــا وتقف على رأى الأم فى الزوج الذى تبتغيه لابنتها إذا ما سهل الله لها بابن الحــلال، وكانــت الأم تؤكد على الخاطبة أن تكثر فى التردد عليها وتوعدها بأنها ستعطيها ما تريد من المال إذا جاءت لابنتها بالعريس المنشود، وبعد ذلك تذهب الخاطبة إلى منازل الأسر التى بهــا شــباب يريدون الزواج، وتكون واسطة بين أهل الزوج والزوجة فى تعريف هؤلاء بأولئــك وكانــت أحيانا تبالغ فى وصف حال الفتاة وأصلها فتقول مثلا ان لها وجه مدور كالصــنية، وعيونهــا عيون الغزلان، وفمها خاتم سلمان وصدرها بيض نعام وأنفها مثل النبقة، وأسنانها لؤلؤ، وانها إذا تكلمت تناثر اللؤلؤ من بين شفتيها(٢)، وزيادة فى تشجيع الشباب على التقدم لخطبتها تذكر أن الكثيرين تقدموا لها، ولم يوفقوا لأنهم لم يكونوا أكفاء لها وهكذا كانت المفاوضات الأوليــة تجرى مع الدلالة، ورويدا رويدا تطورت الأمور، وأصبحت اسرة العــريس تبعــث بــبعض نسائها لتسأل وتبحث وتعاين أوصاف العروس المرتجاة بدلا من الخاطبة فيذكر فكرى إباظــة أنه كان يتم تحديد موعد الزيارة وتستعد العروس وتنظم نفسها وجمالها وقوامها وترتدى أبدع ثيابها وتعطر جسمها وشعرها بالروائح(٣)، وبعد أن تصل أسرة العريس وتشــرب القهــوة أو الشربات يتم استدعاء العروس فتقبل وهى تتهادى خجلا وتجلس بأدب واحتشام ثم يــأتى دور البحث والفحص والتجريب(٤)، فتشرع أم العريس أو إحدى قريباته فى الحديث مع العــروس، وخلال ذلك تحدق فى أسنانها لترى إن كانت عيوب أو كسور من ناحية التناسق واللون، ومن الحديث تستنتج خفة الروح أو ثقل الدم، وتعرف نوع الصوت إن كــان ناعمــا أو خشــنا أو غليظا(٥)، وقد تخرج إحدى قريبات العريس سيجارتها وتطلب من العروس برفــق أن تشــعل عود الكبريت فتتقدم لتلمح قوامها وقدها، ثم تطلب منها الاقتراب لتشعل عودا آخر، كى تتسع لها الفرصة لتحدق فى عينيها عن قرب، وربما تطبطب على صدرها لتلمس ثــدييها ببراعــة

---

(١) ادوارد لين: المرجع السابق، ص ١٠٠.
(٢) محمد عمر: حاضر المصريين أوسر تأخرهم، ص ٢٠٥.
(٣) فكرى اباظة: الضاحك الباكى، ص ١٤٧.
(٤) محمد جبريل: مصر فى قصص كتابها المعاصرين، ص ٣١٦.
(٥) فكرى اباظة: المرجع السابق، ص ١٤٩.

وأحكام[1]، ثم يتم إبلاغ العريس بالتفاصيل بعد ذلك، فإذا اقتنع بما سمعه تقدم للزواج من غير أن ينظرها، ويعرف شكلها وطباعها وأخلاقها وانما ذلك كله بعد الزفاف.[2]

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات فقد كان العريس ينخدع احيانا بالأوصاف التى تنقل له عن العروس، ومن الأمثلة على ذلك قصة زواج شاعر النيل حافظ إبراهيم فعلى الرغم من اختيار زوجة خاله للعروس وتصديقه للأوصاف التى خلعتها على عروسه المقبلة واستسلامه لمراسم عقد الزواج فقد أحس حافظ بفجيعته فى نفسه عندما تطلع إلى عروسه، ولم يرقه منظرها، بل أوجد أنفها الضخم رهبة فى نفسه مما جعله يخفق فى تجربة الحياة الزوجية، ولم يعد إلى تجربة الزواج طيلة حياته.[3]

ومعنى ذلك أن الخاطبة أو الأسرة هى التى كانت تختار العروس ولم يكن لأى من الخطيبين رأى فى إتمام ما يحدث، فلا العريس رأى العروس قبل أن يخطبها ولا هى رأته أو كلمته قبل ذلك بل كانا غالبا لا يعرفان شيئا عن بعضهما إلا ما ترويه الخاطبة أو الأسرة فقط خاصة وأن الانفصال الحديدى بين الجنسين كان يحيط الفتاة بالغموض فهى تحت حجابها الذى يغطى جمال وجهها أو قبحه لا يراها العريس إلى أن تصبح فى حوزته مما أوجد فى العديد من الأحيان حدوث نفور بين الزوجين عند مكاشفة بعضهما للبعض فى ليلة الزفاف[4]، خاصة عندما يصاب الرجل بخيبة أمل فى رؤية الجمال المنتظر فى فتاة أحلامه فيجدها عكس ذلك مما زاد من عملية تعدد الزوجات.

وعلى أى حال فقبل أن توافق أسرة العروس على خطبة ابنتهم للعريس المنتظر كانت تتم التحريات عنه، وعن أسرته وسلوكه وماليته وغير ذلك، وربما يسألون عنه فى قسم الشرطة التابع له . وقد تستمر التحريات ثلاثة أشهر أو يزيد حتى يصدر القرار بالموافقة ثم يجئ دور الكلام عن المهر والشبكة وإذا وافق الطرفان على شروط بعضهما يسمح للخطيب بالتردد على منزل أسرة العروس، ومقابلة رب الأسرة وزوجته، وتقديم الدبلة والشبكة وسط إجراءات ورسميات ومراسيم.

ونتيجة للتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على مصر خلال السنوات الأخيرة وفى غمار الحراك الاجتماعى السريع الذى طرأ على المجتمع المصرى بدأت الأمور تتغير[5]، فقد تلاشت هذه الصور تدريجيا، فالعصر الحالى الذى نعيشه يشهد

---

(1) نفسه، ص ١٤٩.
(2) عامر العقاد: أحمد أمين حياته وأدبه، ص ص ٤٠- ٤١.
(3) محمد كامل جمعه: حافظ إبراهيم ، ص ص ٥١- ٥٢.
(4) احمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن، جـ١، ص ٧٣.
(5) جلال أمين: ماذا حدث للمصريين- تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن ١٩٤٥- ١٩٩٥ ، ص ٤٨.

تطورا حضاريا سريعا فى كافة مناحى الحياة، كما بدأت النواحى الاجتماعيـة فـى مختلـف مضامينها وأساليبها تصاغ صياغة جديدة، فأخذت تظهر عادات وتقاليد جديدة أدت إلى ذبـول العادات والتقاليد القديمة، وخرجت المرأة إلى الحياة العامة وبدأت الارتباطـات بـين الآبـاء والأبناء تتغير وأخذت البنات تطالب بمزيد من التحرر بشكل قد لا تستسـيغه عقليـة الأب أو الأم ولم يعد ثمة ما يحول بين مقابلة الفتى للفتاة قبل الزواج والاتفاق على كل شـئ قبـل أن يعرف الأهل أى شئ ، عن هذا الاتفاق ثم تبلغ الأسرة بعد ذلك بتفاصيل ما جرى .

والسؤال المطروح هو هل كان نظام الخطبة واحد عند كافة الطبقات فى مصر؟ الواقع أن هذا النظام كان متبعا لدى الكافة فهو عند أبناء الباشوات والذوات مثله عند الطبقة الوسطى والعامة وأن دور الخاطبة كان متبعا فى أفراح أبناء الباشوات والذوات مثلما كان متبعا لـدى العامة، وإلى جانب ذلك فإن عدم السماح برؤية العريس لعروسه ولا لأحد من أفـراد أسـرته من السيدات إلا بعد زفافها[١]، كان متبعا داخل قصور الأسرة الحاكمة، كما كان سـائدا عنـد العامة، هذا إلى جانب أن أفراد الطبقة الراقية كانوا يفضلون الزواج المبكـر والـزواج مـن الأقارب خاصة أبناء الأعمام كما كان يفعل أفراد العامة الذين كانوا يرغبون فى ذلك بحجـة التماسك الاجتماعى للأسر، وكما أنه لم يكن لبنات العامة الحق فى اختيار الزوج فإن ذلك كان متبعا لدى الأميرات إذ لم يكن لهن الحق فى اختيار ازواجهن، كما أن الزوج كـان لا يختـار زوجته عن عاطفة حب متبادلة أو لتوافق فى الطباع أو الأفكار[٢]، بل كانت أحيانا المنفعة هى التى تقود بعض الأسر لاختيار الزوجات يضاف إلى ذلك أن تمسك الأسـر بخطبـة الأبنـة الكبرى قبل الصغرى إذا تقدم أحد لخطبتها كان موجودا سواء عند الأغنياء أو العامة إلـى أن تغير ذلك فى الوقت الحالى.

ثانيا: مرحلة عقد القـران:

يذكر لين أنه بعد أن يتم اختيار الخاطب لعروسه يذهب بعض أقاربه لمقابلـة وكيـل العروس، للاتفاق معه على مقدار المهر[٣]، وكثيرا ما تحدث المساومة فى تحديد المهر عنـد العامة خاصة المؤخر منه إلى ان يتم الاتفاق، ثم يحدد بعد ذلك عقد الزواج الذى يسمى كتـب

([1])يذكر احمد شفيق باشا أن احدى الأسر عدلت عن الموافقة على زواجه من ابنتها بمجرد أن طلبت أمه رؤية العروس قبل خطبتها. أنظر: مذكراتى فى نصف قرن ، جـ١، ص ٧٣.

([2])علماء الحملة الفرنسية: موسوعة وصف مصر، المصريون المحدثون، جـ١، ترجمة زهير الشايب، ص ٨٠.

([3])اختلف مهر الثيب عن مهر الفتاة العذراء، فهو يقدر غالبا بربع مهر العذراء، أو ثلثه أو نصفه كما أنها لم تزف عند الزواج، ويكفى أن تقول المرأة لمن يتقدم لزواجها "وهبت لك نفسى" فتصبح أمراته شرعا متى كانت بالغة حتى من دون شهادة . أنظر: لين: المصريون المحدثون ، ص ١١١-١١٢.

الكتاب[1]. وبعد أن يتم اجتماع المدعوين يذهب العريس مع بعض أصدقائه إلى منزل العروس ويحضر المأذون ثم يتم عقد الزواج بشهادة شاهدين، وأخذ موافقة العروس، ثم يقرأ الحاضرون الفاتحة، ويدفع العريس مقدم المهر ويعقد بعد ذلك العقد فيجلس العريس أمام وكيل العروس، ثم يمسك كل منهما يمنى الآخر ويرفع إبهامه ويضغط به على إبهام الثانى ويتولى أحد الفقهاء تلقين الطرفين صيغة العقد، فيضع على اليدين المتماسكتين منديلا[2]، ثم يستهل العقد عادة بخطبة لا تخرج عن بعض الإرشادات والصلوات وبعض الآيات والأحاديث التى تشير إلى فضل الزواج ومزاياه، ثم يطلب من الوكيل أن يقول أزوجك ابنتى (أو موكلتى) فلانه (ويسمى العروس) العذراء البالغة إذا لم تكن قد تزوجت من قبل أو الثيب إذا كان قد تكرر زواجها بمهر قدره كذا ثم يطلب من العريس أن يقول أقبل زواجها وأخذها تحت رعايتى وأتكفل بحمايتها، وأشهدوا على ذلك أيها الحاضرون ويردد الوكيل قوله هذا على العريس مرة ثانية وثالثة فيجيبه الأخير فى كل مرة بما سبق، وحينئذ يقول كلاهما "والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين آمين" ويعيد الحاضرون قراءة الفاتحة.

وخلال ذلك تجلس العروس فى أبهى زينتها، وخلفها الصبايا بالزغاريد تنطلق ، وقد وضعت قدميها فى وعاء به نعناع أخضر كما تضع فى فمها قطعة من السكر ثم ترسل هذه القطعة إلى الزوج ليرسل بدلا منها مبلغا من النقود هدية لعروسه دلالة على الانسجام المنتظر فى حياتهما الزوجية، كما تضع على رأسها المصحف الشريف مفتوحا على سورة يس، وزيادة فى البهجة والفرح تضرب الدفوف والطبل البلدى والمزمار وتزغرد النساء وينثر الملح على العروس خشية الحسد، ويظهر الجدعان والفتوات من أهل الحارة أمثال المعلم شلبى والأسطى حنفى وزعيط الفلاح وصغار الموظفين من أقارب العروسين أمام الشوارع والطرقات المسدودة وهو يشعلون مصابيح من الورق ويتبارون بالبنابيت والعصى (لعبة التحطيب) ويلعبون بالجريد والسيوف ويضربون البارود[3]، ويسير بعضهم على عكاكيز حديدية مرتفعة، ويزينون رءوسهم بالريش ويتضاربون بالعصى الطويلة، بينما يجلس بعضهم القرفصاء أمام منازلهم المبنية بالطوب اللبن والصفيح أو على أقفاص من سعف النخيل حيث يتناولون المشروبات الشعبية مثل البوظة وعرق البلح ويتعاطى البعض منهم الحشيش والأدخنة وهم يستمعون إلى قصص أبى زيد الهلالى، وعنترة وإلى الأمثال العامية، كما يشاهد

---

(1) قلما كانت توجد وثيقة مكتوبة تثبت الزواج فى ذلك الوقت.
(2) يحدث أحيانا أن يخطف أحد المدعوين المنديل للاحتفاظ به وأحيانا يتمكن المأذون من اخذه.
(3) حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى دار الوثائق: الداخلية عربى أوامر (١) أمر كريم بتاريخ ١٢ رمضان ١٢٧٥هـ (١٨٥٩م) وانظر أيضا دفتر أنظمة ولوائح رقم ١٨٩١ ، ص ٥٤ وثيقة رقم (٩) بشأن منع ضرب البارود واللعب بالجريد والنبوت والبنادق والسيف والرمح فى الأفراح والمواسم بالقرى.

الصبية ألعاب خيال الظل والقراقوز وغيرها، وتظل النساء من فوق أسطح المنازل لمشاهدة ما يحدث وهن فرحات مستبشرات للعريس والعروس بعقد قران سعيد هذا عن مراسيم عقد القران عند العامة فماذا عند أبناء الباشوات والذوات.

الواقع أن بنات الذوات كن كبنات العامة لا يؤخذ رأيهن فى اختيار العريس المنتظر، فالفتاة تنشأ وتربى فى انتظار اليوم الذى يسلمها فيه والدها إلى كنف زوج غريب عليها فى شخصه وطريقة تفكيره[١]، أما عن الاختلاف بين افراح الذوات والعامة فينحصر فى لوازم الفرح، والأموال الفلكية التى يدفعها الذوات للمهر كرمز للمباهاة والتفاخر .

وفى حضور أمراء العائلة المالكة ونظار الحكومة وكبار العلماء والأعيان وتقديم أفخم المأكولات والمشروبات لهم واستبدال المأذون بشيخ الجامع الأزهر الذى يتهيأ لكتابة العقد فيوفد الشهود يتقدمهم الأغوات إلى باب حجرة العروس المسدول عليه ستار من الحرير الأزرق الموشى بالذهب حتى يحجب ما وراءه، ويسألوها الموافقة على الزواج من الأمير فلان أو الوجيه فلان ويرددون عليها السؤال مرات إلى أن تجيب العروس بالقبول فى تمنع وحياء. وفى أعقاب ذلك ينصرف الشهود لإبلاغ شيخ الأزهر صيغة الجواب فيبدأ فى التصديق على العقد، وبعدها ترتفع الزغاريد، وتقدم أكواب الشربات فى أقداح من الذهب، وتوزع الشيلان والحلوى والعطايا والهدايا الفاخرة على جميع الحاضرين.[٢]

ومن أبرز أفراح أنجال الباشوات التى تتردد فى التاريخ وما حدث فيها من بذخ وألعاب وفرق عسكرية تعزف العديد من الألحان وراقصون وراقصات وعروض وتمثيليات، وتوزيع مرطبات ومأكولات وكساوى وهدايا نذكر ما حدث فى أفراح إسماعيل باشا[٣]، ابن محمد على، ومحمد بيك الدفتردار على نظلة هانم ابنة الباشا[٤]، وكامل باشا[٥]، على زينب هانم صغرى بنات الوالى وشقيقة أحمد باشا ابن عم محمد على على مختار بك الذى اتم تعليمه فى باريس.[٦] وكما نذكر ما حدث خلال أفراح أنجال إسماعيل باشا الأربعة والذى عاشت مصر خلاله أيامها الأربعين فى احتفالات فخمة وإسراف اسطورى لم تر مصر مثله

([1])صوفيا لين: حريم محمد على ، ص ١٨٦.

([2])أحمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن، جـ١، ص ٧٠.

([3])قتل فى شندى بالسودان حرقا على أثر مؤامرة دبرها له الملك نمر الذى دعاه وبطانته إلى وليمه بقصره فى شندى وكان من القش، فأجابوا دعوته وذهبوا إلى القصر ورحب بهم الملك ترحيبا عظيما، وأمر أعوانه أن يجمعوا ما استطاعوا من الحطب والقش والتبن حول القصر واشعال النار فيه. وقد حصرت النيران إسماعيل باشا وحاشيته ولم يستطيعوا الإفلات من الموت.
للتفاصيل: انظر الرافعى: عصر محمد على، ص ١٦٦- ١٦٧.

([4])للتفاصيل أنظر: عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ٤، القاهرة، المطبعة الشرقية، ١٣٢٢هـ تحت عنوان: ثم دخلت سنة تسع وعشرين مائتين والف ، ص ٢١١.

([5])عمل ياورا وسكرتيرا خاصا لمحمد على، وانعم عليه السلطان برتبة الباشوية بعد أن رشح ليكون زوجا لابنه والى مصر. انظر: صوفيا لين: حريم محمد على، ص ٢٨٠.

([6])صوفيا لين: المرجع السابق، ص ٢٦٨- ٢٧٩.

فى عصرها الحديث، والتى ذكرت الناس بليالى ألف ليلة وليلة، وباحتفالات قطر الندى ابنـــة خارويه ففى حفل مهيب عقد الخديو اسماعيل قران أولاده الثلاثة وإحدى بناته فى وقت واحـــد إذ عقد لولى عهده توفيق على الأميرة امينة هانم بنت الهامى باشا، وللأمير حسين كامل على الأميرة عين الحياة بنت الأمير أحمد رفعت، وللأمير حسن على خديجة هانم بنت الأمير محمد على كما زوج ابنته الأميرة فاطمة الزهراء للأمير طوسون نجل محمد سعيد باشا.(١)

وإلى جانب ذلك فهناك فروق عديدة بين أفراح الباشوات والعامة ففى حين كان يدعى لإحياء افراح أبناء الباشوات كبار الموسيقيين المشهورين، ويدفع لهم المبالغ الطائلـــة مقابـــل إحيائهم لهذه الحفلات، فإن أنجال العامة كانوا لا يـــدفعون أجـــرا للموســـيقيين والمهـــرجين والراقصين خاصة إذا كانوا من أصدقائهم أو كانت تدفع لهم النقود من الحاضرين الذين جاءوا لدفع النقوط والمساهمة فى إحياء الفرح.

وبينما كان أبناء الذوات يتفاخرون بما لديهم من مال وعقار فإن أهل العـــروس مـــن العامة كانوا لا ينظرون إلى ذلك بل إلى حسن سمعة العريس وأخلاقه ودينه، ومعاملتـــه مـــع الناس، كما أن أهل العريس، كانوا يفضلون البنت التى يعرفون عن أمها حسن العشـــرة مـــع زوجها تمكسا بالمثل الذى يقول إكسر البصلة وشمها تطلع البنت لأمها، "وخذ بنت الحلال ولا تأخذ بنت المال" .

وبينما كان أبناء الذوات يتفاخرون بنسبهم التركى ومصاهرة العثمانلى فإن أبناء العامة كانوا يفضلون ابن البلد على الأجنبى حتى أن بعضهم كان يغالى فى هذا فلا يزوج ابنتـــه إلا لأحد من أبناء قريته، كما كانوا يفضلون صاحب الصنعة الذى يعيش من عرق جبينه فيقولون "الصنعة خاتم ذهب بيد صاحبها".

وبينما كان العريس من أبناء الباشوات يقدم لعروسه هدية الشبكة مرصـــعة بالـــذهب والجواهر، كما يقدم المهر الذى يتباهى به أسر الذوات فقد كان انعريس من أبناء العامة يقـــدم ما يتلاءم مع قدراته وإمكاناته فقد تكون هديته عقدا من الخرز أو أسورة من الزجاج الملـــون وشيئا من الأقمشة الرخيصة التى يتخذ منها نساء الريف ثيابهن .

وبينما كانت الهدايا المقدمة لإنجال الذوات والأمراء والكبراء تمثل صورة من الحيـــاة الطبقية الصارخة التى كانت تعيش فيها مصر فى ذلك الوقت والتى توضح التنافس الصـــارخ بين الثراء والترف التى يعيشه أبناء الحكام وحالات الضنك والبؤس والحرمان التى يعيشـــها عامة الشعب فهدايا طبقة الحكام كانت عبارة عن مجوهرات وقلائد وماس، أما هدايا الأهـــالى

(١) للتفاصيل أنظر: بحثا المعنون أفراح انجال الباشا المنشور فى مجلة الهلال، العدد سبتمبر ٢٠٢ ، ص ٥٦- ٦٥.

لأبناء جلدتهم من العامة فكانت لا تزيد عن السكر والشربات والأرز والشمع والسمن والدجاج والأوز(١).

وبينما كانت تنفق المبالغ الطائلة على الأطعمة الفاخرة التى يتناولها ضـيوف أفـراح الباشوات من صحون المحمر والكباب والكفتة فإن ضيوف أفراح العامة كـانوا لا يتنـاولون سوى العدس أو البيسارة أو الفول بالإضافة إلى المش أو الجبن أو الفجل أو المخلل والجميـز أما شرابهم فكان عرق البلح والبوظة، وبينما كانت الشوك والملاعق والسكاكين تستخدم فـى قصور الباشوات فإن العامة كانوا لا يعرفون طريقة استخدامها، بل يجلسون القرفصاء علـى الأرض ويستعملون أصابعهم حيث أنها اسهل عليهم من استعمال أشياء لا يحسنون استخدامها، وبينما كانت الأميرات ومعظم المدعوات يرتدين الملابس الأفرنجيـة الفخمـة التـى جلبـت خصيصا من أشهر محلات الأزياء فى أوروبا(٢)، ويلبسـن القلائـد الذهبيـة والمجـوهرات المرتفعة الثمن، وينثرن العملات الذهبية والفضية على الحاضرات فإن بنات العامة كن يلبسن الملابس البلدية البسيطة وينثر عليهم الحاضرات من أقاربهن الشعير والملح لدرء عين الحسود وجلب البركة وبينما كانت أفراح أبناء الباشوات لا تقتصر على ليلة واحدة بل كانـت تتعـدد الليالى قبل ليلة الزفاف اقتصرت أفراح أبناء العامة فى أغلب الأحيان على ليلة واحدة أو أكثر بقليل.

وبينما كانت بنات الباشوات يحصلن على لقب الهانم (الخانم) والبرنسيسة أو الأميـرة فإن بنات العامة كن يحملن غالبا أسماء حفيظة وست الدار ونفيسة، ونعناعة وخضرة، وشلبية.

وبينما سمح لبعض الأميرات أن تكون العصمة فى أيدهن، لتختار الطلاق من زوجها متى شاءت،(٣) ذلك فإنه كان من العيب على بنات العامة أو الطبقة الوسطى أن يتحـدثن فـى هذا الموضوع أو يفكرن فيه أو حتى يستحسن سماعه. حقيقة أن زوجة رفاعـة الطهطـاوى وابنه خاله كريمة الانصارى، اشترطت عليه ألا يتزوج عليها، وقد فرض رفاعة على نفسـه أمام زوجته أن يبقى معها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيا كانت فان تزوج بأخرى كانت زوجته طالقة بالثلاثة ولكن هذا لا يعنى أن زوجة رفاعـة كـان بيـدها العصمة، بل كان من شروطها على زوجها ألا يقترن بغيرها.(٤)

([1])ادوارد وليم لين: المصريون المحدثون، ص ١٠٤.

([2])احمد شفيق: مذكراتى، جـ١، ص ٧٢.

([3])أنظر على سبيل المثال إذن عقد زواج عطية الله هانم بنت عباس حلمى باشا. محافظ ابحاث: محفظة ١٤٩ ملف تراجم البراءات التركية الواردة للديوان قبل نوفمبر ١٩١٤.

([4])نص عقد هذا الاتفاق كما يلى:
"التزم كاتب الأحرف رفاعة بدوى رافع لبنت خاله المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلي. الأنصاري أنه يبقى معها على الزوجية دون غيرها من زوجة اخرى أو جارية أيا ما كانت، وعلق عصمتها على اخذ غيرها من النساء، أو تمتع بجارية أخرى فإذا تزوج بزوجة أيا ما كانت، كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة" دار المحفوظات ملف رفاعة بدوى رافع الطهطاوى وثيقة محررة بخط يده وموقعه منه ومختومة بخاتمه فى شوال ١٢٥٥هـ ومن المعروف انه كان يمكن للمسلم ان يتزوج من أربع زوجات شرعيات بالإضافة لأى عدد من الأمراء يستطيع اطعامه. وهذا التعدد كان أكثر شيوعا عند الطبقات الشعبية



تستقبلك الفرحة المصحوبة بزغرودة مجلجلة عند شرائك مستلزمات الأفراح



كوشة العروس فى
حفلات الزفاف المحافظة

وبينما عاشت الأميرات فى قصور فخمة بنيت لهن خصيصا فقد عاشت بنات العامة فى بيوت من الطين أو بيوت أكل منها الدهر وشرب، وسكن بعضهن الخيام، وكل جهازها كان عبارة عن صندوق للملابس وكرسى ومنضدة، وطشت وصينية وأبريق وربما لحاف ووسادتين. وهكذا يتضح لنا الفروق الطبقية الصارخة فى الزواج لدى أبناء الخاصة والعامة.

ثالثا: ليلة الدخلة:

بعد الاتفاق على موعد ليلة الدخلة ينقل الإثاث والمفروشات من بيت العروس إلى بيت العريس، كما يذهب العروس ليلة الدخلة إلى الحمام فى صحبة قريباتها وصديقاتها وهن محجبات وسط مظاهر الفرح، ويسمى ذلك زفة الحمام فيتقدم الزفة غالبا فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع، وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأوانى والملابس التى تستعمل فى الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير، ويوجد أيضا سقاء يروى ظمأ السائرين، ورجلان آخران يحمل أحدهما قمقما مملوءا بماء الورد أو زهر البرتقال يرش منه على السائرين من وقت لآخر، ويحمل الآخر مبخرة يحرق فيها البخور.(١)

وعندما يصل الموكب فى نهاية المطاف إلى الحمام فإن العروس تستعرض على صاحباتها حليها، فتملأ المباخر بالبخور الطيب الرائحة، وتراق العطور بسخاء وتكشف صاحبات العروس عن أجمل زينتهن، وينقضى اليوم فى مرح وبهجة، وتقدم خادمات الحمام القهوة والشربات والفطائر والحلوى.(٢)

وبعد الاستحمام تعود العروس إلى منزل أهلها وتتناول مع رفيقاتها العشاء وسط جو من الطرب والأغانى، وبعد ذلك تعجن بعض الحناء، وتضع العروس قطعة من العجين فى يدها ثم تتناول النقوط من ضيفاتها، فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة على تلك العجينة فتأخذها العروس، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها، وتربطها بالكتان حتى الصباح فتصبغ بلون أحمر برتقالى، وتسمى هذه الليلة "ليلة الحنة". وفى نفس الوقت يقيم العريس حفلا لتسلية المدعوين.(٣)

وفى اليوم التالى تزف العروس إلى منزل العريس حيث يراها لأول مرة(٤)، وتضاء الشوارع أو الحى الذى يسكنه العريس بالمشاعل والفوانيس والقناديل الصغيرة، ويعلق بعضها

(١) لين : مرجع سابق، ص ١٠٤- ١٠٥.
(٢) موسوعة وصف مصر: مصدر سابق، جـ١، ص ٨٢.
(٣) لين : مرجع سابق، ص ١٠٦- ١٠٧.
(٤) ادوارد لين: المرجع السابق، ص ١٠٢.



سيدة تضع القرص والصبغا اليد موسومة حربيا بالحناء



فتاة موشومة - A Tattooed Girl

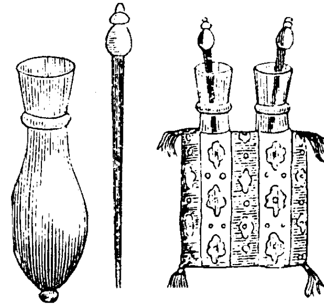


مطربة من القرن التاسع عشر





عين وحاجب مكحلان على الطريقة الفرعونية



نماذج لمكاحل ومراود

Mukhul'ahs and Mirweds

فى حبال تمتد من منزل العريس إلى المنازل المقابلة على جانبى الشارع وتعلق أيضـــا مـــع القناديل رايات حريرية ذات لونين أحمر وأخضر. وتؤخذ العروس إلى بيت زوجها فى العادة عند الغروب، وكثيرا ما تحمل فى هودج (تختروان) مغطى بشال كشمير، ومحمل على جملين زينت أعناقهما بقلائد حرير وأجراس مختلفة فى رقابهما، يسير أحـــدهما خلـــف الآخـــر[١]، وأحيانا تسير العروس على قدميها وعلى جانبها امرأتان وأطفال الجيران الذين يشاركون فـــى الهرج والمرج[٢]، وتصحب العروس بعض صديقاتها معها، وتطلق كثير من النساء الزغاريد وهن يسرن فى ملابسهن الزرقاء[٣] ، ويصدرن أصواتا تعبر عن فرحهن وسط ضجيج كبيـــر من الآلاتية الذين يدقون الطبول وينفخون المزامير[٤]، وتسمى هذه الزفة "زفة العروسة" وقـــد يتبارز أمام الزفة فلاحان بالنبوت، كما يعرض بعض الحواة حيلهم وبعد أن تصـــل العـــروس إلى بيت الزوجية يتم غمس قدمها اليمنى ويدها اليمنى فى اللبن تفاؤلا بـــاليمن والبركـــة وأن يكون مقدمها منزل الزوجية مقرونا بالخير والنماء ومن العادات الشائعة لدى البعض أيضا أن تقوم صديقات العروس غير المتزوجات اللاتى يصطحبنها بقرصها فى ركبتها اعتقادا مـــنهن أن ذلك سوف يؤدى إلى حصولهن على زوج فى القريب العاجل كما يقوم أصدقاء العـــريس غير المتزوجين بقرصه بنفس الطريقة على أمل أن تكون لهم عروس مستقبلا.

أما عن العريس فكان غالبا لا يفوته الذهاب إلى الحمام بصحبة بعض أصدقائه حيـــث يقوم بابلاغ رغبته إلى أسطى الحمام عشية اليوم الذى يرغب أن يذهب فيه إلى هناك، فيسارع العمال بتجهيز الحمام بطريقة لائقة[٥]، وبعد ذلك كانت تقام له زفة تسمى زفة العريس حيـــث يلبس عادة قفطانا به خطوط حمراء وجبة حمراء ويتوجه إلى المسجد مصحوبا بفرقة طبـــالين وزمارين وبعض حاملى الشاعل، وبعد أداء الصلاة تعود الزفة مـــن المســـجد حيـــث يـــزف العريس بالدف وبالموشحات والأوراد كما يشرع المغنون فى الغناء ثم يعـــود العـــريس إلـــى غرفة عروسه حيث يراها لأول مرة ومعها البلانة وحدها فيمنح البلانة عند دخـــول الغرفـــة منحة فتنسحب فى الحال، وتترك له العروس وهى مغطية رأسها بشال لا يرفعه العريس قبـــل أن يهبها هبة مالية تسمى "كشف الوش"[٦]، ويقترب الزوج من زوجته المغطاه بنقابها ويسمى باسم الله[٧]، وقد يسعد العريس عندما يرى أن وجه زوجته كما وصف له، وقد يشعر بأنه قـــد

---

(1) نفسه، ص ١٨،
(2) صوفيا لين: حريم محمد على ،ص ٦٣.
(3) وينيفريد بلاكمان: الناس فى صعيد مصر – العادات والتقاليد، ص ٨١.
(4) صوفيا لين: حريم محمد على ،ص ٦٣.
(5) علماء الحملة الفرنسية: مصدر سابق، جـ١، ص ٨٤.
(6) لين : المرجع السابق، ص ١١٠.
(7) علماء الحملة الفرنسية: مصدر سابق، جـ١، ص ٨٤.

حدثت له خديعة ويحس بالفجيعة فى نفسه إذا كان الأمر غير ذلك(١)، ويكون نتيجة ذلك القطيعة التامة وذهاب الزوجة غاضبة إلى بيت أبيها.(٢)

ومن العادات المتبعة وقتذاك تقديم الدليل على بكارة الزوجات للأقارب والأصدقاء باعتبار ذلك دليلا هاما على عفة الزوجة.(٣)

والسؤال المطروح هو هل كانت هناك شروط يتم الالتزام بها من حيث حسب ونسب كل من العروسين؟

الواقع أنه من الأمور التى كانت متبعة فى حالات الزواج وقتذاك ضرورة أهلية الزوج وكفاءته الاجتماعية من ناحية النسب والوظيفة بالنسبة للزوجة وأسرتها وقصه زواج الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ورئيس حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية من صفية السادات بنت الحسب والنسب والتى أقامت مصر وأقعدتها فى أوائل القرن العشرين، وكانت صدمة عنيفة للتقاليد الموروثة الخاصة بالبيوتات العريقة فى ذلك الوقت لخير دليل على ذلك. ومرجع ذلك أن الشيخ على يوسف ذلك الرجل العصامى أراد أن يقترن بزوجة ذات حسب ونسب، وقد هداه تفكيره إلى أن يطلب يد صفية صغرى بنات الشيخ السادات والتى رأها خلال تردده على أبيها أثناء عمله كصحفى، وعلى الرغم من موافقة صفية على هذا الزواج فقد رفضه والدها مما دفع صفية إلى الالتجاء لخالها، حيث تم عقد قرانها هناك ولما علم والدها بالأمر رفع دعوى أمام المحكمة الشرعية طالبا التفريق بين الزوجين لعدم أهلية الزوج حيث أنه لا ينتسب إلى نسب رفيع مثله، كما أنه يعمل جورنالجى وهى مهنة لم تكن موضع تقدير فى ذلك الوقت حيث يقوم كما ذكر الشيخ السادات فى صحيفة دعواه على الجاسوسية وبث الشائعات وكشف أسرار خلق الله، وبعد أن نظرت المحكمة القضية فى ٢٤ يوليو ١٩٠٤ أصدرت حكمها بالحيلولة بين الزوجين، ولكن صفية رفضت طلب المحكمة مما أدى إلى إحداث أزمة وانقسام الرأى العام فى مصر إلى قسمين الأغلبية وعلى رأسهم الزعيم الوطنى مصطفى كامل وقفت ضد هذا الزواج، أما الفريق الثانى وعلى رأسه الخديو عباس الثانى فقد كان يساند الشيخ على يوسف.(٤)

---

(١) تذكر صوفيا لين أنها سمعت أن شابا كان قد خطب لنفسه فتاة بناء على تزكية من صديق له، ثم علم بعد ذلك أنها عوراء وذات منظر كئيب ولا تصلح أن تكون زوجة له، ولما حاول التاكد من ذلك طلب من أسرة العروس إرسال والدته لرؤيتها قبل الزواج فاشترطوا عليه فى نظير ذلك أن يتنازل عن أمواله وأملاكه للعروس قبل أن يسمح لوالدته برؤيتها على أن تجلس فى غرفة مظلمة حتى لا يسهل على أحد معرفة إن كانت العروس تبصر بعين واحدة أو باثنتين.
أنظر: حريم محمد على، ص ١٤٣.

(٢) علماء الحملة الفرنسية: موسوعة وصف مصر، جـ١، ص ٨١.

(٣) كان يمارس هذا السلوك عامة الشعب والأقباط أما البكوات وكبار الشخصيات والذين حصلوا على قدر من التعليم فقد هجروا هذه العادة. علماء الحملة الفرنسية، مصدر سابق، جـ١، ص ٨٣.

(٤) لتفاصيل ذلك انظر كتابنا دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى العصر الحديث، ص ١٢٢-١٢٥

هذا عن طقوس ليلة الدخلة لدى العامة فماذا كانت عليه عند أبناء الباشوات والذوات؟

كان يندر أن يذهب بنات الباشوات إلى الحمام العمومى قبل الـزواج لوجـود الحمـام فـى منازلهم[١]، بل كان يسبق ليلة الدخلة نقل جهاز العروس وما قدم إليها من الهـدايا والأمتعـة والجواهر والتحف إلى منزل العريس وسط زفة عبر الشوارع.[٢] تتقـدمها جوقـة موسـيقية وألعاب بهلوانية وكان يتبع هؤلاء عربات المدعوين وأثنا عشر جملا على كل منهـا هـودج مغطى بقماش قرمزى وبه مجموعة من الاعلام الصغيرة كما فى مواكب الكسـوة والمحمـل وكان هناك عدد من السقائين لتوزيع الماء على المتفرجين. وكانت الهدايا توضع فـى أسـبتة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس، هذا عدا الأوانى الذهبية والفضية وفناجين القهوة بزخرفتها الذهبية المحلاة بـالجواهر وفصـوص الماس والياقوت، وكان جهاز العروس يطاف به فى كل المدينة تتقدمـه فرقـة موسـيقية[٣]، وخلال ذلك كانت الشوارع وشرفات المنازل التى يمر بها الموكب تزدحم بالأهـالى والمـارة للفرجة عليه ، وبالنسبة لحفل ليلة الدخلة فقد كانت العروس تزف فى بدلتها المرصعة بالماس وعلى رأسها التاج الهرمى الذى يتألق بالفصوص البراقة ويصطف الأغوات صفين، وبيد كل منهم شمعدانات ضخمة تضئ شموعها كل ما حولها، وبين هذين الصفين تسير العروس فـى أبهى حلل العرس حيث تنضبط دقات الدفوف النحاسية والطبول على وقع خطواتها. وعنـدما تصل إلى غرفة العرش (الكوشة) تجلس على معقد عال فوق مجموعة مرتفعة مـن الوسـائد المطرزة بالساتان الوردى تنثر وابلا من العملات الذهبية والفضية على الجموع وكذلك بارات فضية مخلوط معها شعير وملح لدرء عين الحسود[٤]، كما تظهر بعض المغنيات والراقصـات وقد ارتدين ثيابا حريرية مخططة ووضعن على رءوسهن طـرابيش ذات أقـراص مذهبـة، وازدانت ضفائرهن بالنقود المذهبة، وطليت وجوههن بالمساحيق الحمراء والزرقـاء، بينمـا ظهر البعض الآخر وقد أسدلن على وجوههن غطاء خفيفا، وهن يسترسلن فى الرقص والغناء الجماعى الذى يتحدث عن جمال العروس ودلالها مما جعلها فريدة العصر بينما كانت الدفوف النحاسية وصاحات الأيدى والطبول تصاحبهن فى الأداء، ويسير خلف هـؤلاء صـفان مـن

---

(١) لين: المصريون المحدثون، ص ١١١.
(٢) الجبرتى: عجائب الآثار، جـ٤، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٤.
(٣) أحمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن، جـ١، ص ٧١.
(٤) وفيا لين: المرجع السابق، ص ٢٨٢.

الأغوات. وهم يحملون الصناديق والسلال التى تتألق فيها الهدايا المقدمة للعروس والتى يتنافس الأمراء والأعيان وذوى الحيثات على التباهى بتقديمها.[١]

وبعد نهاية الحفل تخرج العروس من غرفة العرش وتتوجه إلى غرفتها الخصوصية مثقلة بما ترتديه من ذهب ومجوهرات تساندها أربع جوارى.. وفى عصر اليوم التالى ينتظم موكب زفافها للذهاب إلى سراى زوجها من خلال مهرجانات ضخمة يتقدمها الفرسان والموسيقات العسكرية، ويتم خلالها تزيين الحوانيت والطرق التى تمر عليها زفة العروس وهدم مساطب الدكاكين وغيرها لتوسعة الشوارع ثم رشها بالماء[٢]، كما يتنافس أصحاب الحرف فى المشاركة فى هذه المهرجانات بالتفنن فى اعداد المواكب التى يبرزون فيها أعمالهم والتى كانت بمثابة معرض متنقل يمثل الحياة الصناعية والإنتاجية فى البلاد كما تقوم الجوقات الموسيقية بعزف إلحانها، وتقديم أغانيها بينما يقوم آخرون بحمل شجيرات مزدانه بأكاليل الزهور والتيجان ومزخرفة بالشموع المضاءة، والكرات الملونة البراقة هذا إلى جانب اللوحات العريضة من النحاس المذهب المرفوعة على أقواس وخلف هؤلاء يسير المدعون من النساء المرتديات أجمل الفستانات يرددون مقاطع بعض الأغانى.

وبعد أن تصل العروس إلى بيت الزوجية، يسمح للعريس أن يرى وجه زوجته فى المساء المتأخر لأول مرة.[٣]

هذا عن طقوس الزواج عند المسلمين أما بالنسبة للأقباط فإن الأمر لا يختلف كثيرا، بل ينحصر الاختلاف فى إقامة قداس الزواج الذى يتم مساء فى الكنيسة حيث يرتدى العروس والعريس ملابس جديدة فى هذه المناسبة، ويسير الرجال إلى الكنيسة وهم حاملين الشموع والمصابيح بينما تطلق النساء الزغاريد، وبعد أن يوجه القس كلامه للعروسين ويتبادلان خاتمى الخطوبة يقوم أحد الحاضرين للتحدث لمجاملة العروسين فيقارن العروس مثلا بالقمر والعريس بالشمس، وقد يحذو آخرون حذو هذا الرجل وبعد انتهاء هذه المراسيم، تذهب العروس فى طريقها لمنزل العريس[٤].

([1])يذكر الجبرتى فى وصف حفل زفاف نظلة هانم ما قدم لها من الهدايا والأمتعة وان هذه الهدايا كانت تعرض على أم العروس أولا فإن اعجبتها تركتها وإلا أمرت بردها قائلة هذا مقام فلانه، فتتكلف صاحبه الهدية بزيادتها مع ما يلحقها من كسر الخاطر.
انظر. عجائب الآثار، جـ٤ (المحرم ١٢٢٩هـ/ ديسمبر ١٨١٣).

([2])وصف الجبرتى حفل زفاف نظلة هانم على محمد بك الدفتردار وما قدم إليها من الهدايا والأمتعة والجواهر، كما وصف موكب زفافها فى وسط المدينة وما حدث له فقال: " اطبق الجو بالغيام وامطرت السماء مطرا غزيرا حتى تبحرت الطرق وتوحلت الأرض وابتلت الخلائق من النساء والرجال المجتمعين للفرجة.. وتكدرت طباعهم وانتقضت أوضاعهم وزادت وساوسهم وتلفت ملابسهم... ولم تصل العروس إلى دارها إلا قبيل دنو الشمس من غروبها. انظر عجائب الآثار، جـ٤، ص ٢١٥.

([3])أكدت ذلك صوفيا لين التى حضرت زفاف زينب هانم ابنه محمد على على كامل باشا فذكرت ان العريس لم ير وجه عروسه إلا فى المساء المتأخر وانه بعد أن أزاح الحجاب عن وجه عروسه تقهقر إلى الوراء يمعن النظر فيها مدة دقيقة حيث كان يتهيأ لتأملها لأول مرة. انظر: حريم محمد على، ص ٣٢١.

([4])وينيفريد بلاكمان: المرجع السابق، ص ٨٢، ٨٣.

وبالنسبة لزواج اليهود المصريين فقد جرت العادة على تزويج الفتاة فى سن مبكـــرة، وكانت عملية الارتباط بين الرجل والمرأة تمر بثلاث مراحل هى التعـــارف والخطوبـــة ثـــم الزواج، وخلال فترة التعارف كان والد العروس يعقد ولائم ضخمة، وكان يتم فى إطار ذلـــك التوقيع على السند الخاص بمرحلة التعارف، وعقب ذلك الحفل كان يحق للعريس أن يلتقى مع الفتاة المتعارف عليها فى أوقات متقاربة، وبالنسبة للخطوبة فكان يلزمها توافر ثلاثة شـــروط هى أن تتم بموافقة الحاخام وفى حضور عشرة أشخاص يكون من بينهم كاتب المحكمة أو أحد الفقهاء، وأن يتم التوقيع على وثيقة الخطوبة أما عن أهم شروط عقد الزواج فقد تضمنت عدم اقتران الزوج بأمرأة أخرى إلا بموافقة زوجته الأولى[(١)]، والتزام الزوج بالانفاق على زوجته، وألا يحق له التمتع بمكاسب زوجته وكان المهر الذى يدفعه العريس لعروسه يدون فـــى عقـــد الزواج، وكانت مراسم الزواج تصاحب عادة بعقد الـــولائم الضـــخمة، وإقامـــة الاحتفـــالات الراقصة.[(٢)]

إن معظم هذه العادات قد تغييرت تقريبا فى غمار الحراك الاجتماعى الذى طرأ على المجتمع المصرى، فأصبحت الفتاة هى التى تختار عريسها أو توافق عليه، وأصبحت تتمـــرد على محاولة الأهل تزويجها بقريب منها، وترفض بإصرار الزواج على الطريقـــة التقليديـــة، لأنها بما اكتسبته من التعليم والخبرة والتفتح العلمى والثقة بالنفس أصبحت لديها الجرأة علـــى التعبير عن مشاعرها الحقيقية، كما أصبحت مؤهلة لزواج يحقق لهـــا الصـــعود فـــى الســـلم الاجتماعى. يضاف إلى ذلك أن نظرة الفتاة وأسرتها فى اختيار العريس قد تغيـــرت فبعـــد أن كان يفضل أن يكون موظفا فى وظيفة ميرى (أى حكومية) حتى تضـــمن لأســـرته معيشـــة مستقرة ومركزا اجتماعيا مرموقا تطبيقا للمثل المصرى القائل : "إن فاتك الميرى اتمرغ فـــى ترابه" أصبح العريس المنشود بين الفتيات حاليا هو الذى يملك شقة وسيارة وأمـــوالا ويكـــون شخص "نيولوك" New Look ولا يهم أن كان يعمل فى مهنة حكومية أو غيـــر حكوميـــة أو كان قد نال قسطا من التعليم أم لا.

هذا عن مواصفات العروس فى اختيار شريك حياتها أما عن العريس فبعـــد أن كـــان يفضل الفتاة التى لا تبرح بيتها، وتكون مسئولة عن تنسيق البيت حتى يعود من عمله فيجـــده مرتبا نظيفا، وتهتم بتربية أطفالها والعناية بهم وتوهبه جوا منزليا هادئا يستقر إليـــه، وســـنين عسل يتجلى خلالها معدنها الأصيل أصبح همه الأكبر هو أن تكـــون عاملـــة تشـــاركه فـــى

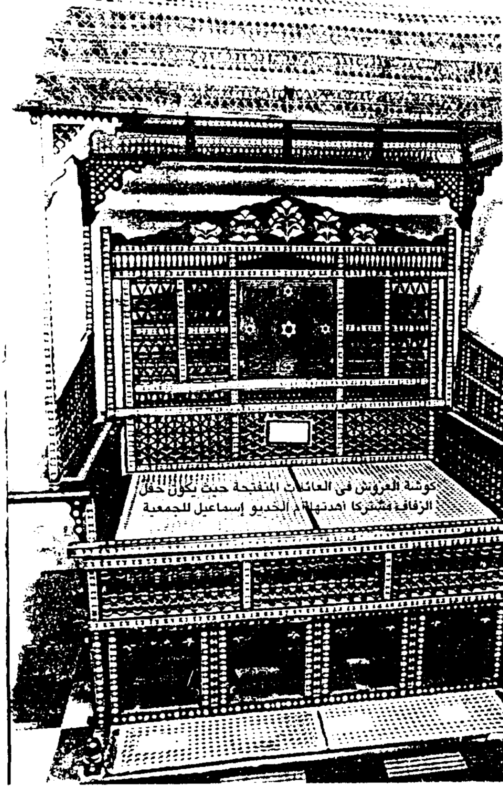
(١) يعقوب [illegible] فى الفترة العثمانية ١٥١٧ - ١٩١٤ ترجمة جمال الرفاعى وأحمد حماد، ص ٣٠٥.

(٢) [illegible] ١٩٢٢ [illegible] منشورة [illegible] أسيوط [illegible] ٢٠ ، ص [illegible]

مصاريف المنزل وفى أعباء المعيشة وأن يكون راتبها مقبولا يضاف إلى ذلك أنـــه بالنســـبة لعادات أحياء الأفراح فبعد أن كانت الأسر الغنية تحى أفراح انجالها فى منزلها بحفلات تحييها أم كلثوم أو عبد الوهاب يصر حديثو الثراء على إحياء أفراحهم فى الهيلتــون أو الشـــيراتون على أصوات "شعبولا" ورقصات "سنية شخلع" وأمثالها.

وهكذا تغير الذوق المصرى فى غمار الحراك الاجتماعى التى طرأ علـــى المجتمــع المصرى.

ومما سبق يتضح أن أفراح الأنجال لدى المصريين عموما كانت تمثــل ســـواء عنـــد الأغنياء منهم أو الفقراء مكانة هامة تبرز فيها العديد من العادات الموروثة والمستحدثة خاصة وأن البحث عن بنت الحلال الذى تسعد زوجها، وتريح قلبه، وتحفظه بحسن تدبيرها، وتكـــون سترا له فى الدنيا من الأمور التى تهفو إليها القلوب جميعا، وأن العصر الحاضر الذى نعيشه شهد تطورا حضاريا سريعا قلب الأمور رأسا على عقب فى كافة مناحى الحيـــاة الاجتماعيـــة وتغيير بعض تقاليد المصريين المتوارثة وعاداتهم، وظهور عادات جديدة، حلت مكان العادات القديمة الموروثة.


كوشة العروش فى العائلات المنفتحة حيث يكون حفل الزفاف مشتركا أهدتها أم الخديو إسماعيل للجمعية



المطربة الماظ



المطرب عبده الحامولي





راقصة تركية





الغناء



الحالة « ج » !

● هذه الصورة لبنت البلد والعسكرى ـ صاحب الاربع شرايط ـ الذى يفتل شاربه .. نشرت لاول مرة فى « اخر ساعة » فى ٢٨ يناير ١٩٤٨ .. ومعها هذه الابيات من الزجل تحت عنوان الحالة « ج » ..

وفيها يقول العسكرى المغرم صبابه :

يا ميت مسا الفل يا نجمة بين الصورين
فداكى لربع شرايط والنمر لتنين
فداكى فى سجن طوكر اتحبس سنتين
من شيخ حارتكم ؟ واسمه ايه ؟ وساكن فين
اشكه محضر تستر ع القمر ليلتين
يا جنحة موش ساعله فى حكومة ولا ف قوانين
يا حالة « ج » ماشية تتمخطر على رجلين !

ثبت المصادر والمراجع

أولا: الوثائق:

أ-دار الوثائق القومية:

- الداخلية، عربى، أوامر (١) ١٢٧٥ هـ.
- دفتر أنظمة ولوائح رقم ١٨٩١.
- محافظ أبحاث، محفظة رقم ١٤٩ ملف تراجم البراءات التركية.

ب-دار المحفوظات العمومية:

ملف رفاعة الطهطاوى

وثيقة محررة بخطه وموقعه منه ومختومه بخاتمه بتاريخ شوال ١٢٥٥هـ.

ثانيا: المصادر والمراجع العربية:

١- أحمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن، جـ١، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤.

٢- أدوارد وليم لين: المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر ترجمة عدلى طاهر نور- القاهرة- الانجلو المصرية ١٩٥٠م.

٣- جلال أمين: ماذا حدث للمصريين. تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن ١٩٤٥-١٩٩٥ ، القاهرة، مكتبة الأسرة ١٩٩٩.

٤- صوفيا لين بول: حريم محمد على باشا- ترجمة عزة كراره، القاهرة، سطور، ١٩٩٩.

٥- عامر العقاد: أحمد أمين حياته وآدابه، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٧١.

٦- عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ٤، القاهرة، المطبعة الشرفية، ١٣٢٢هـ.

٧- عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على، القاهرة، دار المعارف، الطبعة السادسة ٢٠٠١م.

٨- عبد المنعم الجميعى: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى العصر الحديث، القاهرة، مكتبة الصفا والمروة ١٩٩٦م.

٩- علماء الحملة الفرنسية: موسوعة تاريخ مصر- المصريون المحدثون ، جـ١، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م.

١٠- فكرى أباظة: الضاحك الباكى، القاهرة، دار الهلال، ١٩٣٣.

١١- محمد جبريل: مصر فى قصص كتابها المعاصرين، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٢.

١٢- محمد عمر: حاضر المصريين أوسر تأخرهم، القاهرة، مطبعة المقتطف ، ١٩٠٢م.

١٣- محمد كامل جمعه: حافظ إبراهيم ، القاهرة، ١٩٥٨.

١٤- وينيفريد بلاكمان: الناس فى صعيد مصر- العادات والتقاليد- ترجمة أحمد محمود، القاهرة، عين للدراسات والنشر، ٢٠٠٠م.

١٥- يعقوب لانداو وآخرون: تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية ١٥١٧- ١٩١٤ ترجمة جمال الرفاعى وأحمد حماد، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠.

ثالثا: المصادر الأجنبية:

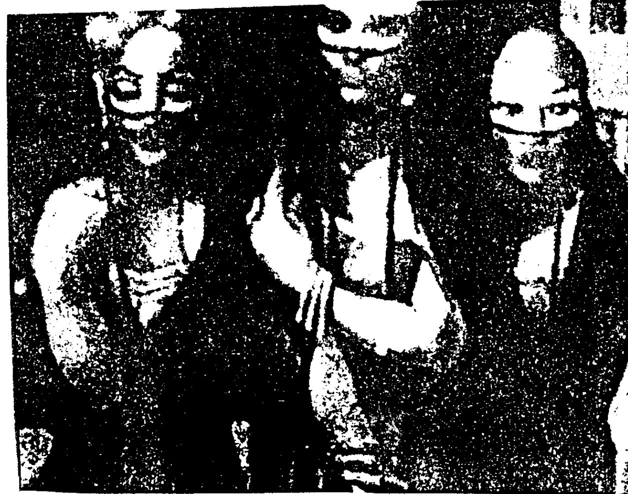
- Lane/ Edward: The Manners and Customs of Modern Egyptians , London, 1923.

رابعا: رسائل جامعية غير منشورة:

- رشاد رمضان عبد السلام، النشاط اليهودى فى مصر ١٨٩٧- ١٩٢٢ رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة أسيوط، ٢٠٠٢.

خامسا: الدوريـــات:

- الهلال عدد سبتمبر ٢٠٠٢.



أفـــراح الأنجـــال









أبهـــة المُلـــك وجـــلاله

ليالى ألف ليلة وليلة



أفراح أنجال الباشا(*)

تمثل الأفراح لدى المصريين سواء الأغنياء منهم أو الفقراء مكانة هامة تبرز فيها الكثير من العادات الموروثة والمستحدثة، فالبحث عن بنت الحلال التى تسعد زوجها، وتريح قلبه، وتحفظه بحسن تدبيرها، وتكون سترا له فى الدنيا من الأمور التى تهفو إليها القلوب.

وإذا كانت أفراح أنجال الباشاوات تتميز بالبذخ الزائد، والتنافس على تقديم الهدايا الثمينة وانفاق الأموال الكثيرة فان أفراح انجال العامة تتميز بالبساطة ويسودها التقاليد الشعبية التى يطغى عليها ضرب الدفوف والطبل البلدى والمزمار، وذغاريد النساء، ويظهر فيها الجدعان والفتوات من أبناء الحارة، وهم يتبارون بالنبابيت ويلعبون بالجريد والسيوف والرماح وإذا كانت بنات الباشوات يتنقلن إلى بيت الزوجية من خلال مهرجانات ضخمة يتقدمها الفرسان والموسيقات العسكرية، ويتم خلالها توسعه الشوارع التى يسير فيها شوار العروس بعد تنظيفها ورشها بالماء، فان العروس من بنات العامة كانت تحمل فى هودج (تختروان) مغطى بشال كشمير، ومحمل على جملين زينت اعناقهما بقلائد حريرية، وأجراس مختلفة فى رقابها، وكانت الشوارع التى يمر فيها موكب العروس تضاء بالمشاعل والقناديل الصغيرة التى تسير خلفها الفلاحات فى ملابسهن الزرقاء، وهن يصدرن أصواتا تعبر عن فرحهن حتى يتم الوصول إلى منزل العروسين وسط ضجيج وصخب كبيرين.

وإذا كان الذى يحضر حفلات عقد قران أنجال الباشوات أمراء العائلة المالكة ونظار الحكومة وكبار العلماء والأعيان بملابسهم الجديدة الملفتة للنظر، وكان يقدم لهم أفخر المأكولات والمشروبات فان الذى كان يحضر حفلات أنجال العامة هم العمال واصحاب الجلاليب الزرقاء امثال المعلم شلبى، والأسطى حنفى، وزعيط الفلاح وكانوا يجلسون القرفصاء أو على اقفاص من سعف النخيل حيث يتناولون المشروبات الشعبية، ويتعاطى بعضهم الأدخنة والحشيش وهم يستمعون إلى الأمثال العامية وإلى قصص ابو زيد الهلالى وعنتره.

وبينما كان يدعى لاحياء أفراح انجال الباشوات كبار الموسيقيين الذى يدفع لهم المبالغ الطائلة فان انجال العامة كانوا لا يدفعون أجرا للموسيقيين أو المهرجين خاصة إذا كانوا من أصدقائهم ، أو كانت تدفع لهم النقود من الحاضرين الذين جاءوا لدفع النقوط والمساهمة فى تكاليف الفرح.

وبينما كانت الهدايا المقدمة لانجال الباشاوات تمثل صورة من الحياة الطبقية الصارخة، فان هدايا انجال العامة كانت لا تزيد عن السكر والشربات والأرز والشمع والسمن والدجاج والأوز وبينما كانت تنفق المبالغ الطائلة على الأطعمة الفاخرة التى يتناولها ضيوف افراح انجال الباشاوات من صحون المحمر والكباب والكفتة والفاكهة فان ضيوف أفراح انجال العامة كانوا لا يتناولون سوى العدس أو البيسارة او الفول بالاضافة إلى المش والجبن والفجل والمخلل.

وبينما كانت الشوك والملاعق والسكاكين تستخدم فى قصور الباشوات فان العامة كانوا لايعرفون طريقة استخدامها، بل يجلسون القرفصاء على الأرض، ويستعملون ايديهم وأصابعهم حيث كانت أسهل عليهم من استعمال أشياء لا يحسنون استخدامها.

أفراح انجال الخديو إسماعيل:

وتعد أفراح انجال الخديو إسماعيل من الأفراح القليلة التى ما زالت أصداء لياليها الباهرة تتردد فى أذهان المصريين نظرا لما عاشته مصر خلال أيامها الأربعين من احتفالات فخمة، وإسراف اسطورى لم تر مثله فى عصرها الحديث، والتى ذكرت الناس بليالى ألف ليلة وليلة، وباحتفالات قطر الندى ابنة "خماروية" أمير مصر الطولونية بالخليفة العباسى "المعتضد" فقد تشابهت ليالى أفراح انجال الباشا مع هذه الأفراح، من حيث البذخ الشديد، وإقامة الزينات الفخمة وإعداد المواكب التى تعزف الجوقات الموسيقية الرائعة.

ففى حفل مهيب عقد الخديو إسماعيل قران أولاده الثلاثة، واحدى بناته فى وقت واحد، إذ عقد لولى عهده "محمد توفيق" على الأميرة "امينة هانم" بنت الهامى باشا ابن عباس الأول والتى

(*) نشرت هذه الدراسة بمجلة الهلال فى عدد سبتمبر ٢٠٠٢.

عرفت فيما بعد بأم المحسنين وللأمير "حسين" والذى عرف فيما بعد بالسلطان حسين كامل والذى نصبه الانجليز سلطانا على مصر على الأميرة "عين الحياة هانم" بنت الأمير أحمد رفعت ابن ابراهيم باشا نجل محمد على الكبير، وللأمير "حسن" ثالث انجاله على "خديجة هانم" بنت الأمير محمد على وحفيده محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة، كما زوج الخديوى ابنته الأميرة فاطمة الزهراء صاحبة اليد الطولى فى إنشاء الجامعة المصرية للأمير طوسون نجل محمد سعيد باشا ابن محمد على.

وقد بدأت أفراح الأنجال فى ١٥ يناير ١٨٧٣ واستمرت أربعين يوما كاملة باعتبار عشرة أيام لكل فرح منها، وقد اقيمت هذه الأفراح امام القصر العالى الذى كان تقيم فيه والده الخديوى وفى أرض قشلاق حرس القصر وحديقته والتى اطلق عليها بعد ذلك اسم المنيرة نظرا لاضاءتها بالأنوار طوال الأربعين ليلة، كما أصدر الخديوى إسماعيل أمرا بأن يطلق اسم افراح الأنجال على احد شوارع هذا الحى احتفالا بهذه المناسبة، وكرمز لاعظم فرح ارتدت فيه القاهرة أجمل ما لديها من حلى. كما فاقت مظاهر الاسراف والبذخ الوصف ما جعلها موضع أحاديث الناس فقد انفق الخديوى على هذه الأفراح وكما ورد فى الوثائق الرسمية مبلغ عشرة ملايين جنيه وسبعمائة وثلاثة وأربعون الف وخمسمائة وثلاثة وسبعون قرشا وثمانية عشر فضة وهو مبلغ بالغ الضخامة بالنسبة للعصر الذى انفق فيه، وبالنسبة للميزانية المصرية وقتذاك.

اعتبار أفراح الانجال مناسبة قومية:

جعل الخديوى من حفل زواج أولاده الأربعة مناسبة قومية، فعطلت المدارس واستقبل الأهالى نبأ هذا القران بغبطة شديدة، وعم الفرح مدينة القاهرة باكملها، كما شارك الآلاف من المصريين من كافة الطبقات سواء من كان منهم بالعاصمة أو من ظل فى اقليمه فى هذه الاحتفالات، وسارع بعضهم بعقد قران أولاده فى هذه الأيام احتفالا بهذه المناسبة الخديوية وقد تجلى البذخ خلال هذه المناسبة فى أوضح مظاهره، فزينت شوارع العاصمة بالثريات والفوانيس المختلفة الألوان، ووضع فى نهايتها أقواس نصر فى أشكال متعددة، ونصبت السرادقات الفخمة المزدانة بأفخر الرياش لاستقبال المدعوين الذين قدم لهم صنوف الأطعمة على مختلف أنواعها، كما وزع على الأهالى صحون نحاسية مملوءة بالأرز المطهى بخلاصة رؤوس الضأن والعجول الصغيرة والذى أطلق عليه أرز إسماعيل وقدم لهم الخدم العصائر والحلوى والقهوة، ونثروا عليهم الماء المعطر برائحة الورد.

وإلى جانب ذلك اقيمت سرادقات فى العديد من الميادين، دعى اليها كبار المطربين والمطربات، واشهر العوالم والراقصات كما نصبت تخوت الالاتية التى استمرت تصدح وتشنف الآذان بأعذب الألحان وكان منها تخت عبده افندى الحمولى الذى كان يبعث فى الحضور طربا وانتعاشا، كما نصبت المسارح على بوابه قصر عابدين وسور حديقته، واقيمت المسارح المرتجلة التى جمعت غواة الفن من أنحاء القاهرة والأقاليم لتمثيل المسرحيات المضحكة، فكان البهلوانيون وفرق الحواة والقراقوز وخيال الظل يمدون حبالهم لعرض ألعابهم على الحاضرين، كما كانت الصواريخ تنطلق فى الليل بين تهليل الصبيان وصياحهم. واحتفاء بهذه المناسبة قدم الخديوى دعوة لطلاب المدارس للاشتراك فى تناول الأطعمة والحلوى، وسماع الموسيقى والأغانى، ومشاهدة الصواريخ التى تنطلق من حديقة الأزبكية التى تحولت ساحاتها إلى مولد حقيقى. وخلال ذلك ارسلت الهبات السينة التى وهبها الخديوى لمستحقيها، ووزعت الصدقات على الفقراء والمساكين، كما تنافس الأمراء والذوات والأعيان فى التسابق إلى سرايات الخديوى لتقديم الهدايا الثمينة. وقد بالغ الخديوى فى منحه الأراضى لانجاله وأفراد أسرته والاقارب والاصهار وحتى الخدم والحشم ابتهاجا بهذه المناسبة.

وبينما كانت الاحتفالات فى شوارع العاصمة وميادينها قائمة على قدم وساق كانت هناك احتفالات خاصة فى سراى عابدين دعى إليها الأمراء والوزراء والأعيان وشيخ الأزهر، ورجال السلك الدبلوماسى من الشرقيين والأجانب وعقيلاتهم، وفيها اقيمت الولائم الفاخرة والمراقص الساهرة التى شارك فيها الخديوى بنفسه.

ولم يقتصر الأمر على تجمعات الرجال، بل شغلت قصور الحريم تجمعات النساء وقد شارك فى أحياء هذه الليالى مشاهير المطربين ففى أماكن تجمع الرجال غنى عبده الحمولى ومحمد عثمان والمعلم شاكر أما فى قصر الوالده باشا وغيره من القصور التى تجمع فيها النساء فقد غنت الماظ، والأسطى ساكنة، والوردانية، كما قامت امرأة تسمى بهلوانه بالسير فوق الحبل غير ارتفاع كبير وهى تحمل معها شاة صغيرة تقوم بذبحها وإلى جانب ذلك فقد أقيم بالعباسية مهرجان سباق للخيل، ومد فيه على نفقة الخديوى الخاصة مقصف للمدعوين، كما أقيم مرقص فى قصر الجزيرة دعى إليه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف من الأجانب وأعيان البلاد ووجهائها واضيئت الطرق من عابدين إلى الجزيرة بفوانيس من الورق الملون.



جهاز العرائس:

وقد بلغ شوار العرائس من الفخامة مبلغا تجلت فيه نزعة إسماعيل فى الشغف بالترف والاسراف والبذخ فكان جهاز كل عروس منسقا فى ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالى للعرض على الأنظار وهو يتكون من أنواع لحلى المختلفة الأشكال، المرصعة بالجواهر والماس، هذا عدا الأوانى الذهبية والفضية والمرايا وفناجين القهوة بزخرفتها الذهبية المحلاة بالجوهر، وفصوص الماس والياقوت.

وكان كل جهاز من الجهازات الأربعة يطاف به فى أنحاء المدينة محملا على عربات تحت حراسة الجند الراكب تتقدمها فرقة موسيقية لارسالها إلى سراى العروس، وكانت الشوارع التى يمر بها تزدحم بجماهير الناس، وكذلك كانت شرفات المنازل والفنادق تغص بالمتفرجين الذين يهللون ويكبرون ويدعون للخديوى وانجاله بدوام العز والبقاء.

ولقد افاض مؤرخو عصر إسماعيل امثال الياس الأيوبى، وأمين سامى فى الحديث عن شوار العرائس وخط سيره فذكر صاحب تقويم النيل أن أول من خرج من شوار العرائس كان شوار الأميرة أمينة هانم زوجة الأمير محمد توفيق حيث انتقل إلى قصر القبة حيث يقيم العريس فسارت زفة الشوار عبر شوارع القاهرة فى موكب عسكرى تتقدمه جوقة موسيقية، وكان يتبع هؤلاء عربات المدعوين، وكانت العروس تركب عجلة التشريفة الكبرى يجرها ثمانية من الخيول البيضاء وكانت الهدايا موضوعة فى أسبته مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس، يغطيها شاش فاخر يمسك بأطرافه أربعة جنود فى كل عربة، ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية، والسيوف مشهرة فى أيديهم، وكان من بين الهدايا هدية الخديوى إسماعيل لابنه توفيق وهى عبارة عن سرير من الفضة الصب الخالصة شبيه بالذى اهداه إلى الامبراطوره الفرنسية أوجينى زوجة نابليون الثالث أثناء اقامتها بمصر وكان محلى بماء الذهب، وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر، والزمرد والفيروز.

وقد تبع هذا الموكب مواكب مشابهة تحمل شوار الاميرات عين الحياة، وخديجة، وفاطمة، **والهدايا المهداة إليهن والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل تم شراء جهاز الاميرات السابق ذكرهن من خارج البلاد ام من داخل مصر؟**

الواقع أن الخديوى إسماعيل كان يفضل الشراء من المتاجر المصرية بدلا من الأجنبية، فعلى الرغم من رسو العطاء على محل "باسكال" الفرنسى فقد رأى إسماعيل ان يتم الشراء من المحلات المصرية بقوله إذا كانت المحلات والمتاجر المصرية لا تنتفع من أفراح اولادى فمن أفراح من تستفيد.

وعلى أى حال فقد تبارى الشعراء والكتاب فى تأليف المنظومات والأدوار الغنائية المختلفة، فألف رفاعة الطهطاوى رسالة أدبية سماها "الكواكب النيرة فى ليالى أفراح العزيز المقمرة " وصف فيها تلك الأفراح التى لم تعرف مصر قبلها أو بعدها مثيلا وقد بدأ رفاعة هذه الرسالة بمقدمة مدح فيها الخديو إسماعيل واثنى على طريقته فى تزويجه أولاده من بنات أعمامهم، ثم اخذ يثنى على كل أمير وزوجته خاتما ثناءه عليهما بابيات تؤرخ هذا الزواج، فلكل زوج تهنئه باسمه، ولكل زوجه تهنئه أخرى باسمها كذلك.

كما وضع إسماعيل صبرى باشا، ومحمود سامى البارودى، والشيخ على الليثى، والشيخ عثمان الجندى، والشيخ محمد الدرويش وضعوا طائفة من أبدع الأغانى، كما تبارى رجال

الموسيقى فى وضع المقطوعات الخاصة بهذه المناسبة، وكان فى مقدمة هؤلاء الموسيقيين وقتذاك محمد ذاكر بك الذى وضع مارش أفراح الانجال، ومارش أفراح القبة، ومارش الهوانم.

وكان من أشهر المطربين الذين اشتركوا فى أحياء حفلات هذه الأفراح الشيخ محمد عبد الرحيم المشهور باسم المسلوب والشيخ محمد الشلشمونى، ومحمد عثمان، واحمد صابر وعبده الحامولى، واحمد صابر، ويوسف المنيلاوى، وعبد الحى حلمى، ومن أشهر العازفين محمد العقاد، ومحمد ابراهيم، وعبد الحميد القضابى،ومن المطربات الماظ والوردانية ونزهة.

وهكذا كانت أفراح انجال الباشا بمثابة بانوراما فنية سهرت فيها القاهرة اربعين ليلة شبيهة بليالى الف ليلة وليلة التى أضحت أمامهم حقيقة لاخيال ، خيل للناس خلالها أن هذه الأفراح هى أفراح الأمة بأسرها، فقد غنى الناس وزمروا وطبلوا فى هذه الأفراح الذين استهواهم صخبها وضجيجها، دون أن يدرك معظمهم ان ما ينفق فيها من أموال، وما يظهر من بذخ كان نتاج عرقهم وجهدهم وان ما حدث من سفه وابتذال بغير حساب هو من أموالهم وأقواتهم وانه سيكون فى النهاية خطرا على مسار الدولة الاقتصادى الذى يمكن أن يساعد على أفلاسها. وحتى لو عرف بعض هؤلاء المصير المنتظر ماذا كان بيدهم ان يفعلوه مع حاكم شرقى لا يسأل عما يفعل فقد حدث مثل ذلك من قبل أثناء احتفالات افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ بل وأكثر منه حيث كان الخديو ينثر أموال الخزانة المصرية ذات اليمين وذات اليسار، ولم يستطع أحد ان يهمس ببنت شفه .

وهكذا كانت حياة الشعب المصرى يكتنفها البؤس والحرمان مقابل النعمة والثراء والترف التى يعيشها هؤلاء الذين جعلوا من حفلات زواج انجالهم ومراسيمه معرضا للحفلات الاسطورية، ومصدرا للتفاخر والابهة مما أدى إلى استنزاف اموال الدولة بلا طائل سوى مظاهر خادعة ساعدت على تعرض أبناء مصر للفاقة والحرمان. وإذا كان ترف خمارويه وتبذيره خلال زواج ابنته قطر الندى وتجهيزها ومراسيم انتقالها إلى بغداد قد أدى ببيت مال مصر إلى الافلاس فان الحفلات التى تمت خلال أفراح انجال إسماعيل باشا، والأموال التى صرفت من خلالها لاشك أنها اثرت على الخزانة المصرية التى كان مفتاحها فى جيب الباشا الخاص. ومع كل ذلك فان هذه الأفراح قد بلغت من الشهرة ما جعلها تتناقل على ألسنة الناس جيلا بعد جيل حقيقة لقد كان عصر إسماعيل عصر المتناقضات فقد جمع بين القوة والضعف، والنور والظلمة، والازدهار والانهيار، والهناء والشقاء، والخصب والجدب، والعز والمذلة، والعدالة والظلم، ولكنه فى النهاية كان العصر الذى فتح أبواب مصر على مصراعيها امام طوفان رأس المال الأجنبى الذى تسبب فى نهاية الأمور إلى سيطرة الاجانب على شئون البلاد.

وانتهى أمر هذه الأفراح، ولم تبق من ذكراها إلا لافتة صغيرة زرقاء الصقت على احد جدران البيوت فى حى المنيرة، وكتب عليها شارع أفراح الانجال.

المصادر والمراجع التى تم الاستعانة بها فى هذه الدراسة:

- وثائق ديوان المالية الخاصة بلوازم المهرجان السامى، ومحفظة رقم ١٤٩ ابحاث تحت عنوان "ملف البراءات الواردة للديوان قبل نوفمبر ١٩١٤" (دار الوثائق القومية).
- مذكرات عباس حلمى الثانى (عهدى).
- احمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن ، جـ١.
- الياس الأيوبى: تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل، جـ٢.
- امين سامى: تقويم النيل وعصر إسماعيل باشا.
- ستانلى لين بول: حريم محمد على باشا.
- عبد الرحمن زكى: القاهرة.
- محمود الحفنى: ثلاثة أعراس أودت بالخزانة إلى الافلاس.
- السياسة الاسبوعية السنة الثانية العدد ٦٤.
- مصر المحروسة، جـ١، اكتوبر ٢٠٠٠.



لافتة شارع «أفراح الأنجال»

١٢ حكاية ريا وسكينة من أبرز القضايا النسائية فى تاريخ مصر الحديث(*)

شغلت هذه القضية الرأى العام المصرى كثيرا، وعبر المصريون عن فجيعتهم فى بشاعتها خاصة وانها تجاوزت كل حدود الاعراف والطبائع البشرية وشكلت مشاهدها بواعث الرعب والهلع والفزع فى نفوس كل من عرف بها أو سمع عنها لما مثلته من همجية وبربرية وبلادة حس ووحشية لا حدود لها الأمر الذى جعل وقائعها مادة خصبة لكثير من الأعمال الدرامية سواء فى السينما أو المسرح او التلفزيون.

لقد وقعت هذه الجريمة فى حى اللبان أفقر أحياء الاسكندرية وبلغ عدد المتهمين فيها عشرة أشهرهم ريا وأختها سكينة، وقتل فيها سبعة عشر أمرأة فى الفترة ما بين نوفمبر ١٩١٩ ونوفمبر ١٩٢٠، دفنت جثثهن فى ثلاثة منازل فى أحياء الاسكندرية القديمة منها منزل اللبان الذى يقع بالقرب من قسم شرطة اللبان.

لقد كشفت لنا وقائع هذه الجريمة صورة الاسكندرية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، كما كشفت لنا احوال مصر فى حقبة تاريخية هامة فى حياتها، فقد استغلت عصابة "ريا وسكينة" ظروف انشغال الجهات الأمنية بظروف البلاد السياسية، وباشتعال حركة المقاومة ضد الاحتلال، وانشغال الزعامات الوطنية فى المطالبة بالاستقلال وتنفيذ مبادئ الرئيس الامريكى "ولسن" الاربعة عشر التى تدعو إلى تقرير مصير الشعوب استغلت كل ذلك وقامت بجرائمها التى تعد من أفظع الجرائم التى سمع بها الانسان المصرى، لدرجة أن الأهالى الذين ذهبوا إلى المحكمة لمشاهدة محاكمة المتهمين أرادوا تمزيق الجناة إربا قبل تنفيذ أحكام القضاء فيهم، وفيما يلى نعرض لمسلسل الأحداث .

تبدأ أحداث هذه الجريمة بنزوح ريا وسكينة من أعالى الصعيد إلى بنى سويف ثم إلى كفر الزيات ، هربا من فضيحة لحقت بريا وخشية من قيام أهلها بقتلها، وقد مارست ريا أعمال بنات الهوى فى كفر الزيات أما "سكينة" فكانت فتاة صغيرة، ولما اشتد عودها دخلت فى منازل المومسات وبعد ذلك احبها شخص يسمى "عبد العال" كما تزوجت "ريا" بشخص يسمى "حسب الله" كان يعمل فى مصنع للقطن ويشتغل بالجرائم والسرقات.

سافرت "سكينة" إلى الاسكندرية وبعد ان استقرت بها لحقتها "ريا" وزوجها حيث استقروا بسكن هناك بجهة "الازاريتا" وهناك اتفقت الأختان على فتح بيوت للهو والفحشاء ونفذوا هذا العزم ففتحوا جملة بيوت للدعارة منها بيت بسوق العصر سموه الكامب لأنه كان يوجد معسكر لقوات الاحتلال بالقرب منه، وبيتا بجهة جامع الفحام، وبيتا فى جهة جامع أخواص، وبيتا فى جهة العيونى، وبيتا فى شارع على بك الكبير، وبيتا فى مكوبس وراء مخبز اللبان وأنهم تعرفوا خلال ذلك على عرابى حسان احد الفتوات ليقوم بالتصدى لكل من يقف فى سبيلهم، كما تعرفوا على العربجى "عبد الرازق" وغيره ممن ثبت اسمائهم فى التحقيقات.

وقد راودت هؤلاء فكرة استدراج النساء المتحليات بالذهب والمعادن الثمنية وقتلهن والاستيلاء على مصوغاتهن وما معهم من نقود.

تلقى البلاغات:

وفى غضون الفترة من بدايات يناير إلى ١٤ نوفمبر ١٩٢٠ ورد إلى بوليس قسم اللبان عشرة بلاغات عن اختفاء عشر نسوة من دائرة القسم المذكور، فتقدمت زينب حسن ببلاغ عن اختفاء ابنتها "نظلة ابو الليل" البالغة من العمر ٢٥ عاما، وكان هذا هو البلاغ الأول الذى بدأت معه ملامح مذبحة النساء تدخل إلى أروقة بوليس الاسكندرية. قالت صاحبة البلاغ أن ابنتها "نظلة" اختفت من عشرة أيام، وانها كانت تتزين بغوايش ذهب فى يدها وخلخال

(*) نشرت بمجلة الشرطة فى عدد يوليو ٢٠٠٦.

فضة وخاتم وحلق ذهب وانتهى بلاغ الأم بأنها تخشى أن تكون ابنتها قد قتلت بفعل فاعل لسرقة الذهب الذى تتحلى به. وفى ١٦ مارس من نفس العام كان البلاغ الثانى الذى تلقاه رئيس نيابة "الاسكندرية" عن اختفاء "زنوبة" التى خرجت لشراء لوازم البيت ولم تعد إليه ! وقبل أن تتجه شكوك أجهزة الأمن نحو أحد، تلقت النيابة بلاغا من فتاة عن اختفاء أمها "زنوبة عليوة" بائعة الفراخ. وقد حددت صاحبة البلاغ اسم "سكينة" باعتبارها آخر من تقابل مع أمها. وفى نفس الوقت تتلقى أجهزة الأمن بالاسكندرية بلاغا من شخص يعمل جناينى بمنطقة القبارى يؤكد فيه أن زوجته "نبويه" اختفت من عشرين يوما، كما تلقى بلاغا من نجار يذكر فيه اختفاء زوجته "فاطمة" التى تعمل شيخة مخدمين، وانها كانت تتزين بالذهب ومعها مبلغ من المال، ثم كان بلاغ من اختفاء فتاة اسمها "قنوع" عمرها ١٣ عاما وبلاغ آخر من خواجة يدعى "وديع جرجس" يذكر فيه ان خادمته "لولو" خرجت لشراء أشياء من السوق ولم تعد. وتوالت البلاغات فجاء بلاغ عن اختفاء "سليمة" بائعة الكيروسين التى تسكن بمفردها فى حارة اللبان ثم بلاغ آخر من سيدة سودانية تذكر أن ابنتها "فردوس" اختفت فجأة وكانت تتزين بمصاغ ثمنه ٦٠ جنيها وزوج أساور ثمنه ٣٥ جنيها وحلق قشرة، وقلب ذهب معلق بسلسلة ذهب وخاتمين حريمى.

وهكذا عاشت الاسكندرية فى جو من الفزع والرعب، فالبلاغات لم تتوقف والخوف يسيطر على كل البيوت، وحكاية عصابة خطف النساء انتشرت على كل لسان. وبدات النيابة تحقق والشرطة تبحث وتتبع رحلة اختفاء هؤلاء النسوة، ولكن التحريات والتحقيقات لم تصل فى النهاية إلى اجابات محددة عن من هم الجناة حتى تتدخل عدالة السماء، وتحكم قبضتها وتكشف عن الجريمة اللغز.

بداية اكتشاف الجريمة:

فى صباح ١١ ديسمبر ١٩٢٠ تلقت الشرطة اشارة من عسكرى الدورية بشارع أبى الدرداء بانه عند قيام أحد الأهالى بالحفر فى بئر الصرف الصحى بمنزله عثر على جثة امرأة وبجوار الجثة عثر على طرحة من الشاش الأسود وفردة شراب سوداء مقلمة بأبيض، وأمام هذا البلاغ تحمس ملازم شاب بقسم اللبان واسرع إلى مكان الحادث حيث امر باستمرار الحفر ليكتشف فى النهاية أن "سكينة" هى التى كانت قد استأجرت الحجرة التى عثر فيها على الجثة وخلال ذلك لاحظ أحد المخبرين السريين المنتشرين فى كل أنحاء الاسكندرية بحثا عن مزيد من الأخبار انبعاث رائحة بخور مكثفة من غرفة "ريا" الكائنة بشارع على بك الكبير، واكد المخبر ان دخان البخور كان ينطلق من الحجرة بشكل مريب مما أثار شكوكه فقرر أن يدخل الحجرة التى يعلم تمام العلم أن صاحبتها هى "ريا" أخذت "سكينة" مما أصاب "ريا" بارتباك شديد خاصة بعد أن سألها المخبر عن سر اشعال هذه الكمية الكبيرة من البخور فى حجرتها. ونتيجة لذلك أسرع المخبر "احمد البرقى" إلى "اليوزباشى" ابراهيم حمدى "نائب مأمور قسم اللبان ليبلغه عن شكوكه فيما رأى. وعلى الفور انتقلت قوة من رجال الشرطة إلى غرفة "ريا" ليجدوا انفسهم أمام مفاجأة كبيرة لقد شاهد الضابط رئيس القوة ان البلاط الموجود فوق أرضية الحجرة حديث التركيب خاصة فى جزء منها، ولما أمر بنزع هذا البلاط تصاعدت رائحة عفنة بشكل يصعب احتماله، كما ظهرت جثة امرأة عارية مما أصاب "ريا" بالهلع وازداد ارتباكها، وتوالى اخراج الجثث مما جعل "ريا" غير قادرة على الإنكار.

الاعترافـــــات:

وهنا تضطر "ريا" إلى الاعتراف كما بدأت التحقيقات تكشف كيف كانت ريا تصطاد فرائسها؟ لقد اتضح من التحقيقات ان "ريا" كانت تذهب إلى سوق الخيط أحيانا، وتدنوا من المرأة التى تراها متحلية بالذهب، وتحادثها فى أمر أن عندها بضائع مسروقة من الجمرك وتباع باثمان رخيصة وتشجعها على مشاهدة تلك البضائع بمنزلها وبعد أن يتم استدراجها تعد العدة لقتلها حيث يقوم محمد عبد العال وحسب الله زوجى ريا وسكينة واثنين آخرين معهما

غالبا بخنق الضحية او بكتم انفاسها وسلب ما معها من مجوهرات ثم دفنها فى مكان الجريمة سواء كانت فى منزل "ريا" أو "سكينة".

وحيث أنه باستجواب "سكينة" امام النيابة قررت انها اشتركت بالاتفاق مع أختها "ريا" فى قتل عشرة نسوة من اللائى وجدت جثثهن بالمنازل المذكورة وبأن مطلقها "محمد عبد العال" و"حسب الله" زوج "ريا" وعبد الرازق وعرابى صاحبهم شاركوهم فى ذلك كما قتلوا اخريات وقررت بأن المجنى عليهن كانت تجئ، بدعوة منها أو أختها "ريا" إلى تلك المنازل للالتقاء بالرجال حيث يكون هؤلاء المتهمون فى انتظارهن مستعدين باتفاقهم معها ومع اختها "ريا" على قتل تلك النسوة وسرقة ما يكون عليهن من مصوغات. ولأجل تسهيل قتلهن بواسطة من ذكروا من المتهمين كانت تقدم إليهن الخمور القوية المفعول لاسكارهن سكرا شديدا لا يستطعن معه محاولة أى مقاومة او استغاثة فكان أولئك المتهمون ينتهزون هذه الفرصة لاغتيالهن بواسطة كتم النفس والخنق، وقررت أيضا بأن احدهم كان يخنق كل أمرأة منهن بمنديل يشده حول عنقها أو بيديه بينما كان الآخرون ممسكين بيدها ورجليها وصدرها أو فمها لمنعها من إبداء أى حركة إلى أن تزهق روحها ثم يدفنون جثتهم بعد تجريدهن من مصوغاتهن وما يجدونه معهن من النقود، وكانت المصوغات تباع بعد ارتكاب الجرائم بمعرفة "سكينة" إلى أحد الصاغة، وتوزع أثمانها بينهم وحيث ان "ريا" اعترفت فى اقوالها امامه النيابة باشتراكها هى وسكينة كما اعترف باقى المتهمين بجرائمهم فقد حكمت المحكمة حضوريا باعدام كل من "ريا" و "سكينة" وحسب الله ، و"محمد عبد العال" و"عرابى" و"عبد الرازق" بعقوبة الاعدام وحكم على الصائغ الذى كان يشترى الذهب من "ريا وسكينة" بالسجن مع الشغل لمدة خمس سنوات وبراءة باقى المتهمين.

هذا ما حكمت به المحكمة بجلستها العلنية المنعقدة بسراى محكمة الاسكندرية الأهلية فى يوم الاثنين ١٦ مايو ١٩٢١.

وعندما صدرت هذه الأحكام صرخت "سكينة" فى رئيس المحكمة بقولها "أنا ولية لكن جدعة وحاتشنق محل الجدعان" وقتلت ١٧ واستغفلت بوليس اللبان وغافلت الحكومة ثم نطقت بالشهادة، أما "ريا" فكانت منهارة وكان آخر طلب لها قبل الاعدام ان ترى ابنتها "بديعة" اما "حسب الله" زوج "ريا" فقد قال قبل اعدامه انه قتل ١٥ فقط وليس ١٧.

وفى ٢١ و ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١ تم تنفيذ حكم الاعدام داخل سجن الاسكندرية، وبذلك طويت صفحة هذه القضية بتكتيكها الاجرامى بقتل ودفن القتلى فى أرضية السكن بشكل احتار الخبراء فى تفسيره، وان ظلت حية فى نفوس أهل الفن وكتاب الدراما وقصص التاريخ.



ريا وسكينة أشهر الجرائم فى سجل الأمن المصرى



المرأة فى حياة زعماء مصر السياسيين(*)

إن تاريخ المرأة المصرية لم يكن أبدا وبأى حال منفصلا عما يـدور فـى المجتمـع المصرى من قضايا ومشكلات فالرجل لم يصنع الحياة وحده بل كانت المرأة دائما إلى جواره مشاركة له فى كافة مناحى الحياة المختلفة منذ حواء أم البشر.

وعلى الرغم من أن ذلك ينطبق على دور المرأة فى الشـرق والغـرب معـا إلا ان الاعتبارات التى تحيط بالمرأة الشرقية قد تجعل التعرض لها فى تراجم الرجال أمـرا يكـاد يكون مجانبا للحشمة من وجهة نظر الكثيرين مما يجعل بعض الباحثين لا يقتربون كثيرا مـن مثل هذه الموضوعات على الرغم من ان الباحث الجاد يمكنه ان يتعرض لمثل هذه الوقائع من خلال دفتر التاريخ النسائى المعاصر على ان يكون ذلك فى ثوب يخضع للعلم ويحترم الحقيقة ويلتزم حدود اللياقة دون ان يغرس السكاكين أو يحرق البخور أو ينثر الرياحين. فالمرأة سـر الحضارة وقانون البقاء والاستمرار ولولاها ما أثمرت شجرة، ولا تفتحت زهرة، ولا ابتسـم طفل، ولأصبحت الحياة بالنسبة للرجل سقيمة فارغة فهى الانسان الذى يمكن ان يجلب السعادة كما يجلب الشقاء وقد شبهها البعض بالزهرة الكثيرة الأشواك التى لا يستطيع أحد ان يستخرج أطيب ما فيها دون ان يتأثر بشوكها سوى البستانى الماهر وشبهها البعض الآخر بالنحلة التـى تعطى العسل وتلدغ فى ذات الوقت.

ويمر وصول المرأة عامة إلى كرسى السلطة والتدخل فى أمور السياسة بطريقين:



الأول: هو الوصول عن طريق نظام الوراثة أو نظام الانتخاب، وفى هذه الحالة لا تتدخل انوثتها او تأثيرها فى طريقة وصولها إلى تلك المراكز الهامة.



(*) نشرت ضمن بحوث كتابنا دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى.

والأمثلة علي ذلك في التاريخ الانساني تكاد تكون معروفة فجولدا مائير ربما كانت أقل أنوثة من وزير دفاعها موشي ديان ، واندير اغاندي الذي اتسم وجهها بالصرامة ، ووصفها البعض بأنها رجل الهند القوي يمكن ضمها إلي عالم الرجال بدلا من عالم النساء ، ومرجريت تاتشر تلك المرأة الحديدية التي حكمت بريطانيا واتخذت من القرارات المؤثرة في تاريخ بلادها ما يصعب علي بعض الزعماء من الرجال اتخاذه كانت منتخبة من قبل الشعب البريطاني ، ولم يكن لأنوثتها أي تأثير عندما وصلت إلي كرسي الحكم .

أما الثاني : فهو تسلل المرأة إلي السلطة عن طريق أنوثتها ودخولها إلي عالم السياسة من الشباك لعدم تمكنها الدخول من الباب ، وتحكمها في أمور الحكم ، وتوجيهها للقيادات العليا في الدولة ، وحشر أنفها في صنع القرار السياسي عن طريق صلتها بحاكم معين أو زواجها من زعيم أكبر منها سنا ، وهذا كان شأن السلطان العثماني « سليمان القانوني » مع « روكسلانة » Roxelane الروسية ذات الجمال والدلال والوجه الباسم والتي سيطرت علي عقله وقلبه ، وأصبحت بمثابة مستشاره الأول مما أضر بالمصالح العليا للدولة العثمانية ضررا بليغا (١) .

ومن المعروف أن مصر كانت أول دولة في التاريخ القديم حكمتها امرأة ففي العصر الفرعوني حكمتها حتشبسوت ، كما كان لنفرتيتي دور مؤثر في إذارة دفة الحكم ، وفي العصر البطلمي حكمتها كليوباترة ، يضاف إلي ذلك أنها أول دولة في العصور الوسطي حكمتها امرأة أيضا حيث حكمتها شجرة الدر في نهاية العصر المملوكي والتي ارتبط دورها تاريخيا بالحملات الصليبية ، أما في العصر الحديث وبخاصة في القرن

---

(١) للتفاصيل : انظر عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفتري عليها جـ ١ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٤ ، ص ٦٠٤ - ٦٠٥ .

العشرين فقد أثر في مسيرة مصر السياسية والاجتماعية العديد من النساء المصريات وغير المصريات وكانت لهن بصمات واضحة في تكوين الزعامات المصرية ومساندتها أحيانا وتوريطها والاساءة اليها في أحيان أخري والأمثلة علي ذلك متعددة منها :

أثر حب مصطفي كامل لعزيزة بنت الجيران في تكوين شخصيته وعزوفه عن الزواج ، وأثر جوليت آدم في فتح أبواب الصحافة الفرنسية والأوربية أمامه خلال دفاعه عن القضية المصرية في أوربا ، وأثر الأميرة نازلي فاضل صاحبة الصالون الشهير (١) في تكوين ومساندة العديد من رجالات مصر وزعاماتها أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين وغيرهم . وأثر صفية السادات علي مسيرة حياة الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ورئيس حزب الاصلاح علي المبادىء الدستورية ، وأثر عزيزة روتشبرون (٢) في الوقوف بجانب محمد فريد، وأثر صفية فهمي في تكوين سعد زغلول ووصوله إلي الشهرة وضمه إلي طبقة جديدة ، وأثر عائشة بنت عبد الفتاح يحيي باشا في التأثير علي مستقبل اسماعيل صدقي السياسي لفترة ، وأثر زينب الوكيل في حياة مصطفي النحاس وزعامته للوفد ، وأثر المرأة في حياة كل من الملك فاروق وجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأنور السادات .

والسؤال المطروح هو : هل المرأة المصرية التي كانت تنتمي إلي الطبقة العليا هي التي استطاعت أن تلعب دورا مؤثرا مع الزعامات المصرية خاصة في فترة ماقبل ١٩٥٢ أم أن نسوة من مختلف الطبقات لعبن هذا الدور ، وهل كان للمخابرات الأجنبية دورها في بث عيون لها بين هذه الزعامات خاصة بعد عام ١٩٥٢ .

الواقع أن بعض نساء الطبقة العليا في المجتمع هن اللاتي

---

(١) لتفاصيل ذلك : انظر الموضوع الثاني من هذا الكتاب ، ص ٢٥ ـ ٣٨ .

(٢) اسمها الحقيقي رينيه روتشبرون ـ ريفارد .

استطعن دون غيرهن من نساء الطبقة الشعبية التأثير على الزعامات المصـــرية خاصـــة وأن ثقافتهن، وتأثرهن بالأفكار الأوربية أتاح لهن ما لم تتحه الظروف للفلاحة التى تعمل فى الحقل وتلهث وراء لقمة العيش أو للمرأة الصعيدية التى ترضع أطفالها لبن الثأر فنازلى فاضل كانت احدى أميرات الأسرة الحاكمة، وزينب الوكيل ابنة الباشوات كانت سليلة الطبقة الارستقراطية، **وعائشة عبد الفتاح كانت ابنة عبد الفتاح يحيى باشا الذى تولى رئاسة الـــوزارة فـــى مصـــر** مرتين.

وبالنسبة لدور المخابرات العالمية فى توظيف بعض الفنانات فى اصطياد رجال الدولة والمسئولين فى مصر لمعرفة أدق أسرار البلاد فإن التاريخ يظهر لنا بوضوح مـــدى تـــورط بعض الفنانات مع المخابرات البريطانية وغيرها مثلما حدث مع الفنانـــة اســـمهان، وكاميليـــا وغيرها.

وفيما يلى نعرض لدور المرأة فى حياة بعض زعماء مصر السياسيين:

أولا: المرأة فى حياة أحمد عرابى:

لعبت النساء أدوارا كبيرة فى حياة عرابى وكان أكثرهن تأثيرا بالنسبة له هى مرضعة الأمير الهامى باشا التى تزوجها كما كانت بعض أميرات الأسرة الخديويـــة تقـــدر وطنيتـــه فعرضت عليه احدى الاميرات ان تتزوجه ولكنه اعتذر لها اعتذارا رقيقا قائلا لها ان مكانهـــا ان تعاون بنات وطنها فى تضميد جراح الجرحى المصريين[١]، وكانت الأميرة انجى زوجـــة سعيد باشا تربطها به علاقة وثيقة. وقد استطاعت الأميرة وقف الحكم الـــذى صـــدر ضـــده بالسجن لمدة ٢١ يوما غير انها لم تتمكن من منع فصله من الجيش، وحينمـــا تـــزعم احمـــد عرابى ثورته أهدته خيمة فاخرة كانت ملكا لزوجها وأصبحت هذه الخيمة هى مقر القيادة فى التل الكبير وظلت الأميرة على وفائها لعرابى حتى بعد انكسار الثورة فظلـــت تتـــابع أخبـــار محاكمته، وبعد الحكم عليه وعلى زملائه كتبت إلى المستر برودلى المحامى الذى دافع عنـــه واثنت عليه وشكرته على ما قدمه من خدمات إلى عرابى واهدته بعض الهدايا القيمـــة وإلـــى جانب ذلك فقد أثنت عليه الأميرة نازلى فاضل ودافعت عنه وعن ثورته فى صالونها وتحدثت عن نزاهة أغراضه[٢]، كما تعرضت أميرات كثيرات لبطش الخـــديوى توفيـــق مـــن جـــراء تعاطفهن مع عرابى وكان لا يتورع أحيانا عن نفيهن مثل عيشة هانم التى نفاها هى وخادمتها إلى الحجاز.[٣]

---

(١) برودلى: كيف دافعا عن عرابى وصحبه، ترجمة عبد الحميد سليم، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ص ١٤.
(٢) انظر: ملنت: التاريخ السرى، ص ٥١٦.
(٣) برودلى: مرجع سابق، ص ١٥.

خطاب بعثت به « الأميرة انجى » ارملة الخديو سعيد باشا التى اشتهرت بفعل الخير ، بعثت به الى مستر برودلى تشكره على ما بذله من جهـد لانقاذ حياة عرابى باشا ، وقد علق برودلى عليه قائلا : « انه رغم ما به من اطناب ومديح لى ، الا انه اهم دليل على ما لـ « عرابى باشـا » من تاييد داخل البلاد ٠ »

ثانيا: المرأة فى حياة مصطفى كامل:

لقد تعرف مصطفى كامل خلال حياته القصيرة بفتاة وسيدة الأولى عزيزة بنت الجيران التى أحبها ورفض أهلها اقترانه بها والثانية جوليت آدم الفرنسية التى ناشدها المساعدة فساعدته.



وبالنسبة للأولى فقد صدم فى حبه لها بعد أن تعلقت به وتعلق بها خلال حياته الطلابية، وصارحها بما يجول فى نفسه، وبادلته هى الأخرى نفس الأحاسيس وتعاهدت وإياه على الزواج ومع ذلك لم يتم الزواج بينهما لرفض اهلها تزويجها له بحجة أن أحد اقاربها هو الذى سيتزوجها، ولما كانت البنت فى ذلك الوقت فى قبضة أهلها كالمتاع لم تستطع عزيزة المعارضة أو الخروج عن التقاليد[١]، مما صدم مصطفى كامل وترك فى نفسه جرحا عميقا جعله يحجم عن الزواج تمام حتى وفاته.

أما الثانية فمن المعروف ان مصطفى كامل اتصل خلال دفاعه عن قضية استقلال مصر بالسيدة الفرنسية جوليت آدم Juliette Adam صاحبة المجلة الشهيرة لانوفيل ريفو La- Nouvelle Revue وكان تعرفه بها حدثا هاما فى حياته السياسية لأنها كانت من أبرز شخصيات فرنسا فى عالم الوطنية والسياسة والأدب[٢]، فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين.

وقد اطلع مصطفى كامل على مجلتها، ووقف على مثلها العليا التى تحرك قلمها كما أراد أن ترشده بنصائحها بعد أن وجد فيها اما روحية[٣]، فأرسل لها خطابا أوضح فيه حبه لوطنه وآماله الكبار فى نهضة بلاده فقال: "إنى لا أزال صغيرا ولكن لى آمالا كبارا، فإنى أريد ان اوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة.. هم يقولون ان وطنى لا وجود له، وأنا أقول يا سيدتى أنه موجود: ثم طلب منها المعونة لما تتميز به من الوطنية والدفاع عن الحق فقال: "أعيننى با سيدتى فانك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولى، وتقوية عزمى ومساعدتى"[٤].

وقد ردت جوليت آدم على خطاب مصطفى كامل برسالة أوضحت فيها استعدادها لمعاونته فى جهاده وفتحت له أبواب مجلتها لكى ينشر فيها مقالاته، كما فتحت له أيضا أبواب الصحافة الفرنسية وعرفته بكبار الرجال فى فرنسا، ورتبت له مقابلة مع المسيو دلكاسيه وزير الخارجية الفرنسية

---

(١)عشق مصطفى كامل وأسماء عشيقاته، ص ٤٨- ٤٩.
(٢)الرافعى: مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، ص ٥٨.
(٣)احمد رشاد: مصطفى كامل حياته وكفاحه، ص ٧١.
(٤)على فهمى كامل: رسائل مصرية فرنسية، ص ٣-٧ رسالة بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٨٩٥.

أما الثانية فمن المعروف أن مصطفي كامل اتصل خلال دفاعه عن قضية استقلال مصر بالسيدة الفرنسية جوليت آدم Juliette Adam صاحبة المجلة الشهيرة لانوفيل ريفوLa-Nouvelle Revue وكان تعرُّفه بها حدثا هاما في حياته السياسية لأنها كانت من أبرز شخصيات فرنسا في عالم الوطنية والسياسة والأدب (١) في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين .

وقد اطلع مصطفي كامل علي مجلتها ، ووقف علي مثلها العليا التي تحرك قلمها كما أراد أن ترشده بنصائحها بعد أن وجد فيها أما روحية (٢) فأرسل لها خطابا أوضح فيه حبه لوطنه وآماله الكبار في نهضة بلاده فقال :

« إني لا أزال صغيرا ولكن لي آمالا كبارا ، فإني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة .. هم يقولون أن وطني لا وجود له ، وأنا أقول يا سيدتي أنه موجود .. »

ثم طلب منها المعونة لما تتميز به من الوطنية والدفاع عن الحق فقال :

« أعينيني يا سيدتي فإنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولي ، وتقوية عزمي ومساعدتي »(٣) .

وقد ردت جوليت آدم علي خطاب مصطفي كامل برسالة أوضحت فيها استعدادها لمعاونته في جهاده وفتحت له أبواب مجلتها لكي ينشر فيها مقالاته ، كما فتحت له أيضا أبواب الصحافة الفرنسية وعرفته بكبار الرجال في فرنسا ، ورتبت له مقابلة مع المسيو دلكاسيه وزير الخارجية الفرنسية

---

(١) الرافعي : مصطفي كامل باعث الحركة الوطنية ، ص ٥٨.
(٢) أحمد رشاد : مصطفي كامل حياته وكفاحه ، ص ٧١ .
(٣) على فهمي كامل : رسائل مصرية فرنسية ، ص ٣ – ٧ ، رسالة بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٨٩٥.

عرض فيها مصطفي كامل تطورات القضية المصرية منتقدا سياسة فرنسا في مصر(١) .

وقد تتبعت جوليت آدم أحوال القضية المصرية وكانت بالنسبة لمصطفي كامل بمثابة الأم وكان مصطفي كامل لا يقدم علي الأمور الهامة في أغلب الأحيان إلا بعد استشارتها . ويتضح ذلك من خطاباته التي كان يرسلها لها ومن ذلك قوله : « انك الوحيدة التي تستطيعين أن تقولي لي إذا كنت في الطريق السوي أم لا » .

« إن جراحاتي الوطنية تسيل منها الدماء بغزارة ، واني في حاجة إلي وجودي بجانب القلب الذي يحبني ويفهمني ويمدني بحيويته » « إني سأظل مدي الحياة أوفي أولادك وأكثرهم ولاء لك » « وعندما تثبط همتي أبعث روحي لترتوي من منهل الأمومة الذي كثيرا ما شد أزري »(٢) .

ونتيجة لتوثق صلة مصطفي كامل بجوليت آدم ازداد نشاطه في أوربا حتي وصل إلي انجلترا نفسها فقد أرسل مصطفي كامل إلي المستر جلادستون رئيس الوزراء الانجليزي الأسبق يبسط فيها أماني مصر الوطنية التي تنحصر في جلاء الانجليز عنها (٣) .

وقد ظلت جوليت آدم تتبع نشاط مصطفي كامل ، وظل مصطفي كامل يحيطها بما يجول في نفسه ويزف إليها أخباره فعندما عزم علي تأسيس اللواء أرسل لها يبلغها بذلك فردت عليه مشجعة ومهنئة (٤) .

ولكي يوطد مصطفي كامل علاقات الود بينه وبين جوليت آدم دعاها

---

(١) مذكرات محمد فريد : مظروف رقم (١) خطاب من مصطفي كامل إلي محمد فريد في ١٠ أغسطس ١٨٩٨ .

(٢) انظر رسائل مصرية فرنسية

(٣) عن هذه الرسائل ورد جلادستون عنها انظر :
الرافعي : مصطفي كامل ، ص ٦٤ – ٦٨ .

(٤) علي فهمي كامل : رسائل مصرية فرنسية ، ص ٥٩ – ٦١ .

إلي زيارة مصر فلبت الدعوة وجاءت إليها في ١٩ يناير ١٩٠٤ فاستقبلها مصطفي كامل وزملاؤه الوطنيون استقبالا حافلا ، وقد لبثت جوليت آدم بمصر نحو ثلاثة أشهر [١] شهدت خلالها عدة مآدب [٢] كما أنها حضرت حفل توزيع الجوائز علي الطلبة المتفوقين في مدرسة مصطفي كامل يوم ١٩ فبراير ١٩٠٤ [٣] .

وبعد أن غادرت جوليت آدم مصر ووصلت إلي بلادها نشرت مقالين عن رحلتها لمصر في مجلتها « لانوفيل ريفو » انتقدت فيهما تخاذل سياسة فرنسا تجاه مصر .

وعلي الرغم من تخلي فرنسا عن مصر وعقدها الاتفاق الودي مع انجلترا عام ١٩٠٤ فإن علاقة مصطفي كامل بجوليت آدم كانت فوق مستوي الأحداث . حقيقة أنه عبر لها عن استيائه واستياء المصريين من الاتفاق [٤] ، ولكنه ظل علي اتصال بها يخبرها بما حققه لوطنه وما تعانيه بلاده من آلام ، كما كان يوضح لها ظروفه الصحية وقد ظل علي ذلك حتي وافته المنية .

وهكذا كانت جوليت آدم الفرنسية سندا قويا لمصطفي كامل ، وكان دورها في حياته السياسية واضحا خاصة وأنها كانت بمثابة السند الرئيسي له في فرنسا ، وعلي الرغم مما قيل وتردد حول علاقات أخري بينها وبين الزعيم المصري الشاب فنحن نستبعد ذلك خاصة وأن فارق السن بينهما كان يزيد عن السبعة والثلاثين عاما بشهور [٥] .

---

(١) جوليت آدم : انجلترا في مصر ، ص ٢٢٣ .
(٢) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن جـ ٢ ، ص ٣٩ .
(٣) الرافعي : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .
(٤) علي فهمي كامل : المرجع السابق ، ص ١٣٥ ، خطاب بتاريخ ١٠ مايو ١٩٠٤ .
(٥) ولدت جوليت آدم في ١٨٣٦/١٠/٤ بينما ولد مصطفي كامل في ١٨٧٤/٨/١٤ .

ثانيا : المرأة في حياة الشيخ علي يوسف :

قضية زواج الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ورئيس حزب الاصلاح علي المبادىء الدستورية من الآنسة صفية السادات بنت الحسب والنسب أقامت مصر وأقعدتها في أوائل هذا القرن ، وكانت صدمة عنيفة للتقاليد الموروثة الخاصة بالبيوتات العريقة في ذلك الوقت ، قسمت الرأي العام والساسة وأهل الفكر والرأي وعامة الناس بين مؤيد معارض ، كما كانت محل كثير من المناورات السياسية بين المحافظين علي التقاليد ومنهم مصطفي كامل من جهة والخديو عباس الثاني وأنصاره من جهة أخري .

ومرجع ذلك كله أن الشيخ علي يوسف ذلك الرجل العصامي أراد أن يكون عريسا ، وأن يقترن بزوجة تتميز بجمال زمانها من ناحية بياض اللون والسمنة وأن تكون أيضا من بيت حسب ونسب ، وقد هداه تفكيره إلي أن يطلب يد « صفية » صغري بنات الشيخ السادات ، والتي رآها خلال تردده علي أبيها أثناء عمله كصحفي .

وعلي الرغم من موافقة « صفية » علي هذا الزواج فقد تردد والدها في الأمر ، وظل يماطل ويختلق العراقيل .

وبعد أن فاض الكيل بالشيخ علي قرر في نفسه أمرا ففي أحد أيام يوليو ١٩٠٤ خرجت صفية من بيت أبيها إلي بيت نقيب الأشراف الشيخ محمد توفيق البكري في الخرنفش بحجة زيارة أقاربها هناك ، وفي هذا البيت كان الشيخ علي يوسف جالسا ومعه المأذون وبعض علماء الأزهر ، وجاءت العروس وتولي الوكالة عنها الشيخ حسن السقا أحد شيوخ الأزهر المعروفين[١] وتم عقد القران ، واحتفل الحاضرون بالزفاف وخرجت العروس مع عريسها إلي بيت الزوجية .

---

(١) سليمان صالح : الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد - تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن - القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠ ، ص ٤٧ .

وفي صباح اليوم التالي استيقظ الشيخ السادات ليقرأ في المقطم نبأ زفاف ابنته ، مما جعله يفقد صوابه خاصة وأن بعض أفراد أهل بيته كانوا علي علم بالواقعة ولم يبلغوه بها . فقدم بيانا إلي النيابة يتهم فيها علي يوسف بأنه خطف ابنته وغرر بها ولما بحثت النيابة الأمر وجدت أن صفية قد بلغت سن الرشد ، وأن من حقها أن تزوج نفسها زواجا شرعيا ممن تختاره ومن هنا حفظت النيابة البلاغ [١] ولم يسكت الشيخ السادات بل رفع دعوي أمام المحكمة الشرعية طالبا التفريق بين الزوجين لعدم أهلية الزوج وعدم كفاءته الاجتماعية لها من ناحية النسب والحرفة فهو لا ينتسب إلي نسب رفيع كالسادات كما أنه من ناحية العمل « جورنالجي » وهي مهنة كما قال في صحيفة دعواه من أحقر المهن نظرا لأنها تقوم علي الجاسوسية وبث الشائعات وكشف أسرار خلق الله . وفي ٢٤ من يوليو ١٩٠٤ نظرت محكمة مصر الشرعية هذه الدعوي ، وكان الشيخ أحمد أبو خطوة - المعروف بتزمته الشديد في مثل هذه الموضوعات - علي رأس هذه المحكمة . وقد أصدرت المحكمة حكما مبدئيا بالحيلولة بين الزوجين ، وتسليم صفية لأبيها لمنع المخالطة الزوجية حتي يتم الفصل نهائيا في الدعوي ولكن صفية رفضت طلب المحكمة رفضا قاطعا معلنة أنها لن تبرح بيت زوجها ولو علي أسنة الحراب مما أدي إلي قيام أزمة بين القضاء والسلطة التنفيذية وصلت إلي حد التهديد بالتوقف عن النظر في القضايا المعروضة أمام المحاكم ، وخلال ذلك انقسم الرأي العام في مصر إلي قسمين الأغلبية وعلي رأسهم مصطفي كامل صاحب اللواء وقفت ضد هذا الزواج الذي تم رغم ارادة الأب وهاجمت صاحب المؤيد ، وطالبت ناظر الحقانية بتنفيذ أمر المحكمة ، أما الفريق الثاني وعلي رأسه الخديو عباس الثاني فقد كان يساند علي

---

(٢) أحمد بهاء الدين : أيام لها تاريخ ، القاهرة ، كتاب روز اليوسف ١٩٥٤ ، ص ٥١ - ٥٢ .

يوسـف من وراء سـتار مما زاد من ثورة الرأي العام وضايق مصطفي كامل ، وأدي في نهاية الأمر إلي القطيعة بينه وبين الخديو[١] .

وبعد مشاورات ومفاوضات تم الاتفاق علي صيغة توفق بين قرار المحكمة واصرار صفية علي البقاء مع زوجها بحيث تترك صفية بيت الزوجية وتذهب إلي بيت رجل مؤتمن ، وتم تخييرها بين بيت الشيخ أحمد أبو خطوة القاضي وبيت الشيخ النواوي المفتي أو بيت الشيخ الرافعي المعروف بحسن السمعة فاختارت الأخير ، وانتقلت فعلا إلي بيته وأرسلت إلي المحكمة ما يفيد ذلك ، ولكن القاضي لم يوافق علي هذا الحل ، واضرب عن النظر في هذه الدعوي ، كما هدد بتوقفه عن النظر في أي قضية أخري حتي يتم تنفيذ حكمه ولو بالقوة . وعلي الرغم من كل ذلك فقد أصرت صفية علي رفض الذهاب إلي بيت أبيها مما أدي إلي تحرج الموقف ، وتحول الرأي العام بقوة ضد علي يوسف فبدأت الصحف لا تكف عن التشهير به وتتحدث ساخرة عن الغرام الذي ذهب بلبه وتنشر أخبارا عن تسلله إلي بيت الشيخ الرافعي ومقابلته لصفية هناك . والحقيقة لم تكن كذلك فقد كان الشيخ علي وصفية يتبادلان الرسائل فقط عن طريق خادمة أوربية كانت تتردد بينهما ، ولما ضبط الشيخ الرافعي إحدي هذه الرسائل اعتبرها نوعا من الاتصال غير المشروع ، وبدأ الموقف في التأزم خاصة وأنه من الصعب نقل سيدة ذات حسب ونسب في احدي سيارات الشرطة قسرا إلي بيت أبيها تنفيذا لقرار المحكمة .

ونتيجة لذلك توالت الاجتماعات في نظارة الحقانية حتي تم اقناع الشيخ أبو خطوة بأن يعدل عن اضرابه ، وأن يمضي في نظر القضية وكان على الشيخ السادات لكى يكسب القضية أن يثبت أن نسب علي يوسف لا يوازي نسبه ، وأن الحرفة التي يزاولها ليست موضع تقدير ، وبعد أن

---

(١) عبد المنعم الجميعي : الخديو عباس الثاني والحزب الوطني ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ، ١٩٨٢ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

نجح الشيخ السادات في اثبات ذلك حاولت الحكومة والخديو التأثير علي القاضي لصالح الشيخ علي ، ولكن القاضي تمسك برأيه وحكم بضرورة فسخ الزواج والتفريق بين الزوجين .

وبعد صدور الحكم علي هذا النحو ، وشعور الشيخ السادات بأن كرامته ردت إليه ، وافق علي المساعي والوساطات المبذولة للتوفيق بينه وبين الشيخ علي يوسف ، بشرط أن تتزوج ابنته منه بعقد جديد وتم الزواج فعلا ، وعادت صفية إلي بيت زوجها .

والغريب في الأمر أن هذه القضية ظلت آثارها علي نفسية الشيخ علي يوسف واضحة ، فعلي الرغم من أن جريدته كانت من أكبر الجرائد المصرية ، وعلي الرغم من كونه رئيسا لحزب الاصلاح علي المباديء الدستورية أحد الأحزاب الرئيسية الثلاثة الموجودة في مصر في ذلك الوقت فقد ظل يسعي لتسجيل اسمه في سجل الأشراف ، ثم وافق بعد ذلك علي أن يعتزل الصحافة بعد ثلاث وعشرين عاما أنشأ فيها المؤيد ليعين شيخا للسادة الوفائية (١) لأن هذا التعيين يجعل منه ندا لأسرة زوجته التي رفضت يوما مصاهرته .

ومما يذكر انه علي الرغم من الضوضاء والمشكلات التي أثيرت حول هذا الزواج فإن علي يوسف لم يسعد في حياته الزوجية مع صفية التي كانت دائمة التنغيص له تنغيصا جعله وهو في سن الكهولة يرابط في مكتبه بالجريدة ساعات طويلة فرارا من البيت وخوفا من شبشب صفية .

ولما توفي الشيخ علي في عام ١٩١٣ كانت زوجته لا تزال في سن الشباب فعاشت بعده ما يقرب من ثلاثين عاما أحبت خلالها الممثل المعروف زكي عكاشة وتزوجته (٢) .

---

(١) ودع الشيخ علي يوسف الصحافة في مقال له بجريدة المؤيد بتاريخ ٦ مارس ١٩١٢ تحت عنوان « كلمة الوداع » أوضح فيها أن أسبابا عائلية قوية هي التي دعته لاعتزال مهنة الصحافة التي يحترمها ويعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة .

(٢) أحمد بهاء الدين : مرجع سابق ، ص ٥٤ - ٦٠ .

ومما سبق يتضح أن هذه القضية قد هزت المجتمع المصري من الأعماق ، وفتحت الجدل حول ضرورة اعادة النظر في القديم ، وفي مفهوم الكفاءة الاجتماعية وهل هي موروثة أم أنها تصل إلي الانسان نتيجة لجهوده وعمله من أجل خدمة بلاده .

ثالثا : المرأة في حياة محمد فريد :

في حياة محمد فريد زوجة وخليلة . الأولي عائشة ابنة عمه وكانت خير مثال للزوجة الصالحة ، الوفية شاركته في السراء والضراء وكانت له في حياته الوطنية نعم العضد الأمين (١) . والثانية الفرنسية روتشبرون (٢) والتي تعقدت علاقته بها علي أيدي المصريين المعجبين بها ، والكارهين لها فقال عنها البعض أنها كانت خليلة لمحمد فريد ، وقال عنها البعض الآخر أنها كانت جاسوسة عليه ومتآمرة ضده . وقد أكد فريد ذلك الرأي بقوله أنها كانت جاسوسة مزدوجة تتقاضي عشرة جنيهات شهريا للتجسس عليه لصالح الخديو وافادته باخباره ، وإنه استطاع بعد أن أخبرته بجلية الأمر أن يستخدمها لتتجسس علي الخديو وتنقل أخباره إليه (٣) .

ويبدو أن الحقيقة شملت كل ما قيل عنها فبعد أن عينها فريد كاحدي سكرتيرات الحزب الوطني انجبت منه ابنا غير شرعي اسمته محمود ، وبالرغم من وعوده لها بالزواج منها فإنه لم يف بوعده خاصة بعد فقده لثروته ، ولم يعد في مقدوره اتخاذها زوجة ثانية له ، مما اضطرها في

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٤٨ ، ص ١٨ - ٢٠ .

(٢) ولدت بالارجنتين في عام ١٨٨٨ لأسرة فرنسية برجوازية ثم عادت إلي باريس بعد وفاة والدتها ، وشغفت بالدراسات الاسلامية وتعلمت التركية ، وكونت علاقات مع الكثير من الطلاب المصريين والأتراك والهنود في باريس عام ١٩٠٩ وهي السنة التي التقت بها بفريد .
انظر : ارثر جولد شميت : الحزب الوطني المصري ، ص ٢٥١ .

(٣) مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر : أوراق محمد فريد - المجلد الأول ، مذكراتي بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٤ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨ ، ص ١٠٩ .

النهاية إلي اللجوء للخديو لمعاونتها ماديا فخصص لها راتبا شهريا قدره عشرون جنيها لكي تعول به ابنها علي أساس أن نسب فريد له يجعله مصريا ، وعلي الرغم من أن فريدا كان علي اتصال بروتشبرون طوال حياته فإنه لم يعترف قط بنسبة هذا الابن إليه .

وعلي أي حال فإنه نتيجة للعلاقة المزدوجة بين روتشبرون من ناحية والخديو عباس الثاني ومحمد فريد من ناحية أخري فقد وسطها الخديو في انهاء الخلاف بينه وبين فريد ، ولكنها لم تنجح في ذلك لإصرار فريد على أن يكون الكلام بينه وبين الخديو دون وسيط [١] .

وبعد عزل عباس الثاني من خديوية مصر ظلت عزيزة روتشبرون علي اتصال به تحضر الاجتماعات التي كان يدعو إليها من أجل العمل علي عودته إلي عرش مصر [٢] .



رابعا : المرأة في حياة سعد زغلول :

تزوج سعد زغلول من صفية كريمة مصطفي باشا فهمي - رئيس النظار ، ورجل الانجليز الأول في مصر - في ٢٨ نوفمبر ١٨٩٥ وكان حينئذ في السادسة والثلاثين من عمره بينما كانت في الثامنة عشرة فكان أكبر منها بثماني عشرة سنة بمعني أنها - كما يذكر عباس العقاد - « كانت في سن بنته فتعلمت ما تتعلمه البنات من الآباء ، واطاعته طاعة الصغير للكبير الموقر المحبوب » [٣] وقد حرص سعد أن يحتفظ في تعامله معها بتقاليد الفلاح المصري وقد قبلت صفية الارستقراطية ذلك بصدر رحب .

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن جـ ٢ ، القسم الثاني ، القاهرة ، الطبعة الأولي ١٩٣٦ ، ص ٣٠٣ .

(٢) محمد أنيس : صفحات مجهولة من التاريخ المصري ، القاهرة ، روز اليوسف ، ابريل ١٩٧٣ ، ص ٣٧ .

(٣) عباس العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ، القاهرة ، ص ٢٥٨ .

وعلي الرغم من أن هذا الزواج قد ساعد سعد زغلول في الوصول إلي الشهرة والمجد ، وضمه إلي طبقة جديدة لم يتشرب تقاليدها فإن سعادته لم تكتمل لعقم زوجته وعدم قدرتها علي الانجاب .

وقد عبر سعد زغلول عن ذلك في مذكراته بقوله « أتمني الآن لو يكون لي ولد ، وأن أبني بواحدة [1] من الفلاحين أو غيرهم ، ويشغل هذا الفكر بالي ولكن تحقيق هذه الأمنية صعب ، لأني أريد أن يكون ذلك سرا ، وذلك من المستحيل تقريبا . فالأفضل ترك هذا الفكر من أصله » [2] .

وهكذا اكتفي سعد زغلول بزوجته صفية الذي لم يرغب في تعكير صفاء الجو الأسري معها بالزواج مرة أخري ورضي بنصيبه في هذه الدنيا خاصة وأن صفية مهدت له حياة الدعة والهناء في البيت ، وأحالت عاطفة الألفة الزوجية معه إلي عاطفة الأمومة الحنون ، وانشغل سعد بعد ذلك بالعمل الوطني حتي نفيه واشتعال ثورة ١٩١٩ ، وخلال ذلك اقترحت صفية بأن تخرج نساء مصر إلي الشارع محتجات علي نفي الانجليز لزعيم الثورة ومضت المظاهرة النسائية في شوارع القاهرة تلوح بأعلام صغيرة تهتف لسعد إلي أن وصلت إلي ميدان قصر الدوبارة في طريقها إلي دار الحماية البريطانية في جاردن سيتي [3] ، وخلال ذلك كانت صفية تصدر البيانات النارية التي تهتف لسعد وتهاجم الاحتلال وتوقعها بامضائها .. ومن مواقفها الرائعة أثناء الثورة أيضا أنها ارتدت فستانا مصنوعا من العلم المصري بلونه الأخضر وفيه هلال داخله ثلاثة نجوم بيضاء ، وصورت به وتم طبع الصورة في منشورات كان الفلاحون يعلقونها في بيوتهم [4] .

---

(١) بمعني يتزوج مرة ثانية .
(٢) مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر : مذكرات سعد زغلول ، جـ ٦ ، ص ٢٢٨ (بتاريخ ٤ أغسطس ١٩١٧) .
(٣) عبد المنعم الجميعي : مصر في التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٢٣٩ .
(٤) مصطفي أمين : مقال عندما خرجت المرأة المصرية إلي الشارع .



وإلي جانب ذلك فقد طالبت صفية السلطات الانجليزية باعتقالها مع زوجها حتي تتمكن من السهر علي راحته ورعايته نظرا لمرضه [١] .

وبعد أن نقل سعد من سيشل إلي جبل طارق وازدادت صحته سوءا أرسل إلي زوجته برقية يدعوها للحضور إليه كي تولي العناية بأمره ، لم تتردد صفية في تلبية نداء الواجب فسافرت إليه علي أول باخرة تحركت من مصر وكان ذلك في الحادي والعشرين من سبتمبر ١٩٢٢ علي الرغم من المصاعب والشدائد والأخطار التي كان يمكن أن تتعرض لها [٢] وظلت صفية بجوار زوجها علي صخرة ابن زياد تتحمل معه العزلة الموحشة حتي تم الافراج عنه وعودته إلي أرض الوطن .

وهكذا كانت مواقف صفية الشجاعة سندا لزوجها خلال كفاحه من أجل استقلال مصر .



خامسا : اسماعيل صدقي وعائشة بنت يحيي باشا :

وبالنسبة للنساء في حياة اسماعيل صدقي فقد كانت احداهن سببا في اعفائه من منصبه كوزير للأوقاف في مايو ١٩١٥ [٣] ، وفي احداث فضيحة له كادت تؤدي بمركزه السياسي . فبعد أن تلقت الشرطة بلاغا بأن عوامة اسماعيل صدقي بازاء شاطيء النيل بناحية امبابة تجري فيها بعض الأمور المنافية للآداب هاجم رجال الشرطة ذهبيته فوجدوه في حالة مريبة مع عائشة . وبعد أن أخذت الشرطة بنت الباشا إلي قسم عابدين وحققت معها أطلقت سراحها خشية العواقب ومع ذلك فقد آثرت عائشة الانتحار علي مواجهة الفضيحة فتناولت السم . ومن الملفت للنظر أن

---

(١) فهيمة ثابت : الزعيم الخالد وأم المصريين في منفي جبل طارق ، القاهرة ، مطبعة الشمس ، د. ت ، ص ١٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٨ – ١٩ .

(٣) كان ذلك في وزارة حسين رشدي التي شكلت في ١٩ ديسمبر ١٩١٤ . انظر : النظارات والوزارات المصرية جـ ١ ، ص ١٨٧ .

اسماعيل صدقي سار مع المشيعين في موكب جنازتها . ولما بلغ السلطان حسين كامل نبأ هذه الحادثة دعا إليه اسماعيل صدقي ، ووبخه بكلام شديد القسوة ، وقيل أنه ركله ثم أمر باقالته [١] . ونظرا للأحكام العرفية المفروضة علي البلاد ، والرقابة التي شملت كافة وسائل النشر في ذلك الوقت لم تتمكن الصحف من الاشارة إلي هذه الحادثة بطريقة واضحة ، وإن كان بعضها قد أثار سبب الاقالة بطريقة غير مباشرة [٢] فكتبت الوطن مقالا تحت عنوان « علي الخاصة اصلاح أخلاق العامة » دعت فيه الخاصة إلي أن يكونوا المثل الكامل في الأخلاق أمام العامة ، وألا يتدلي أفراد منهم الي النقائص والوبقات بلا حياء ، وتحت هذا الخبر نشرت اجتماع مجلس الوزراء بكامل هيئته عدا وزير الأوقاف المقال [٣] .

وعلي أي حال فذرا للرماد في العيون قدم اسماعيل صدقي استقالته إلي رئيس مجلس الوزراء جاء فيها : حاولت نفي المزاعم الفاسدة التي وجهت إلي فلم أمكن من ذلك ، لهذا رأيت مع الأسف أن أقدم لدولتكم استقالتي من منصب وزارة الأوقاف . وقد قبلت استقالته علي الفور ، وعين بدلا منه ابراهيم باشا فتحي [٤] .

وقد علق سعد زغلول في مذكراته علي اقالة صدقي ، وتعيين ابراهيم فتحي مكانه بقوله « رأيت الناس غير مرتاحين إلي تعيين فتحي في الأوقاف ويقولون إن ابتذاله في الأولاد أظهر من تهتك صدقي في النساء ! وإنهم أرادوا أن يكحلوا عين المريض فأعموها ! وعندي أن هذا

---

(١) محمد سيد كيلاني : السلطان حسين كامل فترة مظلمة في تاريخ مصر ، القاهرة ، دار الفرجاني ، ١٩٦٣ ، ص ١٧٠ .

(٢) صفاء شاكر : اسماعيل صدقي ودوره في السياسة المصرية ١٩١٤ - ١٩٥٠ رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات جامعة عين شمس ، ١٩٩١ ، ص ٣٥ .

(٣) الوطن في ١٩١٥/٥/١٣ .

(٤) النظارات والوزارات المصرية جـ ١ ، ص ١٨٩ .

التعيين أثر من الروح السائدة في الحكومة ، وهي روح اضعاف الفضيلة وتقوية الرزيلة » [١] .

ومعني ذلك أن سعد زغلول أثبت بلا لبث أو مواربة أن السبب الحقيقي لاقالة صدقي كان فضيحة نسائية ، مما ألقي الكثير من الظلال علي حياته العملية ، وعلي شخصيته ، وعلي حياته الخاصة .



سادسا : مصطفي النحاس وزينب الوكيل :

قبل أن نتعرض لدور زينب الوكيل في حياة مصطفي النحاس نتساءل : هل الرجل إذا تزوج من فتاة في عمر ابنته يخضع لمطالبها غالبا ، ويتيح لها فرصة السيطرة والتحكم ؟

الواقع أن ذلك يرجع إلي شخصية الرجل أولا فسعد زغلول تزوج من صفية فهمي ابنة رئيس النظار وكان عمره يضاعف عمرها ومع ذلك استطاع بشخصيته القوية وتأثيره عليها أن يعاملها كأنها فلاحة مصرية متزوجة من فلاح مصري يلزمها بالطاعة ومراعاة حقوق الزوج ، وقد قبلت صفية هذه المعاملة الغريبة عن حياتها الارستقراطية نظرا لتمكن سعد من تطويعها لارادته .

أما مصطفي النحاس فعلي الرغم من أنه خليفة سعد في رئاسة الوفد وزعامة الأمة فإنه لم يستطع أن يفعل ذلك ، بل كان علي النقيض تماما .

لقد تزوج النحاس من زينب الوكيل في ١٢ يونيو ١٩٣٤ وهو في سن الخمسين تقريبا بينما هي كانت لا تزيد عن الخامسة والعشرين . وقد استطاعت هذه الزوجة بجمالها وصغر سنها وأناقتها الخارقة وذكائها الحاد وطموحها بالاضافة إلي الفارق الاجتماعي بينها وبين زوجها لكونها أبنة باشا استطاعت أن تسيطر وتتسلط علي زوج تقدمت به السن فاستغلت

---

(١) مذكرات سعد زغلول جـ ٥ ، ص ٢٠٨٩ .

منصبه كرئيس للوزراء لكي تحسن من أوضاع عائلتها المالية ، مما أدي إلي الطعن في سمعة زوجها وتشويه سمعة الحزب الذي كان يعد من أكبر الأحزاب المصرية علي الاطلاق ، كما أدي إلي ضرب وحدة صفوف الوفد وصلابته ، وانقسامه بين مؤيد ومعارض لها .

فعلي الرغم من أن مكرم عبيد هو الذي قدم زينب الوكيل إلي النحاس في عام ١٩٣٤ فقد تسببت في إخراجه من وزارة التموين عندما رفض الاستجابة إلي طلباتها غير القانونية كتقديم التسهيلات المالية (١) ، وتقرير المشاريع التجارية لعدد من أقاربها علي رأسهم شقيقها أحمد الوكيل .

كما سعت إلي سحب سكرتارية حزب الوفد منه وطرده من عضويته مما أدي إلي انشقاقه عن الحزب علي الرغم من الصداقة الوطيدة التي كانت بينه وبين النحاس ، وتقديمه عريضة إلي الملك في نهاية مارس ١٩٤٣ تحت عنوان « الكتاب الأسود في العهد الأسود » تعرض فيه لنزاهة الحكم ، واستغلال زينب الوكيل لمنصب زوجها في شراء بالطو من الفراء الأبيض بثلاثة آلاف جنيه عن طريق السفير المصري في لندن ، وشراء سيارة باكار مجهزة بتكييف الهواء ، وانهماكها في شراء الأراضي الزراعية ، وعقدها للصفقات المالية والتجارية المشبوهة ، وتهريبها للأموال وتزويرها للمستندات ، واتجارها في المواد الغذائية ومضاربتها في البورصة وقيام الحكومة بتسديد خسارتها من باب النفقات السرية ، هذا بالاضافة إلي ما أشيع حول علاقتها بفؤاد سراج الدين مما خرّب صلابة حزب الوفد وفتت وحدة صفوفه (٢) .

يري البعض أن هناك تشابه بين تصرفات زينب الوكيل وتصرفات

---

(١) د. محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية جـ ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٢٢٥ .

(٢) د. علاء الحديدي : مصطفي النحاس - دراسة في الزعامة السياسية المصرية ، القاهرة ، كتاب الهلال ، يناير ١٩٩٣ ، ص ٢٤٢ - ٢٥١ .

السيدة جيهان السادات . فهل ذلك صحيح هذا ما سنتعرض له خلال حديثنا عن تأثير السيدة الأولي في زوجها بعد توليه رياسة الجمهورية عندما نتحدث عن السادات والمرأة .



سابعا: الملك فاروق والنساء:

في حياة الملك فاروق العديد من النساء منهن ملكتان هما فريدة ذو الفقار وصافيناز صادق المعروفة باسم ناريمان . الأولي كانت حبه الأول والتي تزوجها وعمرها ١٦ سنة وكان زفافها صورة من ألف ليلة وليلة ، وقد أحبها المصريون واحترموها علي الرغم من خلافها مع فاروق نظرا لأنها لم تنجب له ولي العهد وكانت خلفتها بنات وانتهي أمرها بالطلاق خاصة بعد أن اتهمها فاروق بالخيانة واتهمته فريدة بالعجز الجنسي ، وبأن سعيه لاصطياد النساء الجميلات يرجع إلي رغبته في أن يداري عجزه [١] .

أما الثانية فقد خطفها الملك من خطيبها الدكتور زكي هاشم وأصر علي أن تكون الزوجة الثانية ، فقد تقدم فاروق لخطبة ناريمان صادق البالغة من العمر ١٨ سنة رغبة منه في أن تنجب له ولي العهد ، وقد تحقق له ذلك حيث أنجبت له الأمير فؤاد آخر ملوك مصر في ١٦ يناير ١٩٥٢ ، وانتهي الأمر بينهما بالطلاق في المحكمة بعد رحيل الملكية من مصر [٢] .

وإلي جانب ذلك فمن المعروف أنه كان في حياة الملك فاروق العديد من النساء من أبرزهن ناهد رشاد [٣] التي تعرفت عليه بعد حادثة القصاصين

---

(١) لتفاصيل ذلك انظر : عادل حمودة : الملك أحمد فؤاد الثاني ، الملك الأخير وعرش مصر ، القاهرة ، دار سفنكس للطباعة ١٩٩١ ، ص ٤٢ - ٤٨ .

وانظر أيضا : لوتس عبد الكريم : الملكة فريدة ، القاهرة ١٩٩٣ .

(٢) للتفاصيل انظر : حنفي المحلاوي : حريم ملوك مصر من محمد علي إلي فاروق ، القاهرة ، دار الأمين ١٩٩٣ ، ص ٢٣٢ - ٢٤٣ .

(٣) هي ناهد شوقي بكير . ولدت بمدينة حلوان في عام ١٩١٧ ، وكانت أمها وخالتها من وصيفات السلطانة ملك زوجة السلطان حسين كامل أما والدها فهو الدكتور شوقي بكير الاستاذ بكلية العلوم . وقد تزوجت ناهد من الطبيب يوسف رشاد في عام ١٩٣٨ .

حنفي المحلاوي : ناهد والملك فاروق ، المرأة التي عرفت أسرار ثورة ٢٣ يوليو ، القاهرة ، الدار العربية للكتاب ١٩٩٤ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

التي تعرض لها الملك في نوفمبر ١٩٤٣ وذلك عندما كان زوجها يوسف رشاد يقوم بمداواة الملك من جراحه التي أصيب بها عقب انقلاب سيارته في تلك الحادثة ، فقد رآها فاروق وهو علي سرير مرضه عندما كانت تحضر لزيارة زوجها ، فأعجب برشاقتها وبجمالها وذكائها وطموحها ، وجرأتها ، وألحقها بالقصر وصيفة لشقيقته فوزية - زوجة شاه ايران السابقة [١] - وأختار لها مكانا للنوم قريبا منه ، ثم أصبحت بعد ذلك أقرب النساء إلي قلب الملك وأكثر الشخصيات تأثيرا عليه لدرجة أنها اقتربت كثيرا من كرسي العرش وصار لها مكانة الملكة غير المتوجة مما ضايق الملكة فريدة زوجة الملك الأولي ، وجعلها تتهمها بافساد زوجها لتحقيق أغراضها الشخصية . وعن طريق ناهد رشاد تم تأسيس الحرس الحديدي لتصفية خصوم الملك السياسيين ، فقد كانت ماهرة في تجنيد الأتباع الذين يقومون بتنفيذ رغبات الملك [٢] كما كانت تقوم بابلاغ الملك بكل ما يصل إلي علمها عن الجيش .

وبعد أن طلق فاروق زوجته الأولي فريدة ، وجدت ناهد في ذلك فرصة للزواج من الملك والفوز بكرسي العرش ولكن فاروق فضل عليها ناريمان مما أوغر صدرها عليه وجعلها تحجب عنه أسرار تحركات ضباط تنظيم ٢٣ يوليو [٣] والتي كانت علي علم بها من الضابط أنور السادات حتي فقد فاروق عرشه ورحلت الملكية من تاريخ مصر .

وإلي جانب ذلك فقد كان الملك فاروق علي علاقة نسائية مريبة مع الممثلة اليهودية « ليليان كوهين » التي عرفت باسم « كاميليا » والتي

---

(١) حول موضوع تعرف ناهد علي الملك فاروق التي حكتها أمام محكمة الثورة انظر : جريدة المصري في ١٩٥٣/١/٢١ .

(٢) رشاد كامل : المرأة التي هزت عرش مصر ، القاهرة ، مركز الراية للنشر والأعلام ١٩٩٤ ، ص ٦٩ - ٧٦ .

(٣) المحلاوي :مرجع سابق ، ص ٦٢ .


الملك في طفولته مع حضرة صاحبة الجلالة الملكة الوالدة



الملك فاروق بين زوجته وولى العهد

غرستها المخابرات البريطانية في القصر الملكي عن طريق « انطون بوللي » سكرتير خاص الملك .

لقد سافر فاروق مع كاميليا إلي قبرص وقضي معها أياما في وقت كانت المفاوضات بين مصر وبريطانيا علي أشدها من أجل تعديل المعاهدة ، وفي وقت كان جلاء القوات البريطانية من مصر يمر في مرحلة من مراحله الحاسمة ، فقد كان مجلس الوزراء برئاسة اسماعيل صدقي يرغب في الإقرار علي تعهد بريطاني بجلاء عاجل للقوات البريطانية ، ومع ذلك ضرب فاروق عرض الحائط بكل هذه الاعتبارات من أجل قضاء بعض الوقت مع كاميليا في جزيرة قبرص .

وعلي الرغم من البرقيات التي أرسلتها الحكومة المصرية إليه تلتمس منه فيها العودة إلي الاسكندرية خاصة بعد أن كانت الأزمة الوزارية قد بلغت زروتها فقد ظل في قبرص من أجل استرضاء كاميليا وشراء فيلا لها هناك [1] .

وبعد قيام الحرب من أجل فلسطين في عام ١٩٤٨ لم يتخل فاروق عن كاميليا . وعلي الرغم من تردد الشائعات حول عمالتها لليهود ونقلها الأخبار إليهم ، فقد أخفاها فاروق في شاليه ساحلي بالاسكندرية وكان يزورها أثناء القتال [2] واستمرت الأمور علي ذلك المنوال حتي انتهت حرب فلسطين بهزيمة مريرة .

وإلي جانب ذلك فقد تردد أيضا أن الملك فاروق كان علي علاقة نسائية

---

(١) هيوج ماكليف : الملف السري للملك فاروق - ترجمة أحمد فوزي ، القاهرة ، دار الهلال ١٩٧٧ ، ص ١٠٣ - ١٠٩ .

(٢) نفسه ، ص ١١٤ .

بالراقصتين سامية جمال وتحية كاريوكا، كما كان على علاقة بالمطربة أسمهان. [١]

وبينما كان فاروق يلعب القمار ويعربد كان الشعب يعانى من أزمات اقتصادي ة طاحنة، كما كان الجيش يعانى من آلام هزيمة عسكرية مريرة، وكان الحل هو خلع هذا الملك وهذا ما حدث على يد رجالات ٢٣ يوليو.

وعلى الرغم من ذلك فإن الملك المخلوع لم يستفد من الدرس ففى منفاه بإيطاليا ظل يمارس هواياته فى كازينوهات القمار مع راقصات الملاهى وبنات الهوى حتى فارق الحياة فى ٢٠مارس ١٩٦٥ عن عمر يناهز الخامسة والأربعين.

وهكذا كانت مغامرات فاروق النسائية سببا فى تجمع السحب السوداء التى علقت بسيرته ومهدت للثورة التى أطاحت بعرشه، والسؤال المطروح هو إذا كانت بداية عهد الملك فاروق فى حكم مصر قد أوحت بالأمل المشرق حتى أطلق عليه البعض الملك الصالح فلماذا انزلق وراء نزواته بهذا الشكل المشين هل كان شعوره بالاحباط والمهانة التى تسببت فيها له أمه نازلى وزوجته فريدة أم ماذا؟.

لقد تعرض فاروق لمحنة شخصية مريرة بعد أن خانته أمه نازلى مع رئيس ديوانه احمد حسنين، ونشأت بينهما علاقة غير شرعية قاما بتغطيتها بعقد زواج عرفى، مما عرض كبرياء الملك لضربة عنيفة والأدهى من ذلك أن زوجته فريدة أيضا خانته بعد ان وقعت فى غرام وحيد يسرى باشا ابن عمه الملك، وارتبطت بعلاقة غير شرعية مع ضابط بريطانى اسمه الكابتن "سيمون الويس" الذى رسم بالفعل صورة زيتيه لها، ثم تطورت الأمور بينهما لدرجة أن قام السفير البريطانى فى مصر اللورد كيلرن بترحيله كل ذلك جرح كبرياء الملك، وجعل بناته الثلاث يقاطعن امهن إلى درجة رفض زيارتها فى مرض موتها. [٢]

ثامنا: عبد الناصر والمرأة:

وعن أثر المرأة فى حياة جمال عبد الناصر فقد كان ضئيلا حقيقة أنه احب فى مستهل شبابه فتاة من حى الظاهر وكان وقتذاك ضابطا صغيرا لا يتجاوز عمره ٢٢ عاما ولكنه كان حبا صـــامتا أخرس على طريقة نزار قبانى بالنظرات باللفتات بالصمت الرهيب. ولما حاول الزواج منها رفضه أهلها بحجة أن لها أخت أكبر منها ولا يمكن حسب تقاليد تلك الأيام ان تتزوج قبلها فصدمت عواطفه وسكن الحزن قلبه لفترة، وبعد أن نجح فى تجاوز هذه المحنة وسحق عواطفه بدأ مشـــواره وتـــزوج تحية كاظم شقيقة صديقه عبد الحميد كاظم، وكانت المرأة الوحيدة التى لا شريك لها فى حياته. [٣]

---

(١) استخدمتها المخابرات البريطانية على القصر الملكى لمعرفة أسرار القصر السياسية من خلال تلك العلاقة، ولما أحست بانكشاف امرها دبرت لها حادثة فى بورسعيد حيث غرقت بعربتها أثناء عودتها.

(٢) محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل، جـ١، القاهرة، دار الشروق، الطبعة السادسة، ١٩٩٦، ص ١٤٨-١٥٠.

(٣) عادل حمودة: حكومات غرف النوم، المرأة والسلطة من المشير عامر إلى المشير أبو غزالة، ص ١٢٣-١٣٢.






بالراقصتين سامية جمال وتحية كاريوكا، كما كان على علاقة بالمطربة أسمهان. (١)

وبينما كان فاروق يلعب القمار ويعربد كان الشعب يعانى من أزمات اقتصادية طاحنة، كما كان الجيش يعانى من آلام هزيمة عسكرية مريرة، وكان الحل هو خلع هذا الملك وهذا ما حدث على يد رجالات ٢٣ يوليو.

وعلى الرغم من ذلك فإن الملك المخلوع لم يستفد من الدرس ففى منفاه بايطاليا ظل يمارس هواياته فى كازينوهات القمار مع راقصات الملاهى وبنات الهوى حتى فارق الحياة فى ٢٠مارس ١٩٦٥ عن عمر يناهز الخامسة والأربعين.

وهكذا كانت مغامرات فاروق النسائية سببا فى تجمع السحب السوداء التى علقت بسيرته ومهدت للثورة التى أطاحت بعرشه، والسؤال المطروح هو إذا كانت بداية عهد الملك فاروق فى حكم مصر قد أوحت بالأمل المشرق حتى أطلق عليه البعض الملك الصالح فلماذا انزلق وراء نزواته بهذا الشكل المشين هل كان شعوره بالاحباط والمهانة التى تسببت فيها له أمه نازلى وزوجته فريدة أم ماذا؟.

لقد تعرض فاروق لمحنة شخصية مريرة بعد أن خانته أمه نازلى مع رئيس ديوانه احمد حسنين، ونشأت بينهما علاقة غير شرعية قاما بتغطيتها بعقد زواج عرفى، مما عرض كبرياء الملك لضربة عنيفة والأدهى من ذلك أن زوجته فريدة أيضا خانته بعد ان وقعت فى غرام وحيد يسرى باشا ابن عمه الملك، وارتبطت بعلاقة غير شرعية مع ضابط بريطانى اسمه الكابتن "سيمون الويس" الذى رسم بالفعل صورة زيتيه لها، ثم تطورت الأمور بينهما لدرجة أن قام السفير البريطانى فى مصر اللورد كيلرن بترحيله كل ذلك جرح كبرياء الملك، وجعل بناته الثلاث يقاطعن امهن إلى درجة رفض زيارتها فى مرض موتها. (٢)

ثامنا: عبد الناصر والمرأة:

وعن أثر المرأة فى حياة جمال عبد الناصر فقد كان ضئيلا حقيقة أنه احب فى مستهل شبابه فتاة من حى الظاهر وكان وقتذاك ضابطا صغيرا لا يتجاوز عمره ٢٢ عاما ولكنه كان حبا صامتا أخرس على طريقة نزار قبانى بالنظرات باللفتات بالصمت الرهيب. ولما حاول الزواج منها رفضه أهلها بحجة أن لها أخت أكبر منها ولا يمكن حسب تقاليد تلك الأيام ان تتزوج قبلها فصدمت عواطفه وسكن الحزن قبله لفترة، وبعد أن نجح فى تجاوز هذه المحنة وسحق عواطفه بدأ مشواره وتزوج تحية كاظم شقيقة صديقة عبد الحميد كاظم، وكانت المرأة الوحيدة التى لا شريك لها فى حياته. (٣)

---

(١) ادخلتها المخابرات البريطانية على القصر الملكى لمعرفة أسرار القصر السياسية من خلال تلك العلاقة، ولما أحست بانكشاف امرها دبرت لها حادثة فى بورسعيد حيث غرقت بعربتها أثناء عودتها.

(٢) محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل، جـ١، القاهرة، دار الشروق، الطبعة السادسة، ١٩٩٦، ص ١٤٨-١٥٠.

(٣) عادل حمودة: حكومات غرف النوم، المراة والسلطة من المشير عامر الى المشير ابو غزالة، ص ١٢٣-١٣٢.



لقد حاول البعض تعليل علاقة عبد الناصر بالمرأة أنه نشأ في أسرة غير سوية ، وأن علاقته بوالده الذي تزوج علي أمه بعد وفاتها لم تكن علي ما يرام وأن ذلك كان سببا في القسوة والصرامة والعناد التي اتسمت بها شخصيته .

وعلي أي حال فإنه يمكن القول أن الأنثي الخالدة في حياة عبد الناصر وفي عروقه كانت السلطة وأن المرأة في حياته لم تزد علي العيش والملح والعشرة الطيبة والأولاد .



تاسعا : عبد الحكيم عامر والمرأة :

من المعروف أن عبد الحكيم عامر نشأ في أسرة ريفية طيبة المعدن ، وأنه بعد اعتلائه السلطة ترددت الأقاويل حول علاقاته الغرامية المتعددة والتي كان أكثرها شهرة علاقته بالمطربة الجزائرية وردة والتي ظلت سرا حتي أعلنتها اذاعة دمشق يوم الانفصال ، وزواجه السري من الممثلة السينمائية صاحبة الأدوار الغرامية المثيرة « نفيسة عبد الحميد حواس » الشهيرة ببرلنتي عبد الحميد التي التقي بها بعد الانفصال في شقة بالزمالك خلال محاولات بعض رجاله التخفيف عن أزمته النفسية بعد المعاملة غير الانسانية التي لقيها من الانفصالين في سورية [١] . وقد لفت نظره إليها ثقافتها المتعددة واجادتها لبعض اللغات مثل الفرنسية والايطالية لدرجة أن تطورت العلاقات بينهما إلي زواج عرفي صعق له الرئيس عبد الناصر عندما أبلغ به ، واستدعاه لمقابلته من أجل هذا الغرض في مارس ١٩٦٧ وسأله غاضبا متألما عن حقيقة الأمر ، وقد اعترف له عبد الحكيم بهذه العلاقة وبرر الأمر بأنه وجد انسانة تفهمه [٢]

---

(١) روز اليوسف ، العدد ٢٣٤٣ .
(٢) حمودة : مرجع سابق ، ص ٢٤١ .

عاشرا: السادات والمرأة:

أما عن الرئيس محمد أنور السادات فكانت زوجته الأولي قروية لم تحظ بقسط من التعليم ، وكانت تكبره بسبع سنوات ، وأغلب الظن أن زواجه منها يرجع لأسباب الوجاهة الاجتماعية أكثر من كونه زواجا يتصل بالعواطف خاصة وأن والدها كان عمدة ميت أبو الكوم علي حين كان والد السادات موظفا صغيرا بالمستشفي العسكري بالقبة ، وأمه « ست البرين » ابنة فلاح سوداني [١] . لذلك كان تأثير هذا الزواج علي حياة أنور السادات ضعيفا .



أما عن الزوجة الثانية « جيهان صفوت رءوف » الشهيرة بجيهان السادات فقد كانت قوة ضخمة في حياة زوجها عندما كان يحكم مصر ، وساعدها علي ذلك طموحها الجامح التي كانت مستعدة لبذل كل شيء من أجله . كان السادات يكبرها بخمسة عشرعاما وكان متزوجا قبلها ، ومفلسا معدما ومطاردا وبلا وظيفة مأمونة ومع ذلك فقد أحست أنه رجلها التي تهواه .

إننا لم نسمع عن أي نشاط هام للسيدة جيهان قبل وصول زوجها إلي الحكم . ولكن بعد وفاة عبد الناصر واعتلاء زوجها أريكة الحكم رأت جيهان ألا تكتفي بدور زوجة الرئيس بل كونت لنفسها بلاط خاص يضم المحاسيب والشماشرجية ، وقفزت إلي دور المشاركة في الحكم وفي السلطة وفي أدق أسرار الدولة ، وامتد نفوذها إلي كل المواقع ، وعلي كل المسئولين ترأس الاجتماعات ، وتصدر التعليمات وتدلي بالأحاديث وتتابعها الصحافة والاذاعة والتلفزيون ، وتسافر ممثلة لمصر ومتحدثة ومتفاوضة حتي لو كان دورها لا يستند إلي أي تشريع أو عرف ، فقد كانت أقوي من التشريع ومن

(١) جيهان السادات : سيدة من مصر ، القاهرة ، المكتب المصري الحديث ، ص ٩٥ .

العـرف ، ومن كل الذين جـاءوا إلي مـراكـزهم نتـيـجـة جـهـدهم وعـملهم ومثابرتهم . كانت رغباتها بالنسبة لكافة المؤسسات أوامر لا ترد ويا ويل من يعصي لها أمرا .

فمن أجلها اجتمع مجلس جامعة القاهرة خصيصا واتخذ قرارا باعفاء الطلاب المتفوقين في دراستهم من السنة التمهيدية للماجستير إذا وافق مجلس الكلية ووافق بالفعل مجلس كلية الآداب جامعة القاهرة علي اعفائها من السنة التمهيدية وسمح لها باعداد رسالة الماجستير ، وحصلت عليها في موكب مهيب علي مشهد ومسمع من مصر كلها قال خلاله أحد الأساتذة أثناء مناقشته لها أن الرسالة تستحق الدكتوراه لما بذل فيها من جهد ، وقد علق الدكتور عبد العظيم أنيس علي ذلك في جريدة الأهالي فذكر أنه قد أصابه الغثيان والدوار بعدما شاهد ما حدث علي شاشة التلفزيون من تمجيد كبار رجال الجامعات لها خاصة وأن الجامعة تعد حارسة القيم ومنارة العلم وأن أساتذتها هم صفوة عقول مصـــر ، والمعبرين عن فكرها وقيمها .

حقيقة أن السيدة جيهان كانت تتميز بارادة قوية ، وكان لديها ثقافة متميزة وتعرف الانجليزية بطلاقة وربما بعض اللغات الأخري ، وأن هذه السمات كان يمكن أن تتيح لها حتي لو لم تكن زوجة لرئيس الجمهورية الحصول علي درجتي الماجستير والدكتوراه خاصة وأننا نري بعض الحاصلين علي هذه الدرجات في هذه الأيام ربما كانوا أقل منها ثقافة ومعرفة ، ومقدرة ومع ذلك فمن الصعب أن ننكر أن السيدة الأولي كانت محبة للشهرة والسلطة وأن التحاقها بالجامعة ورغبتها في أن تكون عضو هيئة تدريس يعد تكملة للديكور التي اختصته لنفسها .

ومن أجلها تباري بعض المسئولين في منحها العديد من الألقاب فقد

صرح نقيب الأطباء ووزير الصحة السابق علي الملأ في حرم كلية طب الدمرداش بأن السيدة جيهان تمرست في الطب بعملها في رئاسة الكثير من مؤسساته وأنها تستحق لقب طبيبة مصر الأولي ، وأثني علي كلامه وزير الصحة [١] .

ومن أجلها وصفها أحد الشعراء الذي يعد من طائفة المعلمين وإن كنا نضمه إلي بطانة المنافقين في حفل عام له جلاله وهو عيد العلم فقال في أبيات شعرية مستوحيا طلعتها البهية بأنها أجمل نساء العالم وأن الله اختصها بنصف الجمال ، وباقي النساء بالنصف الآخر .

هكذا كان المناخ الذي احيطت به سيدة مصر الأولي ، أفبعد هذا الكلام المعسول من صفوة عقول مصر تلام السيدة جيهان علي ما فعلته .

يقولون أنها كانت تغار من أي سيدة أجمل أو أذكي منها وأنها لا تريد أن تدانيها أي امرأة ولا يتوازي بجانبها أحد [٢] .

لقد حنقت السيدة جيهان علي سيدة الغناء العربي « أم كلثوم » إحدي الهبات الخالدات التي أسعدت الملايين ويصعب أن يجود الزمان بمثلها ، والتي كانت لها منزلة كبري ليس في قلب الشعب المصري وحسب بل والشعوب العربية كلها .

لقد كانت أم كلثوم متباسطة مع كل أعضاء مجلس الثورة فتناديهم بأسمائهم دون ألقاب . كانت تقول للسادات قبل توليه منصب رئيس الجمهورية يا أبا الأنوار وبعد أن تولي السادات الرئاسة نادته بذات اللقب الذي تعودت عليه في حفل حضرته جيهان فما كان من جيهان إلا أن وجهت

---

(١) سعاد أبو السعود : قصتي مع جيهان السادات ، القاهرة ، مؤسسة أمون للطباعة والنشر ، د. ت ، ص ٣٢ .

(٢) نوال السعداوي : مذكراتي في سجن النساء ، القاهرة ، دار المستقبل العربي ١٩٨٢ ، ص ٢١٢ .

لها تحذيرا شديد اللهجة فقالت لها « الزمي حدودك أنت تتحدثين إلي السيد الرئيس محمد أنور السادات رئيس الجمهورية » فغادرت أم كلثوم الحفل غاضبة وأصيبت بأزمة نفسية ، وبعدها تعرضت لحملة ضارية من جيهان كان من نتيجتها تعمد اهمال مشروع دار أم كلثوم للخير الذي كانت أم كلثوم قد قررت تشـــيده من أجـــل أبناء الشعب الفقراء ، خاصة وأن عثمان أحمد عثمان قد آثر السلامة ، وتهرب من التعاقد علي بناء مشروع أم كلثوم الذي حل محـله مشروع الوفاء والأمل الذي ارتبط باسم جيهان السادات [١] . ولاذت أم كلثوم بعد ذلك بالصمت والتقوقع حتي مرضت مرضها الأخير وماتت كوكب الشرق بالحسرة ومات مشروعها للخير ، واستولت جمعية الوفاء والأمل علي مخصصات المشروع .

وحنقت السيدة جيهان علي الدكتورة « نوال السعداوي » بعد أن قابلتها في مؤتمر كوبنهاجن العالمي للمرأة في يوليو ١٩٨٠ وأوغرت صدر زوجها عليها مما أدي إلي سجنها في سجن القناطر بحجة أنها هاجمت معاهدة كامب ديفيد في هذا المؤتمر [٢] .

وحنقت علي الدكتورة « سعاد أبو السعود » أمينة التنظيم النسائي في الفترة من عام ١٩٧٥ إلي عام ١٩٧٩ فأعلنت الحرب عليها وعلي زوجها الدكتور عبد العزيز سليمان رئيس جامعة عين شمس الأسبق الذي قاوم جهد طاقته أي محاولة للتدخل في شئون جامعته ، ورفض كل الاستثناءات بشتي صورها حتي لو كانت تنفيذا لرغبة السيدة الأولي مما جعل السيدة جيهان تضمر له السوء [٣] بشكل تناوله بتفاصيله المذهلة في كتابه «محنتي»

---

(١) سعاد أبو السعود : مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٢) نوال السعداوي : مذكراتي في سجن النساء ، ص ٢١٢ .

(٣) من أمثلة غضب السيدة جيهان عليه أنه بعد أن أحال صديقتها الدكتورة نعمت هاشم الاستاذة بكلية الطب إلي مجلس التأديب لتعديها علي زملائها ، اعتذر عن طلب جيهان بالعدول عن هذا القرار .

ففرضت عليه الحراسة وقدم للمحاكمة حتي برأه قضاء مصر العادل بعد أن زالت سطوة جيهان .

كما عاقبت سعاد أبو السعود ليس فقط بعزلها من رئاسة التنظيم النسائي بل بالغاء التنظيم نفسه .

وبعد كل ذلك فالسؤال المطروح هل كانت السيدة الأولي تتسلط علي زوجها أيضا ، وهل كان السادات يستسلم لرغبات زوجته في السلطة والشهرة تجنبا لاثارة المشاكل معها ، وحرصا علي هدوء البيت ، وهل كانت شخصيتها تفرض عليه كل رغباتها بالرغم من أنه كان يفتخر بأنه فلاح وينادي باتباع أخلاق القرية وتقاليد الريف ؟

الواقع أن ذلك كان يحدث كثيرا لدرجة أن بعض تصرفاتها التي تتم علي غير رغبته كانت تسبب له الاحراج في بعض الأحيان والأمثلة علي ذلك متعددة نذكر منها :

١ - خلال احدي زيارات الرئيس السادات للسعودية أصرت السيدة جيهان علي اصطحابه ، ومع أن السفارة السعودية في القاهرة كانت قد اقترحت أن تظل حرم الرئيس في الطائرة عند وصولها لمدة ساعة حتي تنتهي مراسم الاستقبال ، فقد رفضت جيهان ذلك بقولها « لماذا يجب أن أتواري عن النظارة لمجرد أنني سيدة ؟ أنا لا احتجب عن الرجال في مصر ، ولن أفعل ذلك في أي مكان آخر » [(١)] وأصرت علي رأيها وظهرت علي باب الطائرة بجانب زوجها وتعقبتها كاميرات التليفزيون السعودي وهي تغادر صالة الاستقبالات في المطار مع الأمراء السعوديين مما سبب احراجا للملك « خالد بن عبد العزيز » أمام شعبه المحافظ المتشدد الذي

---

(١) جيهان السادات : سيدة من مصر ، ص ٤٠٥ .

لا يقبل ظهور امرأة مسلمة علانية بصحبة رجال ، كما سبب احراجا للرئيس السادات أيضا خاصة وأنه لم يكن يتوقع أن يحدث ذلك من زوجته التي نهضت دون سابق انذار وخرجت من باب الطائرة لتقف بجواره أمام كل العدسات وفي مطار كامل بالرجال (١) .

٢ - إن نفوذ السيدة جيهان المتزايد علي زوجها وتدخلها في أدق أموره جعله يبتعد عنها في معظم الأوقات إلي استراحته ، ويقضي أوقات فراغه مع عثمان أحمد عثمان أكثر مما يقضيها في بيته معها مما جعلها رغم المصاهرة بينهما تكرهه إلي حد كبير (٢) .

وبعد هذا العرض هل يمكن القول أن هناك سمات مشتركة بين زينب الوكيل وجيهان السادات ؟

الواقع أن المقارنة بينهما متقاربة إلي حد كبير فقد تزوج النحاس زينب وكان يكبرها بخمس وعشرين عاما ، وتزوج السادات جيهان وكان يكبرها بخمسة عشر عاما . وكما استطاعت زينب الوكيل التأثير علي زوجها والقفز إلي دور مشاركته في أمور الحكم ، فقد فعلت جيهان ذلك ويزيد ، وكما نجحت زينب الوكيل في ضرب سمعة نزاهة الحكم والاساءة إلي سمعة زوجها فقد نجحت جيهان في ذلك بضربها عرض الحائط بكل مالا يتلاءم مع مطالبها ورغباتها .

يضاف إلي ذلك أن جيهان استطاعت أن تفعل ما لم تستطع زينب أن تفعله وربما يرجع ذلك إلي ظروف عصر كل منها فمثلا تدخل السيدة جيهان فيما يسمي قانون جيهان للأحوال الشخصية (٣) وحق المرأة في طلب

---

(١) سعاد أبو السعود : مرجع سابق ، ص ١٢٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٤ .

(٣) حول دور جيهان في اصدار هذا القانون ، وموافقة مجلس الشعب عليه في ٣ يوليو ١٩٧٩ ، انظر سيدة من مصر ، ص ٤١٧ .

الطلاق ، والشقة من حق الزوجة ، وتدخلها في اصدار قرار باضافة ثلاثين مقعدا تخصص للمرأة في مجلس الشعب ، وتخصيص من ١٠ إلي ٢٠ في المائة من المقاعد الستة والعشرين في المجالس الشعبية للمرأة كل ذلك لم يكن واردا علي الاطلاق أيام زينب الوكيل .

وعلي أي حال فإن النظام الليبرالي الذي ساد مصر في عهد النحاس جعل معارضيه يثيرون الحملات الضارية ضد زوجته مثل موضوع شرائها للبالطو الفرير والسيارة الباكار دون أن يتعرض أحدهم لأذي أما النظام الليبرالي في عهد السادات فإنه لم يتحمل نقد الدكتور محمد حلمي مراد للسيدة الأولى فعندما تحدث عن اختصاصات حرم رئيس الجمهورية والتجاوزات التى تقوم بها استنادا الي مركز زوجها تم إهانته وإدخاله السجن .

ومما سبق يتضح دور المرأة البارز في تكوين الزعامات المصرية ومساندتها وتحديد مسارها والتأثير فيها أحيانا ، ودورها أيضا في توريط هذه الزعامات والاساءة إليها في أحيان أخري .









خاتمـــة

وبعد أن فرغنا من عرض هذه الصفحات التى توضح بعض الملامح حول المتغيرات التى طرأت على أحوال المرأة المصرية ، فمن الواضح أن قضية حقوق المرأة ومساواتها بالرجل لم تكن فى يوم من الأيام صراعاً بين الرجل والمرأة أو تنازع وتسابق للحصول على مميزات قبل الآخر خاصة وأنه من المعروف أن الذى دافع عن حقوق المرأة منذ بداية الأمر كان الرجل وبعد أن تمتعت المرأة بحق التعبير الحر ، وحصلت على معظم حقوقها حتى وصل بها الأمر إلى تعيينها قاضية بالمحكمة الدستورية العليا ، وشغلها وظيفة قاضى ورئيس محكمة ، وبعد أن صدر قانون المحاكم المختصة بالأسرة لتسهيل حل القضايا المرتبطة بمشاكل المرأة ، وفض المنازعات التى كانت تؤرق مضاجع الأسرة المصرية فإنه يجب على المرأة المصرية الا تنسى واجباتها الأساسية وأهمها تنشئة الأجيال وتربيتها تربية سليمة ، كما أن عليها أن تحقق الكثير من الإنجازات التى أنفتحت أمامها وأن تؤدى مسئولياتها بإيجابية فى تحقيق تنمية المجتمع ، وأن تقترن واجباتها بحقوقها فى إطار المواطنة التى لا تميز بين إنسان وآخر حتى تثبت إنها لا تقل كفاءة أو مقدرة عن الرجل ، وحتى تستطيع أن تحافظ على المكتسبات التى تحققت لها وهذا لا يأتى إلا بتركيز المرأة على عنصرين أساسيين هما الوعى والإرادة وأن تقوم بتدعيم قدراتها فى الحفاظ على القيم والمباديء الوطنية والحفاظ على التراث والهوية والخصوصية فى عصر تهدده هيمنة العولمة .

فحياة المجتمع لا تستقيم إلا إذا تعاونت المرأة مع الرجل فى تأدية ما عليها من واجبات ومسئوليات ، فهى عصب التنمية بكل صورها إذا أحسنت أداء دورها المكلفة به .

الملاحق

ملحق رقم (١)

زجل بقلم (بديع خيرى) من الإسكندرية

احرس يا حارس

الست هانم من كفر غانم ولولا تعمل سياسية
والبيه بتاعها أسير دلعها مالوش على توتو أسية
ليحى كانى ليحى مانى وقاعدة تحرت فى وسية
أنه عليها رموش عينيها فيها خطر عالفروسية
لا بسه الملاية والبدع آية فى الضل فارده الشمسية
يانضارتها يامروحتها يا بيتها فى العباسية
تضرب بيانو اجبسيانوا وتغنى مغنى السويسيه
احرس يا حارس بنت المدارس دى جن والا إنسية
الصحة خسعه وقبل تسعه ما تترفعشى الناموسية
بردون يافندم سعادتك اخدم البيت عايز له مواسية
والحلوه حايسه وراها جلسه وراها لجنة رئيسية
جوازته فيكى جت بولشفيكى على الطريقة الروسية

بديع خيرى

الإسكندرية

حواءُ يا قبلةَ الأزمان .... يا لمسةَ العرفان ....
كنتِ الأمُ فكنتِ العطاءَ والعطية ....
كنت الأخت فكنت الزنبقة الأبية ....
كنت الزوج فكنت الطهر وبالحب سخية ....
لك منى السلام والفُ الفِ تحية ....



يوسف حلمى المصرى

علموا المرأة لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة :. وأدبوها ليتربى فى حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم .

مصطفى لطفى المنفلوطى

ملحق رقم (٢)

عريضة مقدمة من الصحفية منيرة ثابت إلى رئيس مجلس النواب تطالب فيها بحق المرأة فى الانتخاب

القاهرة فى مارس ١٩٢٧

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس النواب

أتشرف بأن أرفع إلى دولتكم عريضتى هذه وأملى كبير فى أن يكون لموضوعها نصيب من عناية مجلس النواب الموقر.

إن العالم كله سائر الآن فى سبيل المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع الحقوق المدنية والسياسية وقد كان الدين الإسلامى أول سابق إلى «هذه المساواة» فأعطى المرأة حرية التقاضى بدون إذن من زوجها وحرية المعاملات جميعها من بيع وشراء ورهن وارتهان وإيجار واستئجار وهبة وغير ذلك. وجرت التقاليد على هذه السنة حتى اعترف الفقاء للمرأة بتولى القضاء متى توفرت فيها الشروط اللازمة لذلك. وليس يخفى أن منصب القضاء هو أرفع المناصب وأجلها شأنا فى الإسلام.

واعترف الفقهاء أيضا للمرأة بحق الحكم وإدارة شؤون الرعية، فتولى الحكم كثير من النساء فى الممالك الإسلامية، أخص بالذكر منهن الملكة المصرية شجرة الدر، التى اشتهرت بالعدل والحكمة والتى نالت مصر على يدها ما لم تنل مثله إلا على يد كبار الملوك.

إذن شريعتنا الإسلامية وتقاليدنا الشرقية سبقت المدنية الغربية فى الاعتراف بحقوق المرأة السياسية. وإنما أقول الحقوق السياسية لأن تولى القضاء وتولى الحكم من الحقوق السياسية التى لا تنكر أهميتها. وقد أخذت أخيرا بلاد أوربا الراقية بهذه المساواة بين الرجل والمرأة فاعترفت الولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا وكل البلاد الراقية للمرأة بحق الانتخاب. حتى الهند وهى بلاد شرقية لم تصل بعد إلى الدرجة التى وصلت إليها مصر من التقدم الاجتماعى والسياسى اعترفت للمرأة بحق الانتخاب وقد جرت فيها الانتخابات منذ ستة أشهر لجمعيتها التشريعية فاشترك فيها الرجال والنساء على السواء.

فهل يصح مع هذا كله أن تبقى مصر منكرة على المرأة أن تتساوى مع الرجل فى الحقوق السياسية، وخصوصا فى «حق الانتخاب» الذى جئت اليوم مطالبة به؟؟

١- صاحبة مجلة الأمل المتخصصة فى الدفاع عن حقوق المرأة ، وكانت تتصف بالجرأة وقوة الإرادة والثقة فى النفس ، وقد شاركت فى نشاط الإتحاد النسائى وتحمست لحقوق المرأة السياسية

إن المصريين جميعا يعرفون أن المرأة المصرية شاركت الرجل مشاركة فعلية فى الحركة الوطنية التى كانت نتيجتها الحصول على الدستور، فمن الغبن للمرأة أن يستأثر الرجل دونها بكل مزايا الدستور.

والآن فلننظر ما هو حكم الدستور فيما أطالب به؟ هل هو ينكر على المرأة حق الانتخاب؟؟ كلا، فإن المادة (٣) منه تقول:

«المصريون لدى القانون سواء وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية.. الخ» فهل كلمة «المصريون» هنا يقصد بها الرجال وحدهم أو الرجال والنساء معا؟؟

إن المقصود بالبداهة هو الرجال والنساء معا، وإلا فلو قيل إن المقصود هو الرجال وحدهم، لكان معنى ذلك إخراج النساء من حكم المساواة فى التمتع بالحقوق المدنية! وهذا ما لم يمكن أن يقول به أحد.

إذن دستورنا ينص على أن الرجال والنساء متساوون لدى القانون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية، ولا شك فى أن حق الانتخاب هو أول الحقوق السياسية وأساسها: ولكن مما يوجب الأسف أن المادة(١) من قانون الانتخاب جاءت بعد ذلك فنقضت هذه القاعدة وخالفت المادة الثالثة من الدستور فقالت:

«لكل مصرى من الذكور البالغ من السن إحدى وعشرين سنة ميلادية كاملة حق الانتخاب «، فقول هذه المادة: «لكل مصرى من الذكور» يفيد التخصيص وهو وحده الذى حرم المرأة المصرية حقها فى الانتخاب وهو مناقض لحكم المادة(٣) من الدستور التى تقدم ذكرها.

ومن هذا التناقض بين المادتين المذكورتين نستخلص دليلا جديدا على أن المادة(٣) من الدستور تشمل فى حكمها الرجال والنساء معا، وهذا الدليل هو أن المادة(١) من قانون الانتخاب لما أرادت التخصيص قالت «لكل مصرى من الذكور «فلو أن المدة(٣) من الدستور أرادت التخصيص هى أيضا لاستعملت نفس ذلك التعبير ولما اكتفت بأن تقول

«المصريون» بدون تخصيص.

فهذا الحكم الذى حكمت به المادة الأولى من قانون الانتخاب ظلم للمرأة وهضم لحق من حقوقها التى أعطاها إياها الدستور.

ولذلك أتقدم بعريضتى هذه إلى مجلس النواب الموقر راجية تخويل المرأة المصرية حق الانتخاب وذلك بتعديل المادة الأولى من قانون الانتخاب كما يأتى:

«لكل مصرى ومصرية بالغين من السن إحدى وعشرين سنة ميلادية كاملة حق الانتخاب». وتفضلوا يا دولة الرئيس بقبول عظيم الاحترام،

منيرة ثابت



هدى شعراوى فى صورة مع اسرتها

وثيقة رقم (٣)

قـــرار رئيـــس الجمهوريـــة
بإنشـــاء المجلس القومـى للمـــرأة

قرار رئيس جمهورية مصر العربية رقم (٩٠) لسنة ٢٠٠٠م بإنشاء المجلس القومى للمرأة



رئيس الجمهورية

- بعد الإطلاع على الدستور: .... قرر

(المادة الأولى)

ينشأ مجلس يسمى (المجلس القومى للمرأة) يتبع رئيس الجمهورية تكون له الشخصية الاعتبارية، ويكون مقره مدينة القاهرة.

(المادة الثانية)

يتكون المجلس من ثلاثين عضوا من بين الشخصيات العامة وذوى الخبرة فى شئون المرأة والنشاط الاجتماعى، وتكون مدة العضوية ثلاث سنوات قابلة للتجديد.

ويصدر بتشكيل المجلس قرار من رئيس الجمهورية.

ويختار المجلس فى أول اجتماع له رئيساً للمجلس.

(المادة الثالثة)

يختص المجلس القومى للمرأة بما يلى:

١- اقتراح السياسة العامة للمجتمع ومؤسساته الدستورية فى مجال تنمية شئون المرأة، وتمكينها من أداء دورها الاقتصادى والاجتماعى وإدماج جهودها فى برامج التنمية الشاملة.

٢- وضع مشروع خطة قومية للنهوض بالمرأة وحل المشكلات التى تواجهها.

٣- متابعة وتقييم تطبيقات السياسة العامة فى مجال المرأة، والتقدم بما يكون لديه من مقترحات وملاحظات للجهات المختصة فى هذا الشأن.

٤- إبداء الرأى فى مشروعات القوانين والقرارات المتعلقة بالمرأة قبل عرضها على السلطة المختصة، والتوصية باقتراح مشروعات القوانين والقرارات التى تلزم للنهوض بأوضاع المرأة.

٥- إبداء الرأى فى جميع الاتفاقيات المتعلقة بالمرأة.

٦- تمثيل المرأة فى المحافل والمنظمات الدولية المعنية بشئون المرأة.

٧- إنشاء مركز توثيق لجمع المعلومات والبيانات والبحوث المتعلقة بالمرأة وإجراء البحوث والدراسات فى هذا المجال.

٨- عقد المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش والبحث فى الموضوعات التى تخص المرأة.

٩- تنظيم دورات تدريبية للتوعية بدور المرأة فى المجتمع وبحقوقها وواجباتها.

١٠- إصدار النشرات والمجلات والمطبوعات المتصلة بأهداف المجلس واختصاصاته.

١١- الموضوعات التى يحيلها رئيس الجمهورية للمجلس.

(المادة الرابعة)

يجتمع المجلس بدعوة من رئيسه مرة على الأقل كل شهرين، أو كلما رأى رئيس المجلس ضرورة لذلك، ويكون اجتماع المجلس صحيحاً

الفهـــرست

رقم الإيداع : ٨٤١٦ / ٢٠٠٧

تحريراً فى : ١١ / ٤ / ٢٠٠٧